العمليات الاستشهادية
ترف أم ممر إجباري؟

العمليات الاستشهادية

ترف أم ممر إجباري؟

تحـــــرير

عبد التواب مصطفي

عبد القادر ياسين   راندا أبو الدهب   أسامة عامر

فتحي عبد العليم   ريدا خضر البرعي   سمر الغلبان



العمليات الاستشهادية
ترف أم ممر إجباري؟

عبد التواب مصطفى
وآخرون



القاهرة - مصر
4 شارع حجاج من فريد الأطرش- عين شمس الشرقية
ت / 4914276
www.elkalema.com
Info@elkalema.com
رقم الإيداع : 10575/ 2003
ISBN :977- 6010 - 83 - 3
Published in 2003

المحتويات

تقديم

تحتل العمليات الاستشهادية موقعاً مهماً في العمل الفدائي، بل لا مبالغة في اعتبار تلك العمليات مرادفة لهذا العمل. وليس صحيحاً أن الاستشهاد وقف على القوى الدينية، أو لا يكون إلا في سياق "الجهاد في سبيل الله" فحسب. ذلك أن من مات في سبيل أرضه، أو عرضه، أو ماله فهو شهيد. لذا لم يكن غريباً أن فصائل علمانية كانت الرائدة في مجال العمليات الاستشهادية، في فلسطين ولبنان، على حد سواء.

إلى ذلك يخطئ من يظن بأن العمليات الاستشهادية اختراع فلسطيني، رغم أنها لم تتحول إلى ظاهرة، إلا في "انتفاضة الأقصى والاستقلال" الفلسطينية.

لقد كانت هذه العمليات، على مدى التاريخ ممراً إجبارياً، لكل من اختل ميزان القوى لصالح أعدائه، بشكل فادح. وفلسطين لم تكن استثناءً في هذا الصدد. فعدا الاحتلال المومأ إليه، ثمة الغياب شبه الكامل للمشاركة العربية، والجبهة المتحدة للفصائل الفلسطينية، والقيادة الجماعية الائتلافية الوطنية، والاستراتيجية طويلة الأمد للمقاومة، فضلاً عن مصادرة الحريات الديمقراطية عن مناطق الحكم الذاتي. ما قلل من تأثير تلك العمليات على أمن العدو، واقتصاده.

لعل من فضلة القول أن العمليات الاستشهادية الوسيلة الوحيدة المتاحة، راهناً، لجعل أعدائنا يألمون، كما نألم نحن، بما يستحدث توازناً للرعب. مع هذا كله فالعمليات الاستشهادية الراهنة سلاح دفاعي، ضد القصف الإسرائيلي الشرس بالطائرات، والسفن، والدبابات الأمريكية الصنع، بأيدي الإسرائيليين، ضد المدنيين الفلسطينيين العزّل.

مع اليقين بأن تلك العمليات لن تفضي إلى تحرير فلسطين. ناهيك عن أنها ليست مقدسة، فوق الحوار، خاصة في مجال الرد على أسئلة: لماذا؟ متى؟ أين؟ كيف؟ كم؟. ذلك أن هذه العمليات ليست هدفاً، في حد ذاتها، بل هي شكل كفاحي، بمحدداته المعروفة، وفي مقدمتها طبيعة التناقض مع العدو، ومرتبة هذا التناقض، إلى حال ميزان القوى العسكري، فضلاً عن مدى استعداد الشعب لخوض هذا الشكل الكفاحي، ناهيك عن ضرورة استكمال العامل الذاتي، المتمثل في جاهزية الفصيل المعني، وتوفر العتاد، بما يضمن الاستمرار، والنجاح، في آن.

القاهرة في ٢٠ / ٣ / ٢٠٠٣

عبد القادر ياسين

إلى أن تبلور مفهوم "الاستشهاد"، وتكاملت أبعاد ظاهرة "العمليات الاستشهادية"، هذا المفهوم الأصيل في الفقه الإسلامي، وهذه الظاهرة التي انفرد بها الشعب الفلسطيني المجاهد، المرابط على أهم ثغور الأمتين العربية والإسلامية، إلى أن تحقق ذلك، كانت مسيرة كفاح هذا الشعب البطل، قد عرفت، أو مرت بكل ما احتواه معجم "المقاومة والجهاد" من مفاهيم، وممارسات ذات صلة - بدرجة أو بأخرى - بمفهوم الاستشهاد، وظاهرة العمليات الاستشهادية.

مع بالغ التقدير لكل صور المقاومة والتضحية - وقد تصل إلى درجة بذل النفس - التي عرفتها، أو مارستها حركات التحرر العالمية. ومع بالغ التقدير لكل صور المقاومة، وأشكال الجهاد، التي عرفها تاريخ الشعوب الإسلامية، يظل مفهوم "الاستشهاد" وظاهرة "العمليات الاستشهادية" شكلاً متميزاً، تبلور في إطار الفقه الإسلامي، والخبرة الجهادية الإسلامية، كما ستوضح صفحات هذا الكتاب.

لذا، فإن من يحاول من الباحثين، أن ينقب في تاريخ الحركات النضالية، أو كفاح الشعوب غير الإسلامية، ليلتمس فيها "تأصيلاً تاريخياً" للظاهرة الاستشهادية، يكون قد أسرف على نفسه، وتعسف مع الظاهرة موضوع البحث، لأنه راح يلتمس جذوراً تاريخية لظاهرة إسلامية بحتة، في تاريخ شعوب غير إسلامية، ربما لم يؤمن بعضها بعقيدة سماوية من الأساس.

قد يكون من بين هذه الشعوب غير الإسلامية. مَن عرف نماذج نضالية، أو صور مقاومة تفوق - فرضاً - أسلوب الاستشهاد، فله أن يبرزها، وله أن يسميها بما يشاء، دون أن يتعسف بإلباسها ثوب أسلوب آخر، هو الاستشهاد،

أو يزعم بأنها سابقة تاريخية له.

ذلك، لأن الاستشهاد يرتبط، ارتباطاً مباشراً، بالعقيدة الإسلامية، أولاً، ثم - ثانياً - لأن ظاهرة العمليات الاستشهادية، قد تبلورت، وتكاملت أبعادها في إطار تجربة نضالية معينة هي التجربة الفلسطينية، بل في واحد من أطوار هذه التجربة، هو، تحديداً، ما اشتهر بانتفاضة الأقصى والاستقلال.

الاستشهادي هو مَن عقد عزمه على بَذل نفسه في سبيل الله، أي في سبيل دينه، وأمته، ووطنه، متميزاً عن عامة الشهداء، الذين يكونون قد خرجوا ضمن جيش المسلمين، وقلوبهم - كغيرهم من بقية أفراد هذا الجيش - متعلقة بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. فيمن الله على بعضهم بحسنى الشهادة، ويحجبها عن البعض.

الاستشهادي - إذن - تجاوز هذه الاحتمالية - النصر أو الشهادة - وعقد عزمه على خيار واحد، وهو بيع أو بذل نفسه لربه، فأنجز الله له ما عزم عليه، وهو - إذن - في صدارة الشهداء.

إذا كان مفهوم الاستشهاد قديماً في الفكر الإسلامي - كما ستبين صفحات هذا الكتاب - أو له سوابقه التاريخية في التجربة الجهادية الإسلامية، فإن الجديد، اليوم، هو تجاوز هذا المفهوم، بتطبيقاته الفردية، أو النادرة فيما مضى، إلى ما نحن بصدده، الآن، وهو كثافة تطبيقه، وإطراد معدله، وانداح دائرته، إلى الحد الذي يجعل منه ظاهرة جهادية متكاملة الأركان.

نقف في الصفحات الأولى من هذا الكتاب على "فقه الاستشهاد"، ثم نرتقي، رويداً، في تناول أبعاد ظاهرة العمليات الاستشهادية، من خلال عدة بحوث راصدة ومحللة، وصولاً إلى المردود الاستراتيجي لهذه "الظاهرة/ السلاح"، وما حققته من توازن رعب مع العدو الصهيوني، كاد يفكك بيته العنكبوتي.

تشمل هذه المعالجة ما ثار عن جدل كبير، تعددت أبعاده الشرعية السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية، وكذا، ما كان ولا يزال من أصداء مترادفة في دوائر عديدة، وطنية، وإقليمية، وعالمية.

ولأن العملية الاستشهادية عملية، محكمة التخطيط، والتنفيذ، ومكلفة مادياً، وقائمة - قبل كل ذلك - على بنية عقائدية راسخة، فقد كان لزاماً أن نقف على هذه الجوانب الفنية لهذه "الظاهرة/ السلاح/ النموذج"، دون الوقوف عند حد شخص "الاستشهادي"، بل نتجاوزها إلى فريق العملية الاستشهادية.

تقبل الله منهم جميعاً، وألحقنا بهم على خير.

المحرر



مدخل

لمحة عن الاستشهاد في التاريخ

عبد القادر ياسين

لعل من العبث تصور احتكار الشعب الفلسطيني للعمليات الاستشهادية، التي يستحيل اعتبارها اختراعاً إسلامياً، فهذه العمليات قديمة، وترتبط بوجود الإنسان على وجه الأرض. حيث كلما واجه خطراً داهماً، متفوقاً في أسلحته وقوته، ومستبيحاً الإنسان، والزرع، والضرع، وجد من يتصدى له من بين ضحاياه، في محاولة لتجاوز ميزان القوى المختل لصالح المعتدي، حيواناً كان أم بشراً.

إن الاستشهاد يضرب بجذوره عميقاً في التاريخ الإنساني، وهو ليس وقفاً على أبناء الدين الإسلامي، أو حتى أبناء الأديان السماوية، بل ثمة أبناء أديان أرضية، ناهيك عن ملحدين، خاضوا غمار تلك العمليات.

غني عن القول بأن الاستشهاد ذروة الفداء، والأخير بمثابة استعداد المرء للتضحية من أجل قناعاته، ومُثله، ومعتقداته. والفداء - لغوياً - إحلال شئ محل آخر، حماية للمفتدي، أو تعويضاً عنه. ولابد أن يكون حافز الفداء نبيلاً. وهو غير التهور، والاندفاع الطائش [1].

إلى ذلك يختار الفدائي طريقه بملء إرادته، ودونما ضغط خارجي. وهذا أحد أبرز الفدائيين الفرنسيين، خلال الستينيات، يؤكد: " ... ولا يستطيع أي رجل أن يأمر أي رجل آخر بأن يضحي بنفسه في سبيل الحرية، لأن الرجال لا يضحون براحتهم، ورفاهيتهم، وبأولادهم، وبنور النهار، ولا يموتون بناء على أوامر من أي إنسان، وإنما من أجل عقيدة يختارونها، ولا يتخلون عنها" [2].

في السياق نفسه كان واحداً من أهم استراتيجيي الإنسانية أكد، قبل خمسة وعشرين قرناً، في الصين بأنه لم يكن للإرهاب الاعتباطي أن يخلق إرادة قتال [٣].

والعمليات الاستشهادية ضمن ملامح الحرب، التي بدأت بدائية، لكن سماتها البدائية لا يمكن أن تختفي أبداً، في أشكال الحرب اللاحقة، الأكثر تطوراً. وأهم تلك السمات أن الحرب تتم وفق أساليب الصيد، وتستهدف قتل الخصم، مع التعرض لأقل خطر ممكن على أن الحرب - في جوهرها - نوع من الاغتيال. وفيها يتجنب الخصمان المعركة، بمعناها العسكري المعروف. والأسلوب المعتاد هنا: الكمين، أو الهجوم المفاجئ، فيما ليس للأرض أية أهمية [٤]. ومع تطور التحصينات ظهرت الحرب التقليدية، فلم تعد المواجهة بين شعب وآخر، بل بين مجموعتين مسلحتين، تتبارزان، نيابة عن شعبيهما، ومع ذلك ظل جوهر الحرب ثابتاً (تدمير إرادة العدو لإرغامه على الرضوخ لشروطنا) [٥].

في المسيحية

حتى القرن الخامس ق. م. ، ظلت الحرب نوعاً من الطقوس. وهذا رأس أمارة "يو" الصينية بأمر ثلاث آلاف من الرجال، المحكوم عليهم بجرائم مختلفة، بتقدم تشكيلات الأمن القتالية. وأمام أنظار العدو قام أولئك الرجال بالانتحار الجماعي، بقطع رقابهم وعند ذلك أركن جيش العدو (الأمير شو) وحلفاؤه إلى الفرار، بعد أن أسرهم الهلع [٦].

من آسيا إلى أوربا، فحين هزم القائد الروماني، القنصل أكويليوس، ثورة العبيد الثانية، في صقلية، سنة ١٠٢ ق. م. ، بمجزرة رهيبة، فإن أكويليوس استبقى ألف عبد قوي، ليدفعهم إلى مصارعة الوحوش الضارية، في ميادين الألعاب العامة، إلا أنهم نجوا، بالانتحار، من الآلام المبرحة التي كانت تنتظرهم، حيث اتفقوا فيما بينهم على أن يتذابحوا. ولم يجد آخرهم من يذبحه، فانتحر [٧].

مع كل دين جديد، تتطور عمليات تعذيب وتقتيل معتنقي ذاك الدين. فمع ظهور المسيحية تفنن أباطرة الرومان في تعذيب وقتل أبناء الدين المسيحي،

ومريديه. فيما أعطى هؤلاء أروع الأمثلة على التشبث بعقيدتهم، والاستشهاد دونها، وتفضيلهم مصارعة الأسود، والأفاعي، وغيرها من الحيوانات المفترسة، والموت بين مخالبها، وأنيابها، على أن يتنكروا لدينهم [٨].

في الإسلام

لا يزال كبارنا يذكرون ما درسوه في فتوتهم، مثل قول الشاعر العربي، في صدر الإسلام:

وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عُدّ من سقط المتاع

أما علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فهو القائل: "والله ما أُبالي أُدخل إلى الموت، أو خرج الموت إليّ".

أما ما قالته أسماء بنت أبي بكر لإبنها، عبد الله بن الزبير، فقد غدا مثلاً، وذلك حين حثت ولدها على الخروج إلى الطاغية المتعطش للدماء، الحجاج بن يوسف الثقفي، ومواجهته، بعد أن خشى ابن الزبير أن يمثل الثقفي بجثته، بعد أن يقتله: :يابني! ماذا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها" ؟!.

أما القائد العربي الشهير، أبو عبيدة بن الجرّاح، فجعل النهر من خلفه، في ملاقاته أعدائه الفرس، وحرّض جنوده على طلب الشهادة: "يجب أن لا يكونوا أجرأ على الموت منا" !

ثمة من يرى في عكرمة بن أبي جهلٍ أول استشهاديٍ في الإسلام، حين تقدم صفوف المقاتلين المسلمين، شاهراً سيفه، صائحاً: "من يبايعني على الموت"؟!. على أن التاريخ الإسلامي يحفل بصور الفداء والاستشهاد. فهذا الحسين بن علي لم يكن مطلوباً منه سوى لي لجام ناقته، حتى يضمن حياة رغدة هانئة. لكنه فضّل الاستشهاد في سبيل المبدأ [٩].

ولطالما نظم أمير حلب، سيف الدين الحمداني - في القرن العاشر الميلادي - فرق الفدائيين، لتخوض "حملات القفز"، وتباغت قواعد الأعداء، في قمم الجبال المتفرقة، وتسحقها [١٠].

أما صلاح الدين الأيوبي، فأضاف إلى قواته النظامية "الجيش المطوعة"، من المتطوعين المتسلحين ذاتياً، في سبيل عمليات استشهادية، في الصفوف الخلفية للأعداء [١١].

في التاريخ الحديث والمعاصر

لم يخلُ تاريخ البشرية الحديث والمعاصر من العمليات الاستشهادية، أساساً بسبب استمرار الحروب، العادلة وغير العادلة، خاصة حين يكون ميزان القوى العسكري مختلاً لصالح طرف على حساب آخر، أو حين يضيّق الخناق على شعب، أو مجموعة.

في هذا السياق شهدت عمليات استشهادية عدة، خلال الحرب الفرنسية - الأسبانية (١٧٨٥)، وعبر السنوات الثلاث التي استغرقتها الحرب الأهلية بين الديمقراطيين والفاشيين هناك (١٩٣٦ - ١٩٣٩).

من بين الدول الأجنبية، كانت اليابان في المقدمة. وهذا أحدهم يلقي بنفسه طعماً لأكبر البراكين الثائرة في اليابان، بمجرد علمه بما اقترفه ابن أخيه في حق وطنه. وظهر عمل العم باعتباره هروباً من العار الذي لحق بالعائلة، بسبب فرار ابن أخيه - القائد في الجيش الياباني - إلى صفوف أعداء بلاده، الروس (١٩٠٤). وكانت المفاجأة الأولى، حين تسلل القائد المذكور عائداً إلى وطنه، عشية انتهاء الحرب، بعد أن كان أنهى مهمته بتقديم معلومات مضللة إلى أعداء بلاده. ما ألحق بجيوشهم أنكر الهزائم.

أما المفاجأة الثانية، فحين كشفت السلطات اليابانية عن علم العم المنتحر بالمهمة الوطنية لابن أخيه، ورغبة العم، بانتحاره، تأكيد خيانة ابن أخيه [١٢]. وخلال سني الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) تميزت القوات اليابانية بعملياتها المعروفة باسم "الكاميكاز". ففي ٧ / ١٢ / ١٩٤١، وصلت القوات اليابانية إلى حوالي ٣٦٨ كم إلى الشمال من ميناء بيرل هاربر، حيث يرابط أسطول أمريكي ضخم. وسرعان ما انقضّت الطائرات الحربية اليابانية على قطع الأسطول الأمريكي في الميناء. وقد استمر هجوم الموجة الأولى من الطائرات قرابة نصف ساعة، تحققت فيها المفاجأة كاملة، لذا لم تواجه الطائرات اليابانية مقاومة تذكر. وأن قوبلت طائرات الموجة اليابانية الثانية

بمقاومة أرضية فاعلة. وقد انقضت الطائرات اليابانية على حظائر الطائرات الأمريكية الرابضة هناك. وبعد أن كانت طائرتان يابانيتان قد أصيبتا، فصدمتا الطائرات الأمريكية، طريقة انتحارية، سجلت أول عمليات "الكاميكاز" اليابانية، التي استخدمت، لاحقاً، في مراحل الحرب العالمية الثانية المتقدمة(١٣). فحين أطبقت البوارج والسفن الحربية الأمريكية على الجزر اليابانية، صيف ١٩٤٥، غداة استسلام رأس "المحور"، ألمانيا النازية، واندحار إيطاليا الفاشية، وإنهاك اليابان، عندها لم يجد الطيارون الحربيون اليابانيون مفراً من محاولة افتداء وطنهم وأمتهم بأرواحهم، فانقضّوا بطائراتهم الحربية على البوارج والسفن الأمريكية المهاجمة، مختارين مداخنها، بالذات، حتى يضمنوا النتائج. وتمخضت تلك الهجمات الجسورة - كما هو معروف - عن تدمير خمس وثلاثين بارجة وسفينة حربية أمريكية، وإعطاب ثلاثمائة أخرى. كما أعاد الملحق العسكري الياباني في موسكو، إبان الحرب العالمية الثانية، إنتاج قصة القائد الياباني، مطلع القرن العشرين. فقد سلم المخابرات السوفييتية خرائط ومعلومات عسكرية سرية عن اليابان، لكن الأمن السوفييتي ارتاب به، فأمر بطرده من الاتحاد السوفييتي، "باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه". لكن طوكيو أعدمته، بتهمة "الخيانة العظمى"، فأقدم والده، عضو مجلس الشيوخ، على الانتحار، هرباً من عار ابنه. ما جعل السوفييت يستعينون بما سبق لهذا الملحق أن قدمه لهم من خرائط ومعلومات. فحاقت بقواتهم الهزيمة تلو الهزيمة. فلم يكن الملحق خائناً لبلاده، التي منحته، ووالده "وسام الشمس الفضية"، اعترافاً لهما بوطنيتهما، وتضحياتهما في سبيل انتصار وطنهما (١٤).

إلى ذلك تعتبر حرب العصابات التي خاضتها شعوب يوغسلافيا، ضد ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، إبان الحرب العالمية الثانية، من أنجح حروب التحرير. واحتلت موقعاً مهماً، لا في تحرير يوغسلافيا فحسب، بل في إلحاق الهزيمة بأداة الحرب الألمانية - الإيطالية، أيضاً (١٥).

في فيتنام نسجت الحرب ضد المحتلين الفرنسيين أروع أساطير الاستشهاد. وعند اندلاع معركة قلعة دين بيان فو الشهيرة، ربيع ١٩٥٤، عمد فلاحون فيتناميون بسطاء إلى لف أحزمة الديناميت حول أجسادهم النحيلة، وتقحموا خطوط الأعداء، لفتح ثغرات في القلعة التي تحصّن المحتلون الفرنسيون

داخلها، ولتمكين قوات "ألفيت منه" من اختراق القلعة، واحتلالها. وبهزيمة القوات الفرنسية في هذه المعركة، انتهى الاحتلال الفرنسي لفيتنام، ولكن ليخلي مكانه للإمبرياليين الأمريكيين، الذين نالوا من الفيتناميين أضعاف ما نالته القوات الفرنسية، من قبلهم، فخرج أولئك الإمبرياليون مدحورين، في مذلّة ومهانة "تصعب على الكافر" ! (١٦).

الاستنتاجات

ـ مع اختلاف طبيعة المجتمعات، ومعها الحروب، عبر التاريخ البشري، ظل الاستشهاد يظهر ويختفي، من حرب لأخرى، وفي هذا القطر وذاك، في استمرار متقطع. وباستقراء التاريخ يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

ـ العمليات الاستشهادية ليست ترفاً، ولا تأتي تنفيذاً لتعاليم دينية. بل هي ثمرة للضرورة، وممر إجباري. إنها مجرد شكل كفاحي طارئ، ولا يطول العمل به، وله شروط، تتمثل في:

١ ـ لا يأتي إلا في قضية عادلة. فما من إنسان يمكن أن يفتدي بروحه جيشاً، أو بلاداً تقاتل في حرب غير عادلة،

٢ ـ ثمة أناس أرهف حساً، وأشد وطنية، يقدمون على الاستشهاد، يفتدون شعبهم، ووطنهم، ويردون على امتهان العدو لكرامة الشعب المعتدى عليه. إن الاستشهاد ـ بهذا المعنى ـ رد للظلم،

٣ ـ هنا الاستشهاد لمنع العدو من توظيف عناصر تفوقه الملحوظة في ميزان القوى العسكري، أو لفتح ثغرة في الطوق المحكم الذي يضربه العدو من حول الشعب والوطن. أو لإعاقة هجوم، أو في سبيل تعطيله.

ـ العمليات الاستشهادية سلاح يصعب ثلمه. ولعل الرئيس الأمريكي الأسبق، رونالد ريجان، كان مصيباً، في رده على منتقديه، الذين أخذوا عليه الفشل في ردع "الإرهابيين"، الذين نسفوا مقر المارينز في بيروت (٢٣ / ١٠ / ١٩٨٣). رد ريجان: "كيف لي أن أخيف من استرخص الموت"؟!. أما وزير دفاع إسرائيل الأسبق، موشيه أرينز، فعاتب الاستشهاديين اللبنانيين، الذين أذاقوا الجنود الإسرائيليين المر، أواسط ثمانينيات القرن العشرين، لأنهم

يستخدمون أساليب غير مألوفة!

- العمليات الاستشهادية تشيع جواً من الغيرة، والجسارة، وتلهم أبناء الشعب بالجهاد في سبيل الشعب والوطن، بالغالي والنفيس. لذا فالاستشهاديون، برأي المفكر التقدمي الفرنسي ريجي روبريه: "برحيلهم أخطر منهم في حياتهم".

- العمليات الاستشهادية تخلق "توازن الرعب" في المواجهات العسكرية غير المتكافئة، أو حين يفقد الشعب لمعنى شروط هذا التوازن، بفعل امتلاك عدوه السلاح والجنود، بما يفوق الشعب المعنى، بمراحل.

هوامش المدخل

(١) عبد القادر ياسين، استراتيجية الفداء، **الآداب** (بيروت)، العدد السابع، السنة السابعة عشرة، نيسان/ إبريل ١٩٦٩، ص ١٨ - ٢١.

(٢) ريجي روبريه، **مرافعته أمام المحكمة العسكرية في بوليفيا**، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٨، ص ٦٣.

(٣) صن يَزو، **فن الحرب**، ترجمة محمود حداد، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥، ص ٢٨.

(٤) الجنرال أندريه بوفر، **الحرب الثورية**، تعريب أكرم ديري والهيثم الأيوبي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣، ص ١٨.

(٥) د. أسامة الغزالي حرب، الحرب الثورية/ نقد النظريات العربية السائدة، **الفكر الاستراتيجي العربي** (بيروت)، نيسان/ إبريل ١٩٨٧، ص ٩ - ٣٨.

(٦) تزو، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣، ٢٦.

(٧) الزعيم غبريال بوته، **حروب العصيان والثورة من فجر التاريخ إلى اليوم**، تعريب وتعليق جورج مصروعه، بيروت، دار المكشوف، ١٩٦٠، ص ٩٧.

(٨) لمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر، وقصص الاستشهاد في الدين المسيحي، يمكن الرجوع إلى:

- نيافة الأنبا يؤنس، **الاستشهاد في المسيحية**، القاهرة، د. ن. ، ١٩٧٢.

- لجنة التاريخ القبطي، **خلاصة تاريخ المسيحية في مصر**، ط ٢٣ القاهرة، د. ن.، ١٩٩٦.

- **الاستشهاد في فكر الآباء**، القاهرة، د. ن. ، د. ت .

(٩) ياسين، **مصدر سبق ذكره**.

(١٠) **المصدر نفسه**.

(١١) **المصدر نفسه**.

(١٢) **المصدر نفسه.**

(١٣) الهيثم الأيوبي (محرراً)، **الموسوعة العسكرية**، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧، ص ٢٢٩ - ٢٣٤.

(١٤) ياسين، **مصدر سبق ذكره.**

(١٥) صبري أبو المجد، **حرب التحرير الشعبية**، سلسلة "دراسات في المقاومة"، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٠، ص ٤٦ - ٤٧.

(١٦) ياسين، **مصدر سبق ذكره.**



الفصل الأول

فقه الاستشهاد

عبد التواب مصطفى

شهدت الساحة الفكرية في الفترة الأخيرة كتابات عديدة، تشيد بظاهرة العمليات الاستشهادية، وتلتمس لها تأصيلاً شرعياً في إطار الدعم العقائدي لجهود المقاومة الفلسطينية الباسلة، في توظيفها لهذا السلاح الرادع - العمليات الاستشهادية - الذي أبدعته هذه التجربة النضالية، الفريدة.

غير أن كثيراً من هذه الكتابات لم يخل من التباس بين بعض المفاهيم الشرعية، التي ترتبط بتكريس فريضة الجهاد، الأمر الذي حتم ضرورة وقفة جديدةٍ بين يدي مفهوم "الاستشهاد" ليتم فرزه - وليس تخليصه أو انتشاله - متوجاً للمفاهيم الجهادية العديدة، لتميّزه عليها، وسمو درجة القائمين به، على أقرانهم من عامة الشهداء، مع إجلالنا لتضحياتهم جميعاً.

هذا من جانب. ومن جانب آخر، نحاول - بهذا - أن ندرأ أية شبهة، يمكن أن يلحقها البعض بشرعية هذا السلاح، ومشروعيته.

لذا، ففي مقدمة هذه المعالجة الفقهية لمفهوم الاستشهاد، لابد من تناول عدة مفاهيم ذات صلة، تأكيداً لتمايزها، وتمهيداً لمحاولتنا التأكيد على أن الاستشهاد هو ذروتها بالفعل.

يلي ذلك، تعرف مفهوم الاستشهاد، وتعرف ما صدر بشأنه من فتاوى في تاريخ فقه الجهاد، والممارسة، أو التجربة الجهادية الإسلامية. ثم نتعرف

السياق، وملابسات المرحلة التي تمر بها حركة المقاومة الفلسطينية الراهنة، التي جعلت من توظيف هذا السلاح ليس أمراً مباحاً أو مندوباً فحسب، بل فريضة واجبة، فرض كفاية.

تتناول هذه الدراسة النقاط التالية:

أولاً: مفهوما (الجهاد)، و(المرابطة في سبيل الله).

ثانياً: مفهوم (الشهادة)، و(الشهداء).

ثالثاً: مفهوم (الفدائية).

رابعاً: مفهوم (الاستشهاد).

خامساً: ظاهرة العمليات الاستشهادية.

سادساً: (يسألونك عن الشهر الحرام) ... وعن العمليات الاستشهادية.

<u>أولاً - مفهوما (الجهاد) و(المرابطة في سبيل الله):</u>

١ - الجهاد :

يأتي الجهاد - بالوسائل المختلفة، ومنها القتال - في صدارة فرائض الإسلام والتي ورد في تشريعها، وبيان ضوابطها، وآدابها، وفضائلها، العديد من النصوص الشرعية، وأكدتها الخبرة الجهادية التي عرفها تاريخ الإسلام، الأمر الذي يعفينا من الإسهاب في الحديث عنه.

يقول الله - عز وجل - "انفروا خِفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"؟. (التوبة: ٤١).

في المقابل، وجه - عز وجل - أشد اللوم، والتثريب، والتعريض بأولئك الذين يتثاقلون عن الجهاد، بقوله: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض؟! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل". (التوبة: ٣٨).

فيما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجد أن أفضل العمل، بعد الإيمان بالله ورسوله، هو الجهاد في سبيل الله. وأن غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها. أي أن خرجة واحدة في الجهاد، من أول النهار أو آخره، خير من الدنيا وما فيها [1].

بينما يعني الجهاد بذل الجهد - بل أقصاه - في سبيل الله، بكل الوسائل، أو المتاح، أو المستطاع منها، بدءاً من الجهاد بالكلمة، حتى الجهاد ببذل النفس، فإن ما يرتبط بهذا البحث - تحديداً - واحد من أنواع أو صور الجهاد هذه، وهو الجهاد بالنفس.

على كل فرد في الأمة أن يسهم بدور في الجهاد، فإن لم يستطع بروحه، أو دمه، أو عرقه، فبماله، أو لسانه، أو قلبه، ومهما كان قدر الإسهام قليلاً، من وجهة نظرنا، فهو كثير عند الله، وفي الميدان.

ورد في الحديث الشريف: "جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم". وفيه أيضاً: "رُبّ درهم سبق ألف درهم".

وجهاد القلب هنا، لمن لا يستطيعون غيره، هو الدعاء الصادق، يؤديه العبّاد والنُسّاك والضعفاء، وكان سلفنا الصالح، من قادة المسلمين، يعدون الدعاء أشدّ وأحدّ على رقاب الأعداء من سيوف المجاهدين في الميدان. بل لقد ورد أن بعضهم كان يتعمد أن يخوض معاركه في الميدان، في الوقت الذي تكون فيه بقية الرعية - الجبهة الداخلية - تقيم الصلاة - خاصة صلاة الجمعة - لأن دعاء المصلين الصادقين يصاحب المقاتلين، ويؤازرهم، ويقوي ضرباتهم، في مواجهة الأعداء.

٢ - المرابطة في سبيل الله :

يقترب من مفهوم "الجهاد" في شموليته، وملازمته مسيرة الأمة. مفهوم المرابطة في سبيل الله، أي الحراسة الدائمة لثغور الوطن، وأراضي الأمة، ومقدساتها.

وشعب فلسطين في صدارة شعوب الأمة، اختصه - كرّمه - الله بأن يكون في رباطٍ دائم، إلى يوم القيامة. دفاعاً عن واحد من أهم ثغور الأمة، ومقدساتها، أي

أرض فلسطين، وبيت المقدس - القدس - والمسجد الأقصى.

وهناك أخبار أو آثار - أحاديث - عديدة، تؤكد هذا التكريم الإلهي لشعب فلسطين، وأنهم في رباط، إلى يوم القيامة، بل إنهم أصحاب البشرى بأنهم الفئة الظاهرة المنتصرة على أعدائهم - أعداء الامة - في أكناف بيت المقدس، لا يضيرهم من خذلهم.

فهؤلاء الذين باشروا، ويباشرون، المواجهة الدائمة مع أعداء الأمة، جيلاً بعد جيل، يؤكدون نبوءة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وشهادته بفضلهم ومنزلتهم على الأمة كلها.

في فضيلة الرباط، أو المرابطة في سبيل الله، يقول - عز وجل - : "يا أيها الذين آمنوا اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون" (آل عمران: ٢٠٠).

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "ورباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل". (رواه الترمذي).

ثانياً: مفهوم (الشهادة) و(الشهداء) :

ليس أرحب ولا أكثر مرونة من مفهوم "الشهادة"، أو "الشهيد".

و"الشهداء" في التاريخ كثيرون، وهم في ظل الإسلام، امتداد لنظرائهم، فيما سبق من شرائع سماوية، تباعاً.

ليس لنا أن نصادر على حق صاحب أي عقيدة (سماوية، أو فلسفية، صحيحة، أو فاسدة) حين يعد نفسه، أو حين يسميه الآخرون "شهيداً"، إذا قُتل دفاعاً عما يؤمن به من مبادئ، أو أفكار، أو أهواء. ويوم القيامة يفصل الله بين هؤلاء جميعاً، من هم شهداء الحق والفضيلة، ومن هم شهداء الهوى والرذيلة.

لا تتعجبوا، فليس بعيداً عن آذاننا ما يردده البعض - خطأ - حين يصفون من ينتحر في قضية عاطفية بأنه "شهيد الغرام"! والله المستعان، والهادي إلى الرشد والصواب.

الحديث هنا، عن الشهداء من أصحاب العقيدة السماوية الصحيحة. ونماذج هؤلاء، قبل الإسلام كثيرة، لكن للإيضاح والتذكرة نشير إلى نموذجين اثنين:

١ - شهداء "أصحاب الأخدود"، في قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، أو الإيمان بالله، التي تناولتها سورة "البروج" في القرآن الكريم، واقفة على دلالاتها، بقطع النظر عن مكان أو زمان حدوثها.

٢ - شهداء "عصر الشهداء" في تاريخ المسيحية القبطية، ذلك العصر الذي بدأ في ٢٨٤ م، واستمر عشرين عاماً.

كذلك، من حيث اللغة، تتعدد دلالات كلمة "الشهادة"، و"الشهيد" [٢].

فشهادة الشئ، تعني معاينته، يقال شهد الشئ، أي عاينه.

وشهادة المجلس تعني حضوره، يقال شهد المجلسَ، أي حضره.

والشهادة على الشئ، تعني الإخبار به، خبراً قاطعاً.

والشهادة بالشئ، تعني الإقرار بالعلم به.

ويقال - أيضاً - شهد شهادةً، أي أدى ما لديه من الشهادة. والفاعل للفعل "شهد" بأي من هذه المعاني هو "شاهد" أو "شهيد".

فالشهادة - إذن - تعني المعاينة، أو الحضور، أو الإخبار، أو الإقرار بالعلم، أو الأداء بما لدى الإنسان.

وكذا تعني الشهادة "الأشياء الظاهرة" فهي عكس الغيب.

قال تعالى : "وستردون إلى عالم الغيب والشهادة" (التوبة: ١٠٥).

ينحصر المعنى المعجمي لـ "الشهادة" في "مجموع ما تدركه حواس الإنسان"، أو في "البيّنة أمام القضاء".

ثم تبلورت لـ "الشهادة" معانٍ أُخرى، ذات دلالات فنية، أو اصطلاحية. فهي تجئ بمعنى الإجازة، أو الدّرجة العلمية. وتجئ - فقهاً - بمعنى المنزلة،

أو الدرجة التي أعدها، أو قررها الله لمن يُقتل في سبيل الله، و"الشهيد" هو من قُتل في سبيل الله. ويقال "استشهد"، أي تعرض أن يُقتل في سبيل الله. أو طلب الشهادة.

ويُبنى هذا الفعل للمجهول فيقال (استُشهِد) ويعني: قُتل شهيداً أو: طُلب منه أن يشهد، أي يؤدي الشهادة (البيّنة).

"الشهادة"، في المصطلح الشرعي أو الفقهي، والتي هي موضوع حديثنا، هي - كما سبق - (المنزلة) و(الجزاء أو الثواب) اللذان أعدهما الله في الجنة، لمن يقتل في سبيله من المؤمنين به، وقد يمنح الله "ثواب" الشهادة، لفئات أخرى، غير هؤلاء، كما سنرى.

الأصل والغالب، أن يخرج المقاتلون في سبيل الله، ولدى كل منهم توقع مبدئي، أو أمنية بأن يقتل في سبيل الله، فيكون شهيداً.

قد يحدث هذا لبعض هؤلاء المقاتلين، أي قد يقتلون في سبيل الله. وربما لا يحدث. فيعود جيش المسلمين منتصراً، دون شهيدٍ واحدٍ

فذلك التوقع المبدئي، أو الأمنية بالقتل في سبيل الله، هي إحدى الحُسنيين، اللتين تتعلق (بإحداهما) قلوب المقاتلين في سبيل الله، من المؤمنين. فينال بعضهم الشهادة - يُقتلون في سبيل الله ويعود آخرون سالمين (منتصرين أو منهزمين).

ومهما كانت درجة تعلق المقاتل بإحدى هاتين الحُسنيين، يظل تحققها أمراً (احتمالياً).

ونقطة (الاحتمالية) هذه، بالغة الأهمية هنا. كما سيتضح، فيما بعد. يقول - تعالى - على ألسنة المقاتلين في سبيله: "قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحُسنيين" (التوبة: ٥٢).

لسمو منزلة "الشهادة" هذه، أي منزلة "مَن يُقتل في سبيل الله"، فقد أحاطها الله - عز وجل - بعدة شروط، حتى لا ينالها إلا من يستحقها، أهم هذه الشروط هو إخلاص نية المقاتل صوب وجهة واحدة، هي أن يكون قتاله في سبيل الله

(الدين/ الأمة/ الوطن).

بل إن الله - عز وجل - تحرى أعلى درجات الدقة في وصف أصحاب هذه المنزلة، فوصفهم بفعلهم "القتل في سبيل الله"، درءاً لأي التباس قد يحدث عند استخدام لفظ الشهادة في الحديث عن هؤلاء، فقد تبين لنا، إلى أي مدى، هذا اللفظ "الشهادة" مرن، وفضفاض، ويستوعب دلالات لغوية عديدة.

ثم جاءت السُنة النبوية، فتحدثت بإسهاب، عن هذه المنزلة (الشهادة في سبيل الله). لفظاً، وشروطاً، وفضلاً ... إلخ.

من بين ثلاثة وعشرين موضعاً، في القرآن الكريم، ورد فيها لفظ "الشهادة"، لا نجد واحداً منها يشير إلى (القتل في سبيل الله) [٣]. فكأن أدق تعبير قرآني عن (القتل في سبيل الله) هو (القتل في سبيل الله). أما لفظ "الشهادة" فينصرف في كل المواضع القرآنية الثلاثة والعشرين، إلى واحد أو آخر من المعاني الأخرى، سالفة الذكر، في المدخل اللغوي.

وكذلك، فمن بين خمسة وثلاثين موضعاً، ورد فيها لفظ (شهيد) بالقرآن الكريم، لا نجد واحداً منها، جاء صفة أو اسم فاعل، لمن يقتل في سبيل الله. فكان أدق تعبير قرآني عمن يقتل في سبيل الله هو أنه قد قتل في سبيل الله، كما سيأتي. أما تعبير "شهيد" في المواضع القرآنية الخمسة والثلاثين، فقد انصرف إلى واحدة أو أخرى من الدلالات اللغوية، التي سبق بيانها.

غير أنه من بين ثمانية عشر موضعاً قرآنياً ورد فيها لفظ "شهداء"، أشارت ثلاثة منها إلى مَن يقتلون في سبيل الله، والمواضع الخمسة عشر المتبقية، ذات دلالات أخرى.

يقول - تعالى - : "إن يمسسكم قرحٌ، فقد مَسّ القومَ قرحٌ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين" (آل عمران: ١٤٠)

ويقول: "ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقا" (النساء: ٦٩)

ويقول: "والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون، والشهداء، عند ربهم لهم أجرهم، ونورهم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم" (الحديد: ١٩)

ثم ورد لفظ "الشهادة" صريحاً، في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معنياً به المفهوم الذي نحن بصدده: "منزلة القتل في سبيل الله".

قال - صلى الله عليه وسلم - : "من سأل الله الشهادة بصدق، بَلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه" (رواه مسلم).

وقال: "من طلب الشهادة صادقاً، أعطيها - أعطي ثوابها - ولو لم تصبه" (رواه مسلم).

وقال: "ما مِن أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة" (متفق عليه) بل، لقد تمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك لنفسه، فكأنه يحفزنا إليها، فهو في المنزلة الأعلى - منزلة النبوة - وقال: " ... وَلَوَدِدْت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل" (رواه البخاري)

وعما أعده الله - عز وجل - للشهداء، يقول: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون" فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين". (آل عمران: ١٦٩ - ١٧١).

لم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده، الذي تعلق قلبه بمنزلة الشهداء، بل لقد قرأنا جميعاً ما قاله القائد الإسلامي الكبير خالد بن الوليد، معبراً به عن ألمه وحسرته لما فاته من نيل شرف الشهادة، في ميدان القتال: "لا يخلو موضع في جسدي من أثر طعنة رمح أو سهم، وها أنذا أموت على فراشي كما تموت البعير". فبرغم مشاركاته المتواصلة في ميادين القتال، أو الجهاد، حتى نال جسده من الضربات، والطعنات، ما لا يُحصى عدده، لكنه لم يستشهد في الميدان، بل مات على فراشه، كالبعير.

لكن كانٍ عزاؤه - رضي الله عنه - فيما سمعه من الحديث الشريف، الذي ذكرناه آنفاً: "من سأل الله الشهادة، بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه".

ذلك، إن الله لا يحجب هذا الفضل - ثواب منزلة الشهداء - عمّن يطلب الشهادة، بصدق، أي يتمنى أن يقاتل في سبيل الله حتى يستشهد، ولو لم يخض غمار المقاتلة في الميدان، بالفعل.

ولنا هنا أن نذكر، أيضاً، حديثاً آخر، يخاطب فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - جيشه: "إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا، إلا كانوا معكم - إلاّ شركوكم في الأجر - حبسهم العذر" (رواه مسلم)

يُذكر أن شهداء الميدان هؤلاء، هم الذين تتعلق بهم الأحكام الفقهية الخاصة كعدم الغسل، وعدم التكفين، وعدم الصلاة عليهم، إذ في ثياب القتال، ومما تخضبت به أبدانهم من الدماء الطاهرة ما يغنيهم، حين يحشر الخلق للحساب يوم القيامة. وهؤلاء الشهداء هم المعروفون فقهاً "بشهداء الدنيا والآخرة" (٤).

وكما أثبت - قرر - الله ثواب منزلة شهداء الميدان هؤلاء، لمن تمنوا الشهادة، بصدق، ولو لم يُقتلوا في الميدان، فقد حجب هذا الثواب ممن يُقتلون في الميدان، وقلوبهم ونياتهم متعلقة بأغراض أخرى غير سبيل الله، أي غير الدفاع عن "الدين/ الأمة/ الوطن".

فالذين يقاتلون وقلوبهم متعلقة بأغراض خاصة بهم، يمنحهم الله جزاءً من جنس هذه الأغراض الدنيوية، ولذلك فهم يسمون - فقهاً "بشهداء الدنيا". فالذين يقاتلون من أجل نيل الرتب، والنياشين، والأوسمة، ويقتلون في الميدان، سيتم تكريمهم في الدنيا، وينالون هذه الرتب والنياشين، فهذا هو اختيارهم، حين لم يخلصوا نيتهم، ولم يجعلوا قتالهم في سبيل الله، وإنما جعلوه في سبيل أغراضهم الدنيوية، فهم الذين صغّروا من شأن أنفسهم، ومن شأن الغاية التي قاتلوا من أجلها، فكان جزاؤهم من جنس عملهم.

ولأن قضية إخلاص النية من عدمه، هي قضية غيبية، لا يعلمها، ولا يطلع

عليها إلا الله، فليس لنا أن نحكم على شهيد ميداني بأنه مخلص أو منافق، فالله، وحده، سيفصل بين هؤلاء يوم القيامة. وكذا، فليس لنا إلا معاملة جميع شهداء الميدان معاملة واحدة، أخذاً بالظاهر، الذي أتاحه الله لنا. وهذا هو المستقر فقهاً، وشرعاً. فشهداء الميدان جميعاً لا يُغسلون، ولا يُكفنون، ولا يصلى عليهم.

وعلماء المسلمين لا يخوضون في هذه النقطة بأكثر من ذلك: فهم يعلمون بأنهم لا يملكون أن يمنحوا صكوك براءة لأحد، ويعرفون أنهم لا يستطيعون أن يحجبوا رحمة الله عن أحد، وهم يعلمون بأنهم غير منقبين عما في صدور الناس. وهم يعلمون بأن الله أمرهم بالتبليغ فحسب، وحث الناس على الإخلاص في كل ما يقدمون عليه من عمل، أو جهاد، أو غيره، وأن الله، وحده، هو العالم بمن يلبي الدعوة، فيخلص في عمله أو جهاده، وهو العالم، وحده، بمن ينافق.

ولا يعني قول الفقهاء إن هناك طائفة من الشهداء هم "شهداء الدنيا" فحسب، إن هؤلاء الفقهاء يعلمون مَن هؤلاء الشهداء بأسمائهم، لكن الفقهاء يتحدثون عن هذه الطائفة حديثاً مجرداً، في ضوء ما أخبر به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ضرورة إخلاص المؤمن لنيته في كل أعماله، حتى ينال جزاءً في الدنيا والآخرة عن هذه الأعمال. فالفقهاء يحثوننا على أن نكون من المخلصين، ويحذروننا أن نكون من المنافقين، الذين تنحصر عوائد أعمالهم في العوائد الدنيوية، ويُحرمون من ثوابها، أو عوائدها الأخروية.

سُئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "يارسول الله. الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، والرجل يقاتل حمية. فمن في سبيل الله"؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" (متفق عليه).

وعُلُوّ كلمة الله، عبارة جامعة، تستوعب علوّ "الدين/ الأمة/ الوطن".

هناك طائفة ثالثة من الشهداء، تعرف - فقهاً - بـ "شهداء الآخرة" وهم تلك الجماعة، أو الجماعات من الناس، الذين سينالون في الآخرة ثواب منزلة الشهداء، برغم كونهم ليسوا من شهداء الميدان، وذلك تكريماً لهم لما قدموه من تضحيات تقترب من تضحيات شهداء الميدان. أو لما نزل بهم من ابتلاءات كبرى. وكانوا فيها صابرين محتسبين.

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "من قُتل دون ما له فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد" (رواه أبو داود والترمذي).

يشير هذا الحديث إلى نوع من القتال يعرف - فقهاً - بقتال الصائل، والصائل هو ذلك العدو الذي يصول علينا، صولة عدوانية، ليسلبنا أموالنا. أو ينتهك أعراض نسائنا، أو يفتننا عن ديننا، أو ليمسنا في أبداننا. ويقع قتال الصائل هذا في المجتمع المدني. وقد يكون هذا الصائل مسلماً ضالاً، منتهكاً للحرمات، فيجب علينا قتاله - مقاومته - فإذا قاومته، عند اعتدائه عليك يريد مالك أو نساءك .. إلخ ثم تمكن هو من قتلك، فأنت - إذن - الشهيد، المقصود في الحديث سالف الذكر.

أما الشهداء من أصحاب الابتلاءات فهم كثيرون، منهم الغريق، المطعون، المبطون، صاحب الهدم، والمتوفاة في حال الوضع (الولادة). وغير هؤلاء كثيرون ممن أسهب الفقهاء في الحديث عنهم.

وهؤلاء يُغسلون، ويُكفنون، ويُصلى عليهم، مثل غيرهم من موتى المجتمع المدني (٥).

ثالثاً: مفهوم (الفدائية) :

النزعة الفدائية هي استعداد المرء للتضحية بالشئ العزيز عليه - حتى لو كان ذلك الشئ هو الروح - من أجل حق يؤمن به، أو عقيدة يعتنقها، مع علمه بهول الأخطار التي يتعرض لها في سبيل ذلك (٦).

ومادة "الفداء" في اللغة العربية، تدل على جعل شئ مكان شئ، فالفدائي يجعل الشئ النفيس لديه - ولو كان هو الروح - فداءً لوطنه. فهو يجعل وطنه بديلاً - أحق بالبقاء والمحافظة عليه - لأي شئ عزيز عليه، أو نفيس لديه، ولو كان الروح. فيُبقي على الوطن، ويقدم، أو يبذل الروح، أي يضحي بها، ويقدمها فداءً لوطنه.

وفي تأكيد معنى الفداء هذا، قال - تعالى - : "وفديناه بذبح عظيم" (الصافات: ١٠٧)

غير أن ما يقدمه الفدائي لوطنه لا يكون هو "الروح"، دائماً، وفي أخطر العمليات الفدائية، لا يغيب احتمال عودة الفدائي سالماً، ومع استعداد كل فدائي لتقديم روحه، أو استعداده للقبول بهذا الاحتمال، حين وقوعه، يظل تقديم الروح - أي الموت في العملية الفدائية أمراً احتمالياً، وإن بلغت احتماليته درجة ٩٩٪، على العكس من حال العمليات الاستشهادية - كما سنرى - والتي تغيب فيها هذه الاحتمالية عن ذهن القائم بها، كلية، ويكون تقديم الروح هو الخيار الوحيد، الذي عزم عليه صاحب العملية، أو عقد النية عليه.

هذا الخيط الرفيع هو بعض ما يفرق بين العملية الفدائية والعملية الاستشهادية، إذ إن الأخيرة، يكون تقديم الروح فداءً وتضحية، هو أمر محقق فيها، لا يخالطه أي معنى للاحتمالية.

كذلك فإن تضحية الفدائي قد تكون شيئاً غير الروح، فما يمر به الفدائي من مخاطر، وصعوبات، ومشاق حتى ينفذ عمليته، هي تضحيات جليلة تنطوي على بذل الجهد، والعرق، والدم، وبعض البدن، وإذا قتل في عمليته هذه فهو شهيد، بتحقق الاحتمال الأخير، وهو القتل أو بذل الروح في سبيل الله، أثناء هجومه، أو عمليته الفدائية في أرض العدو، أو في الميدان المتاح لمواجهته.

لقد كان العمل الفدائي الفلسطيني، بعد نكبة ١٩٦٧، هو أبرز الأعمال، وأبرز صور أو أشكال المقاومة لاستبقاء روح الإصرار على استرداد الأرض المغتصبة.

وفرق المقاومة الفدائية هي وحدات عسكرية صغيرة، تتألف من مقاتلين غير خاضعين لضوابط الجيش النظامي، فنشاطهم يغلب عليه الطابع الطوعي، وهم يواجهون العدو فرادى وجماعات

رابعاً: مفهوم (الاستشهاد) :

امتداداً لتعدد دلالات الفعل (شهد) - كما سبق بيانها لغوياً - يأتي تعدد دلالات فعل (استشهد)، لغوياً.

وقد ابتدأ فعل (استشهد) بحروف الطلب الثلاثة الشهيرة (أ، س، ت) التي تدخل على الفعل، فتفيد طلب وقوعه، كقولنا: استنطق - استقدم - استبرأ

- استغفر .. إلخ.

فنقول استشهد، أي طلب الشهادة، بأي من معانيها سابقة الذكر.

وفيما يخص المعنى المقصود في دراستنا هذه، نقول: استَشهَد - على البناء للمعلوم - استشهاداً ونعني بقولنا: استشهد أي طلب الشهادة، أو تعرض أن يُقتل في سبيل الله. و: اسُتشهد - على البناء للمجهول - أي: قُتل في سبيل الله. أو: نال درجة، أو منزلة الشهادة التي طلبها، فهو شهيد. و: استشهادي، نسبة إلى استشهاد.

ودرءاً لأي التباس قد ينشأ نتيجة هذا التعدد في الدلالات اللغوية لفعل "استشهد"، لم يستخدمه القرآن الكريم، ولا السنة المطهرة، في الدلالة على المفهوم الذي نحن بصدده، أي مفهوم "الاستشهاد" و"الاستشهادي".

فكما استخدم القرآن تعبير (مَن يُقتل في سبيل الله) كأدق تعبير عن "الشهيد". ولم يستخدم لفظ "شهيد" لتعدد دلالات معنى "الشهيد" كما سبق. كذلك فعل القرآن الكريم مع "الاستشهادي"، إذ عبر عنه القرآن بأنه " مَن يَشْري نفسه" في سبيل الله أي: مَن يبيع نفسه لله. فالذي يبيع نفسه لله يعقد عقداً واجب الإنجاز، هو تقديم، أو بذل النفس لله، مقابل ما وعده به ربه من جزاء أو ثواب، ثم صاغ الفكر الإسلامي لفظ "استشهادي" وجعل له دلالة مصطلحية، في ضوء ما قرره القرآن والسنة.

فالاستشهادي هو المؤمن الذي استجمع أمر ه على خيار واحد، هو بيع نفسه لربه، أي بذلها، وتقديمها في سبيل الله، وألزم نفسه بهذا العقد، وإتمام هذا البيع، حرصاً على المقابل الذي أعده الله لصاحب هذه النفس المبذولة في سبيله.

وبالطبع، فإن هذا الاستشهادي، الذي عزم، وعقد نيته على بذل نفسه لربه، لن يهدرها هباءً، وإنما سيجعل عملية بذل نفسه هذه محققة لأكبر درجة ممكنة من إعلاء كلمة الله، وإنزال الخسارة، والنكاية بأعداء الله، قدر استطاعته

وقد عرفت الخبرة الاستشهادية في تاريخ الجهاد في الإسلام، صوراً عدة لبذل المؤمن نفسه في سبيل الله، أحدث هذه الصور هي تفجير الاستشهادي نفسه في جماعة الأعداء، وهم، حالياً، المستوطنون اليهود في فلسطين، وجنود

جيش الكيان الصهيوني.

وتأصيلاً لمعنى الاستشهاد هذا في الفقه الإسلامي، وبياناً لبعض صور بذل النفس في سبيل الله، نذكر بعض الأدلة التالية:

١ - يقول الله - تعالى - : "ومِن الناس مَن يَشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" (البقرة: ٢٠٧).

إذ في هذه الآية ثناء واضح على هذه الفئة من المؤمنين، الذين يشرون، أي يبيعون، أنفسهم في سبيل الله، عز وجل.

٢ - ويقول: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم" (التوبة: ١١١).

إذ في هذه الآية دليل على أنه كان من بين صفوف عامة المقاتلين المسلمين، فئة دخلت ميدان المعركة، بروح استشهادية، عاقدةً العزم على بيع نفسها لله، في هذه الجولة، وذلك بالإصرار على الاستمرار في الإثخان في مقاتلة الأعداء، إلى أن يستنفد هؤلاء الاستشهاديون دماءهم، بل أرواحهم في سبيل الله، والإثخان في مقاتلة الأعداء يعني المبالغة، ومواصلة بذل أقصى ما لدى المقاتل، حتى روحه، يقدمها، فلا يرجع منها بشئ. وقد بشر الله هؤلاء بقبول البيع، واعتبره "هو الفوز العظيم".

وبالطبع، هناك فرق بين هذه الفئة التي دخلت في مواجهة الأعداء بروح استشهادية، أي عاقدة العزم على خيار بيع النفس لله، وبين عامة المقاتلين الذين دخلوا المواجهة ذاتها، متعلقةً قلوبهم بإحدى الحُسنيين، ولا يغيب عن أذهانهم احتمال العودة بالنفس سالمة، ولم ينعقد عزمهم على بيع النفس لله كخيار وحيد، كما فعل الاستشهاديون

لم يجد الله - عز وجل - حرجاً في استخدام ألفاظ "شرى - اشترى - بيع" لتأكيد مفهوم انعقاد عزم طرفي العقد على إتمامه، وتأكيداً - أيضاً - على وفاء الله بما وعد به المؤمن، الذي باع نفسه لربه، من جزاء ومنزلة في الجنة.

وليس أشرف ولا أكرم للمؤمن من بيع نفسه لربه، فهو كشرف العبودية الذي أسبغه الله - عز وجل - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - في قوله: "سبحان الذي أسرى بعبده"، فالبيع حين يكون لله، والعبودية حين تكون لله، فهما أشرف وأكرم وأسمى ما يربط المؤمن بربه، بل هما يحققان للمؤمن أعلى درجات الحرية.

٣ - بعد إصابته في غزوة أحد، قال - صلى الله عليه وسلم - : "مَن رجلٌ يشري نفسه لنا؟". فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يطلب مِن بعض أصحابه مَن يقاتل المشركين دونه، أي ذوداً، أو دفاعاً عن الرسول، في مواجهة هجمة غاشمة للأعداء، فتقدم نفرٌ من المقاتلين المسلمين فقاتلوا دونه - صلى الله عليه وسلم - حتى قُتلوا، رجلاً ثم رجلاً، وكانوا يتترسون دونه - صلى الله عليه وسلم - والنبل يتلاحق في ظهورهم، فكان أحدهم ينحني على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يتحول عنه، حتى يُقتل دونه [٧].

لاشك أن استخدامه - صلى الله عليه وسلم - للفظ يشري - أي يبيع - فيه تأكيد، أيضاً، على هذه الصورة المثلى للتضحية والفداء، حين يَعُدّ النبي - صلى الله عليه وسلم - مَن يُقدمُ مِن الصحابة على حماية النبي، والتضحية بنفسه فداءِ للنبي، يَعُدُّه - صلى الله عليه وسلم - قد باع نفسه لله ولرسوله: "مَن رجلٌ يشري نفسه لنا".

إن هذا النفر من الصحابة الذين قبلوا عرض النبي ببيع أنفسهم له هم استشهاديون، استجمعوا أمرهم على خيار تقديم أنفسهم فداء للرسول، وكانوا يرون - تباعاً - سقوط الواحد منهم تلو الواحد، ولا يثنيهم ذلك عن إتمام، أو إنجاز عقدهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، دون أدنى شك من جانب أي منهم في أنه مقتول في سبيل الله ورسوله، قتلاً محققاً.

في حديث آخر، بل أكثر من حديث، يحثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أن يكون بيعنا رابحاً، وعلى ألاّ يفرط المسلم في روحه إلا بأعلى ثمن، وهو مرضاة الله، مبيناً أن الذي يبذل نفسه في مرضاة الله، يكون - في الواقع - قد حررها، وفكها من أغلال المعاصي، والشهوات، والجبن، والخذلان، والسكوت على اغتصاب المعتدين لأرضنا وشرفنا.

يقول - صلى الله عليه وسلم - : " ... كل الناس يَغدُون، فبائعٌ نفسه: فمُعتِقُها أو موبِقُها"، (رواه مسلم) (٨)، أي إذا كان كل الناس يغدون، أي يمضون في مسيرة حياتهم، مضحين بأنفسهم في سبيل غايات متعددة، فلتكن الغاية التي يضحي المسلم بنفسه من أجلها غاية نبيلة، تشعره بأنه حرر نفسه بهذه التضحية، ولم يوبقها ببيعها رخيصة في الشهوات والمعاصي، أو في التخابر والتعاون مع أعداء الأمة، مغتصبي أرضها، وشرفها.

٤ - ما قرره قدامى الفقهاء، وبنيت عليه فتاوي المجامع، والمؤتمرات الإسلامية المعاصرة، من أنه لا بأس من أن يَحمل الرجل - يهاجم العدو - وحده، وإن ظن (تأكد) أنه يُقتل، طلباً للشهادة، نكاية في الأعداء. وبثاً للجراءة، وتحريضاً لغيره من المسلمين، على مقاتلة العدو، وإضعافاً لنفوس الأعداء، حين يرون أن هذا صُنع - عَمل - واحد من المسلمين - استشهادي - ، فكيف بجميعهم، إذن؟ (٩)

خامساً: ظاهرة العمليات الاستشهادية :

تبين لنا مما سبق، أن الاستشهاد - أسلوباً وممارسة - ليس بجديد، ولا مستحدث، في هذه المرحلة من مسيرة الجهاد الإسلامي، بل إن الجديد هو أن ظاهرة جهادية، في ميدان المقاومة والنضال الفلسطيني، تبلورت، وبنيت على أساس هذا الأسلوب الجهادي - الاستشهاد - ، حيث انداحت دائرة تطبيقاته، أو ممارسته، حتى أصبح يمثل ظاهرة، رادعة، ومحققة لتوازن "الردع ثم الرعب" مع العدو الصهيوني، وفي مواجهة السياسات الإرهابية، التي يتبناها، النظام العنصري الحاكم في تل أبيب، ضد شعبنا في فلسطين.

لقد أنزلت الممارسة المكثفة لهذا الأسلوب/ السلاح، أي الاستشهاد، قدراً هائلاً من الرعب، وفقدان الإحساس بالأمن، في قلوب ذلك العدو، وكيانه الآخذ في التهاوي، وبيته العنكبوتي، الآخذ في الانكماش، والتفكك، يوماً بعد يوم، ذلك القدر من الرعب، وفقدان الأمن، الذي لم يحققه سلاح آخر، أتيح في أيدي رجال المقاومة الفلسطينية، من قبل.

١ - في البدء . . . كان التخبط والجدل :

مما يؤسف له - بداية - ذلك التخبط، الذي انعكس في مواقف الأنظمة العربية والإسلامية، ووسائل إعلامها، بين مستجيب ومتحفظ ورافض للضغوط الصهيونية والأمريكية، التي استهدفت تغيير وصف العمليات الاستشهادية، إلى عمليات (انتحارية)، وإدانتها، باعتبارها (إرهاباً) [١٠].

هذا، بينما يشهد ويؤكد الموقف والسياق، وأهداف حركة المقاومة الفلسطينية، وكذا كل دوافع وأهداف القائمين بهذه العمليات الاستشهادية، تؤكد أنها بعيدة عن أي معنى للانتحار، باعتباره من أكبر الكبائر - المحرمات - في الشريعة الإسلامية، وتؤكد بأنها - أي العمليات الاستشهادية - ، هي أدخَل ما تكون في معاني التضحية والفداء، وبذل النفس في سبيل الله (الدين/ الأمة/ الوطن)، وانها تتم بكامل الإرادة الحرة والإيمان القوي الخالص، وليست يأساً أو قنوطاً، أو إحباطاً، أو انسحاباً من مواجهة التحديات، كما يفعل الفاشلون المنتحرون. بل إن القائمين بهذه العمليات الاستشهادية، هم من أنجح، وأرقى النماذج البشرية، فمنهم المتفوق في دراسته الجامعية، ومنهم الدارسة لأحدث علوم العصر، ومنهم العروس التي تعد لزفافها، جميعهم ناجحون في حياتهم، لكن الإرهاب المنظم، الذي مارسه، ضدهم وضد شعبهم، النظام العنصري الحاكم في تل أبيب، دفعهم للتضحية بأنفسهم صيانة لكرامة أمتهم، ووطنهم، ومقدسات دينهم، وهم يرجون بهذه التضحية رضوان ربهم، ونيل منزلة الشهداء، فهذه العمليات الاستشهادية، بهذا المفهوم، هي أبعد ما تكون عن معنى الانتحار، وأدخَلُ ما تكون في معنى الجهاد.

بعض التخبط يترك في النفس حسرة، وفي القلب ألماً ومرارة، نتيجة إصرار هذا أو ذاك من أبواق الإعلام العربية، على جعل صفة "انتحارية"، إحدى أبرز مفردات خطابه الإخباري، أو الإعلامي، كلما نقل ذلك البوق خبراً، أو قدم برنامجاً عن هذه العمليات.

وبعضه لا يخلو من طرفة، باعثة على الضحك، (وشر البلية ما يضحك)، حين يلتبس الأمر على لسان قارئة النشرة بإحدى القنوات الإخبارية العربية، امتداداً لالتباسه في ذهنها، فقد تلعثم لسانها، وقالت: (العمليات الاستنحارية)!

امتداداً لالتباسه في ذهنها، فقد تلعثم لسانها، وقالت: (العمليات الاستنحارية)! فكأنها تريد أن ترضي طرفي الجدل، أو تقول: هذا ما لديّ، إلى أن تتفقوا!

تسلل بعض هذا التخبط (اللفظي) إلى سطور إحدى الأدبيات، التي كرست كل صفحاتها لمعالجة الموضوع (العمليات الاستشهادية)، فنجدها تقول "انتحاري"، بديلاً عن "استشهادي"، وتقول: "مصرع" بديلاً عن "استشهاد"، وهكذا. وكان أشد تخبطها هذا وضوحاً، ما جاء في السطر الأول، مما كتبته تحت عنوان "نمط العمليات الاستشهادية"، إذ بدأ السطر بعبارة "تنوعت العمليات الانتحارية ضد إسرائيل ..." [١١]!

يسرف آخرون في استخدام ألفاظ "انتحار وانتحارية" في الترويج لما يرونه. إذ في مقاله "الجوانب الفكرية والعسكرية للعمليات الانتحارية" كرر كاتبه لفظ "انتحار" أكثر من ثلاثين مرة! في مقابل مرة واحدة ذكر فيها لفظ "استشهاد"، ولم يكن من كلامه، بل في سياق ما نقل عن آخرين [١٢].

بعض هذا التخبط نتج عن نقص في المعلومات الخاصة بماهية العمليات الاستشهادية، وطبيعة الميدان الذي تتم فيه.

فإن بعض الفتاوي الدينية التي عارضت هذه العمليات - في البداية - كانت مبنية على ما تصوره أصحاب هذه الفتاوي من أن هذه العمليات تستهدف المدنيين في الكيان الصهيوني، وبالتالي عارضوها، في ضوء القواعد العامة التي قررها الإسلام للمحاربين، حيث نهاهم عن قتل المدنيين. فلما اتضحت الصورة لهؤلاء العلماء، عن طبيعة المجتمع الصهيوني، وأنه مجتمع احتلالي اغتصابي استيطاني عسكري، جميع أفراده من الصهاينة، وهم إما جنود نظاميون في جيش الاحتلال الصهيوني، أو جنود احتياطيون ومسلحون، أو مستوطنون مسلحون، يعيثون في أرض فلسطين، وفي المستوطنات بأسلحتهم مثلهم مثل الحيوانات الضالة المتربصة بالفلسطينيين، ولما عرف هؤلاء العلماء أن المجتمع الصهيوني هو مجتمع شاذ، من دون كل المجتمعات الإنسانية، وأن المشهور عن إسرائيل أنها "جيش له شعب"، وليست ككل مجتمعات الدنيا "شعباً له جيش"، لما تكاملت الصورة أمام العلماء، كان إجماعهم على شرعية العمليات الاستشهادية، والتي لا يُعَد "ضحاياها" من "المدنيين"، كما يدعي

النظام الصهيوني العنصري الحاكم في تلك أبيب، بل إن القتلى، والصرعى، والجرحي، الذين تسقطهم هذه العمليات، هم من الصهاينة، مغتصبي أرضنا، أي من الجنود النظاميين أو الاحتياطيين أو المستوطنين، ومَنْ هم خلف هؤلاء من المحرضين من متطرفي اليهود.

يحكم عملَ المفتين جميعاً قاعدة فقهية رئيسية، تقول: "الحكم على الشئ فرع عن تصوره" بمعنى أن الحكم الصحيح يأتي امتداداً للتصور الكامل الواضح، والإلمام بأبعاد وأطراف القضية، أو الموضوع، الذي سيصدر بشأنه الحكم أو الفتوى.

يزداد هذا التصور وضوحاً في ذهن العالم، أو الفقيه، إذا خالط الأحداث، وانخرط في غمارها، ولم يكتف بقراءة المصادر، أو المراجع، أو التقارير.

بل يفرّق العلماء بين الفقه الورقي (المدوَّن)، والفقه الحركي، الذي ينتج في الميدان، إذ الأخير يوفر الفرصة الكافية لتصور الأمور، والأحداث، والأشياء، والحكم عليها، حكماً صائباً (١٣).

٢ - الإجماع على شرعية العمليات العسكرية :

في أكثر من محفل، وعلى منبر الأزهر الشريف، أكد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، أ. د. محمد سيد طنطاوي، أن من يفجِرّون أنفسهم - من رجال المقاومة الفلسطينية - في مواجهة الأعداء، هم شهداء.

وفي الجلسة الافتتاحية (لمؤتمر الإعلام وصورة العرب والمسلمين)، المنعقد في كلية الإعلام بجامعة القاهرة في (أغسطس ٢٠٠٢)، قال فضيلته - أيضاً - في معرض الحديث عن العمليات الاستشهادية "إن من يفجرّون أنفسهم في مواجهة الأعداء من أجل المحافظة على مقدساتهم، وديارهم، وأموالهم، وأبنائهم، هم شهداء ... وأنه كان من الأجدى لمفجري أحداث ١١ سبتمبر تفجير الكنيست، لخدمة كفاح الشعب الفلسطيني" ثم قال - بالعامية - : "اللي يدمر الكنيست الإسرائيلي يبقى راجل بصحيح. ويبقى قدم خدمة للقضية الفلسطينية، والمقاومة ضد الاحتلال" (١٤).

كذلك، أكد الفقيه الكبير، د. يوسف القرضاوي على حق المرأة في الإسهام

يمر بها الوطن والشعب الفلسطيني، حيث داهمهما العدو الصهيوني، فقد وجب الجهاد على المرأة، جنباً إلى جنب مع الرجل. وأن للمرأة في هذه الحال، أن تخرج بدون إذن زوجها، وأن للولد أن يخرج بدون إذن أبيه، وأن للمرؤس أن يخرج بدون إذن رئيسه لمواجهة العدو الذي داهم الأرض والشعب والحرمات، فهذه الحال يتقدم فيها الشأن العام أي مواجهة العدو الداهم، على الشأن الخاص، أي طلب الإذن بالخروج.

وبيّن فضيلته المَخْرج الشرعي للمرأة المسلمة، حين تشارك بتنفيذ العمليات الاستشهادية، من قضيتي (المحرم) و(الحجاب)، إذ يكون لها أن تخرج دون محرم، ويكون لها أن تضع مجرد قبعة على رأسها لغطاء الشعر، حتى إذا ما أتت اللحظات الأخيرة لتنفيذ العملية، نزعت المرأة حجابها، دون حرج شرعي، فهي ذاهبة للقاء ربها، للموت في سبيل الله، وليس للتبرج، أو عرض نفسها في شأن خاص (١٥).

ثم أكد فضيلة مفتي الجمهورية المصري د. أحمد الطيب بأن القواعد والآداب التي قررها الإسلام في القتال بين الجيوش المتحاربة، لا محل للالتزام بها في الصراع الدائر بين المقاومة الشعبية الفلسطينية، وجيش الاحتلال الصهيوني، قائلاً: إن هذه القواعد مطلوبة، إذا كان القتال دائراً بين جيش المسلمين وجيش الأعداء. أما إذا كان القتال دائراً بين جيش مزود بكل أسلحة الدمار الشامل، من طائرات وصواريخ، ودبابات ومدرعات، ومجنزرات، وآلات رصد، وإبادة، من جانب، وبين شعب أعزل لا يمتلك بين يديه أي نوع من أنواع الأسلحة لمقاومة العدو، يواجه جيشاً متوحشاً، ثم تفتقت حيلة هذا الشعب، المقهور المظلوم، عن وسيلة أثبتت تأثيرها في ردع عدوه. فأي دين، وأي قانون مجتمع متحضر، يجرؤ على أن يصادر عليه وسيلته الوحيدة، التي تمكنه من أن يحرق أصابع عدوه؟! إن إدانة هذه الوسيلة، تعني أن يقف هذا الشعب الأعزل، مرفوع اليدين أمام عمليات القتل والتدمير والاحتلال والإبادة، وهذا هو منطق الغاب الذي ينادي به البعض في الألفية الثالثة مع الأسف الشديد، ولو كان الفلسطنيون يقاتلون من خلال جيش مسلح لكنا أول من يدين هذه العمليات ويرفضها (١٦).

ولا يقف مفتي القدس والديار الفلسطينية، الشيخ عكرمة صبري، عند

حد تقرير شرعية العمليات الاستشهادية، بل يؤكد أنها أحدثت هزة قوية وعنيفة، في الشارع الإسرائيلي. وأنها تُستأنف، دائماً بشكل أقوى، لتثبت لشارون أن وسائله مهما تعددت، وآخرها عملية الجدار الواقي، لن تحقق الأمن للإسرائيليين، وأنها لن تحول دون وصول الاستشهاديين إلى العمق الإسرائيلي، وأن المقاومة باقية ما بقي الاحتلال (١٧).

وتحت عنوان (أعراس الشهادة في فلسطين) اقتبس كاتب المقال (١٨)، قطوفاً من كلمات أم الاستشهادي البطل الشبل محمد فرحات، تؤكد بأنها، بحق، "خنساء" هذا الزمان، التي تدفع بكامل إرادتها وعميق إيمانها، ابنها، إلى أكرم مصير، في سبيل الله (دينه/ أمته/ وطنه).

لقد أنزلت كلمات هذه الأم - وهي الأولى التي تسجل مع ابنها شريط فيديو قبل تنفيذه عمليته الاستشهادية - أنزلت الفزع والرعب في قلوب مغتصبي الأرض الصهاينة، على مستوياتهم السياسية والشعبية، أولئك الذين رأوا في العمليات الاستشهادية، أقوى دليل على أن الشعب الفلسطيني لا يمكن - مطلقاً - إخضاعه، بالقوة (١٩).

كما توضح سجلات العمليات الاستشهادية والخسائر البشرية الناجمة عنها،(٢٠) فإن في مقدمة الضربات القاصمة التي تلقاها الكيان الصهيوني، في مقاتله الحساسة، أمنياً وبشرياً، واقتصادياً، تأتي الخسائر البشرية، في أفراد جيشه المغتصب، وفي قطعان حيواناته الضالة أي المستوطنين.

وأنا لا أقف بعدد القتلى والمصابين في جانب العدو الصهيوني، عند حد أرقام من يسقطون في ميدان تنفيذ العمليات الاستشهادية، بل إنني أرى أن العدد الفعلي هو ما يستوعب كل من لحقه الفزع، والرعب، والمرض النفسي من الصهاينة مغتصبي الأرض، فهاجر هجرةً عكسية، إلى حيث كان قبل أن يأتي إلى أرضنا، أو فقد أمنه، وتوازنه الحياتي، وإن ظل مغتصباً، وبقي في أرضنا، أو انتحر، منسحباً من المواجهة مع أصحاب الأرض الفلسطينيين الاستشهاديين البواسل، شعب الجبارين، شعب أرض الرباط، هذه الأرض الطاهرة المباركة، التي ستلفظ عنها كل خبث علق بها، وفي مقدمة هذا الخبث، أولئك الصهاينة، الذين اغتصبوها، وانتهكوا طهارتها.

رصدت التقارير - عن نتائج العمليات الاستشهادية - أن أكثر من مائة ألف صهيوني أصبحوا مرضى نفسيين، وأن (٣٧٠٠) صهيوني انتحروا، منذ بدء انتفاضة الأقصى [٢١]. فيمكنك إضافة هؤلاء المرضى والصرعى الصهاينة إلى قتلاهم في ميدان تنفيذ العمليات الاستشهادية.

سادساً: (يسألونك عن الشهر الحرام) . . . وعن العمليات الاستشهادية :

في إطار سياسة التضليل المتعمد، والجدل السقيم، واستهداف استدراج المسلمين إلى أرض غير التي يجب أن تدور عليها المعركة، أو إلى موضوع غير الذي يجب أن يناقش، جاء كثير من محاولات اليهود - أشد الناس عداوة للمسلمين - قديماً وحديثاً.

استهدف هؤلاء الأعداء - أيضاً - تشكيك المسلمين أو إضعاف ثقتهم فيما يؤمنون به وذلك من خلال محاولات إدخال الخلط والالتباس على ما استقر في قلوب المسلمين من عقائد.

لكن الله - عز وجل - زودنا بأدوات عديدة، نبطل بها كيد أعدائنا، وندحض بها ما يسوقون من حجج باطلة. مبيناً لنا أنهم يجادلون بالباطل - جرياً على سنن الكافرين، والمشركين والمنافقين - فيجب علينا أن نرد خناجرهم في صدورهم.

قال تعالى: "ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق" (الكهف: ٥٦)

و: "يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون" (البقرة: ٩)

لعل أبرز صور الالتباس وقلب الحقائق التي تمارسها أبواق الدعاية الصهيونية، حالياً قولهم بأن الفلسطينيين يقتلون "المدنيين" الإسرائيليين بما ينفذونه من عمليات "انتحارية"!

وهذه دعوى باطلة، تنطوي كل كلمة فيها على كذبة كبرى:

فالفلسطينيون لا يقتلون الصهاينة حباً في القتل، أو هواية، وإنما مقاومة للمحتلين. وليس في الكيان الصهيوني مدنيون فجميعهم - كما سبق - مسلحون مغتصبون. وليس العمليات الاستشهادية "انتحارية"، كما سبق البرهان على ذلك.

نعود إلى عنوان هذه النقطة، لنتعرف كيف يحاول الصهاينة أن يجرونا إلى ارض غير الأرض، وموضوع غير الموضوع، كما يفعل حلفاؤهم المشركون.

قال المشركون لبعضِ صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قتل هؤلاء الصحابة مشركاً في الشهر الحرام: ألم ينهكم دينكم عن قتلنا في الشهر الحرام؟!

قال المشركون هذا، في وقتٍ كانوا هم يصدون المسلمين عن دينهم، أي يدفعونهم إلى الكفر، ويمنعونهم من المسجد الحرام، وينتهكون حرمة هذا المسجد، ويخرجون أهله المسلمين منه.

يرتكب المشركون كل هذه الجرائم في حق الله والإسلام والمسلمين، ثم يلومون المسلمين، إذا اضطروا إلى ردعدوان المشركين في واحد من الأشهر الحرم، أو إذا قتلوا واحداً من المشركين!

جاء رد القرآن الكريم حاسماً، في تفنيد التضليل والالتباس والجدال.

قال - تعالى - : "يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبير، وصَدٌّ عن سبيل الله، وكُفْرٌ به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا" (البقرة: ٢١٧)

عدّد القرآن الكريم الجرائمَ الكبرى التي ارتكبها هؤلاء المشركون:

- يصدون عن سبيل الله، ويكفرون به.

- يكفرون بالمسجد الحرام، ويخرجون أهله منه.

- يفتنون المسلمين عن دينهم.

- لا يزالون مصرين على رد المسلمين عن دينهم.

مبيناً أن واحدة، فقط، من هذه الجرائم كفيلة بأن تدفع المسلمين إلى الرد على هؤلاء.

فإذا كان المسلمون قد اضطروا إلى ارتكاب مخالفة شرعية واحدة، وهي القتال في الشهر الحرام، فقد فعلوا ذلك، لما نزل بهم على أيديكم أيها المشركون، حين ارتكبتم في حقهم كل تلك الجرائم البشعة. (والفتنة أكبر من القتل)، أي إن فتنتكم المسلمين في دينهم أكبر من قتالهم إياكم في الشهر الحرام.

بل مبيناً في ضوء قوله: "والفتنة أكبر من القتل"، وقوله: "ولا يزالون يقاتلونكم، حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا". أنه كان واجباً على المسلمين أن يردوا على عدوان المشركين. لأن سكوت المسلمين عن الرد على عدوان المشركين في حق الله، والدين، والمقدسات، وأرض المسلمين، يعد مخالفة أكبر، لا تقارن بها مخالفة حرمة الشهر الحرام.

هذا إن اعتبرنا اضطرارنا إلى قتالكم في الشهر الحرام مخالفة، وهو ليس كذلك، فإن ما يضطرنا أعداؤنا إليه من المخالفات لا يعد مخالفة، في ضوء القواعد الشرعية العامة: (الضرورات تبيح المحظورات)، و(الضرورة تقدر بقدرها). فنحن لم نقاتلكم في الشهر الحرام لأنكم ارتكبتم في حقنا خطأ عابراً صغيراً، ولكن لأنكم ارتكبتم في حقنا كبائر عديدة، هي كذا وكذا .. إلخ.

اللعبة القذرة ذاتها يلعبها الصهاينة اليوم . . .

فبينما يمارس النظام العنصري الحاكم في تل أبيب، إرهاب الدولة المنظم ضد الشعب الفلسطيني، إذ يغتصبون أرضه، ويقتلون أطفاله، ونساءه، وشيوخه، ويخربون مزارعه، ومصانعه، ويهدمون بيوته، ومدارسه، ومؤسساته، وينتهكون مقدساته، ولا يزالون مصرين على إخراجه من بيوته، وأرضه، ودينه - إن استطاعوا - ويحاصرونه، ويذلونه، بمصادرة مزارعه، والاستيلاء على مدنه وقراه . . .

بينما يفعل الصهاينة ونظامهم العنصري، كل ذلك بالفلسطينيين، يعودون بكل وقاحة، ويروجون لمقولة "إن الفلسطينيين يقتلون المدنيين الإسرائيليين"، ويتجاهلون أنهم هم الذين يصبون العذاب فوق رؤوس الفلسطينيين صباح ومساء.

وإذا ما اضطر الفلسطينيون إلى الرد على كل هذه الانتهاكات والجرائم الصهيونية، وردوا على الصهاينة بقليل من مثل ما يفعله الصهاينة، أقام الصهاينة الدنيا، وراحوا يجندون أبواق دعايتهم، ودعاية المتواطئين معهم، وشركائهم في العدوان على الفلسطينيين، للترويج لكذب الصهاينة، وقلبهم الحقائق.

وليس لدينا رد على هؤلاء الكذابين المغتصبين إلا ما علّمنا إياه القرآن الكريم:

نعم، سنرد على عدوانكم، ولو في الشهر الحرام.

نعم، سنرد على عدوانكم، ولو تسبب ردنا في قتل (مدنيين) لديكم، إن كان لديكم مدنيون، فجميعكم احتلاليون، عسكريين كنتم أم مستوطنين.

وفرضاً - جدلياً ونقاشياً - نقول: إذا كان في مجتمع الصهاينة مدنيون، فإن المقرر - فقهاً - هو ضرورة مقاتلتهم، إذا ثبت بأنهم يشاركون العسكريين من الصهاينة، بالدعم، والتحريض، والتخابر، وجميع المستوطنين أو (المدنيين الصهاينة)، يفعلون ذلك. وكذا وجب - شرعاً - قتالهم، إذا احتمى بهم أو تترس بهم جنودهم، ووجب تحريق حصونهم وبناياتهم، ومستوطناتهم، ونقاطهم الاحتلالية (٢٢).

أخيراً . . .

تحت عنوان "تحية للاستشهاديين الأبطال" جاءت قصيدة الشاعر/ د. محمد العربي، يبين فيها - بواقعية، تعتصر ألماً ومرارة - علة لجوء هؤلاء الأبطال إلى هذا الشكل أو الأسلوب الجهادي، في مقاومتهم للاحتلال الصهيوني. فيقول على ألسنتهم (٢٣).

لأنـي رأيـت قـطـاع الذئـاب وجيش الكلاب وبوم الخـراب
يعيث بسهلي ويجتاح حـقلي يسـمم بـئري ويسـرق نهـري

...

ويهلك بالبغى حـرثي ونسلي ويغتال بالغـدر أمـي وطفلي

...

لأنـي رأيـت الغشـوم الظلوم يحـطم بابـي ويحـرق غـابي
يمزّق عرضـي ويحـتل أرضـي ويمحو من الكون فرضي ونفلي
يـدنـس ساحـي بأخبث غـرس ويـملأ أفقـي بـإفك ورجـس
ويسـعى حثـيـثاً ليهـدم قـدسي
ويجتث جنسي ويومي وأمسي

ثم جرت أقلام الشعراء والمبدعين، تسجل كلمات الإجلال والتقدير لما يقدمه هؤلاء الأبطال في سبيل دينهم وأمتهم، وشعبهم ووطنهم. وعلى غزارة ما دون على صفحات الشرف هذه، فإنه ذو دلالة عميقة، بين كل هذه السطور المضيئة، أن نقرأ "إلى وفاء .. مع التحية"، وهي قصيدة إكبار وإعزاز كتبها خطيب المسجد الأقصى، القائم بأعمال رئيس الجامعة الإسلامية في غزة، - د. محمد الشيخ محمود صيام (٢٤) - إلى الاستشهادية الرائدة، عروس الدارين - الدنيا والآخرة - ، وفاء إدريس.

هوامش الفصل الأول

(١) كل ما استندت إليه هذه الدراسة من الأحاديث الشريفة - نصاً أو معنى - يرجع إليه في الأبواب ذات الصلة في:

- محمد فؤاد عبد الباقي، **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، ط١، القاهرة، ١٩٨٧، دار الريان للتراث، ١٩٨٧.

و: النووي، محي الدين بن شرف، **رياض الصالحين**، ط١، بيروت، دار الخير، ١٩٨٨.

(٢) استندت هذه الدراسة، فيما ورد بها من مراجعات لغوية، إلى:

- الرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، بيروت، المكتبة الأموية د.ت..

- **المعجم الوسيط**، القاهرة، مجمع اللغة العربية.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٧.

(٤) النووي، **مرجع سابق**، ٣٩٢ - ٣٩٣.

و: كتاب **الفقه على المذاهب الأربعة - قسم العبادات**، ط٨، القاهرة، وزارة الأوقاف، ١٩٨٠، ص ص ٤٩١ - ٤٩٣.

(٥) النووي و: الفقه على المذاهب الأربعة، **مرجعان سابقان**.

(٦) للمزيد، راجع:

- د. أحمد الشرباصي، **الفداء في الإسلام**، القاهرة، دار المعارف، سلسلة إقرأ، عدد ٢٣١٤ فبراير/ شباط ١٩٦٩.

- ---------------- ، **بين الوفاء والفداء**، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، عدد ٢٩١، مارس ١٩٧٥.

(٧) طه عبد الرؤوف سعد (تحقيق)، **السيرة النبوية لابن هشام**، القاهرة، دار إحياء الكتب جـ ٣، د. ت. ، ص ٣٠.

و: د. محمد سعيد رمضان البوطي، **فقه السيرة**، ط٢٧ بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨، ص ١٨٧.

(٨) النووي، **مرجع سابق**، ص ٢٧.

(٩) جواد رياض وآخرون، **الاستشهاد والإرهاب**، ط١، القاهرة، مركز يافا للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٢، ص ص ٢١ - ٢٤.

(١٠) للمزيد عن التصور الأمريكي الذي تم إبلاغه للحكومات العربية بضرورة صدور إدانة عربية وفلسطينية للعمليات الاستشهادية، أنظر:

- د. أحمد الصاوي، مؤتمر بشرم الشيخ .. الاتفاق الجنائي ضد الانتفاضة، **القدس** (القاهرة)، يونية/ حزيران ٢٠٠٢، ص ص ٢٣ - ٣٠.

(١١) أنظر - مثلاً - :

د. جهاد عودة و: علاء جمعة، **العمليات الاستشهادية الفلسطينية**، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، سلسلة كراسات استراتيجية، عدد ١١٤ التاريخ، ٢٠٠٢.

(١٢) ديب أنيس، استشهادية لا انتحارية، **القدس** (القاهرة)، مايو/ أيار ٢٠٠٢، ص ص ٩٨ - ١٠٢.

(١٣) **المرجع نفسه**.

(١٤) **الإسلام وطن** (القاهرة)، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، ص ٢٧. وفيها - أيضاً - أن السفارة الإسرائيلية بالقاهرة احتجت في فاكس أرسلته إلى مشيخة الأزهر، وأن السفارة المذكورة أرسلت فاكساً آخر إلى الكنيست تطالبه بأن يخاطب رئيس مجلس الشعب المصري، محتجاً على هذه التصريحات، وأن الكنيست بعث باحتجاج رسمي إلى مكتب شيخ الأزهر.

(١٥) للتفاصيل، راجع فتوى العلاّمة د. يوسف القرضاوي حول مشاركة النساء في العمليات الاستشهادية، في باب وثائق وبيانات ضمن: **القدس** (القاهرة)، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢، ص ٩٨.

(١٦) صفحة الفكر الديني تحاور فضيلة المفتي، **الأهرام** (القاهرة)، ٩/ ٨ / ٢٠٠٢.

(١٧) محمد خالد، حوار الشيخ صبري عكرمة مفتي **القدس**، (القاهرة)، يونية/ حزيران ٢٠٠٢، ص ص ٣٨ - ٤٢.

(١٨) صلاح عبد المقصود، **القدس** (القاهرة)، إبريل ٢٠٠٢، ص ص ١٤ - ١٦.

(١٩) للمزيد عن نتائج وآثار العمليات الاستشهادية في إوشال المخطط الصهيوني الشاروني، راجع:

- محمد زيادة، العمليات الاستشهادية أفشلت المخطط الشاروني الإسرائيلي، **عقيدتي** (القاهرة)، ٢٣/ ٧ / ٢٠٠٢.

- سمير سعيد، شارون فشل أمنياً وسياسياً واقتصادياً، **آفاق عربية** (القاهرة)، ١٣ / ٨ / ٢٠٠٢.

- د. سامي بن محمد الدلال، الأعصار الاستشهادي - هل يعصف بالإرهاب الشاروني، **البيان** (لندن)، مايو/ أيار ٢٠٠٢، ص ص ٤٢ - ٥٣.

- عزت الرشق، العمليات الاستشهادية بين شرعية المقاومة ولمقتضيات المصلحة الوطنية، **القدس** (القاهرة) يونية/ حزيران ٢٠٠٢، ص ص ١٨ - ٣٠.

(٢٠) راجع سجل العمليات الاستشهادية، والخسائر البشرية في جانب الكيان الصهيوني، في:

- د. جهاد عودة **مصدر سابق**، ص ص ٨ - ٢٦، ٣٤ - ٤٢.

(٢١) **آفاق عربية** (القاهرة)، ١٣ / ٨ / ٢٠٠٢.

(٢٢) راجع الأدلة الشرعية في قتل المدنيين إذا حرضوا العسكريين، وقدموا لهم الحماية والمشورة، في:

- جواد رياض، **مصدر سبق ذكره**، ص ص ٢٦ - ٢٧.

- ديب أنيس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨ - ١٠٢.

(٢٣) د. محمد عبد المنعم العربي، جواب الشهيد، **آفاق عربية** (القاهرة)، ٨ / ٨ ٢٠٠٢.

(٢٤) **القدس** (القاهرة)، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢، ص ص ١٠٥ - ١٠٧.



الفصل الثاني

المقاومة اللبنانية: تجربة رائدة

عبد القادر ياسين

لم يدر بخلد إسرائيل أنها باعتدائها على لبنان، واجتياحه، منذ ٤ / ٦ / ١٩٨٢، إنما فتحت (إسرائيل) على نفسها بوابات جهنم، إذ أطلقت طاقات الشعب اللبناني الكامنة، ضد هذا المعتدي الغاصب. لذا كانت ولادة "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية"، في ١٦ / ٩ / ١٩٨٢، ثمرة عجّل الاجتياح الإسرائيلي في انضاجها. وتعود عوامل قيام هذه الجبهة إلى ما قبل هذا الاجتياح، حيث لعب وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان دوراً ملحوظاً في مراكمة الخبرة الكفاحية ضد إسرائيل. فيما ألهم صمود المقاومة الفلسطينية، ومقاتلي الحركة الوطنية اللبنانية، وجنود الجيش السوري في بيروت، أبناء الشعب اللبناني بإمكانية الصمود أمام الهجمة الإسرائيلية الشرسة، ودحرها. وهذا أحد قادة "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية"، الرفيق حازم، يؤكد، لاحقاً، بأن "الجبهة" ولدت أثناء الحصار الإسرائيلي لبيروت، وباتفاق أحزاب يسارية ثلاثة [1] *.

بيد أننا لا نستطيع إنكار الدور الذي لعبه صلف "الجبهة اللبنانية"، وممارساتها الانعزالية الاستفزازية في حث أبناء الشعب اللبناني على التدفق إلى صفوف المقاومة الوطنية. ناهيك عن العداء القومي العربي الأصيل للصهيونية. كما أن خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، أواخر آب/ أغسطس ١٩٨٢، ألقى على عاتق أبناء الشعب اللبناني مهمة مقاومة الاحتلال، بالاعتماد على جميع الوطنيين اللبنانيين المناهضين لهذا الاحتلال. وكان القرار الذي اتخذته القيادتان، السياسية والعسكرية للجبهة، أن يعلن عنها، في ٢٢/ ٩ /

---

* هي "الحزب الشيوعي اللبناني"، و"منظمة العمل الشيوعي في لبنان"، و"الحزب السوري القومي الاجتماعي".

١٩٨٢، بعمليات فدائية نوعية، لكي يبرز منهج مقاومة الاحتلال، في اليوم الذي يتسلم فيه قائد "القوات اللبنانية"، الانعزالي بشير الجميل منصبه في رئاسة الجمهورية. لكن اغتيال الجميل، مساء ١٤ / ٩ ، واجتياح إسرائيل لبيروت، صباح اليوم التالي، دفع الأمينين العامين للحزب الشيوعي، ومنظمة العمل الشيوعي، جورج حاوي، ومحسن إبراهيم، باسميهما الشخصيين، إلى إصدار بيان تضمن الدعوة لقيام "الجبهة" المومأ إليها، وفقاً للصيغة المتفق عليها. أما "الحزب السوري القومي الاجتماعي"، فقد أصدرت قيادته بياناً يؤيد دعوة حاوي وإبراهيم، وتأكيد التزام الحزب بهذه الدعوة. (٢)

بدأت حرب الأنصار، فور الإعلان عن قيام "الجبهة"، ونشّط المقاومون الشجعان في عملياتهم العسكرية، الواحدة تلو الأخرى، دون توقف، في شتى أنحاء العاصمة، بيروت. وهكذا أثبت القرار التاريخي جديته، وجدواه. ولم تكد تمضي عشرة أيام على احتلال القوات الإسرائيلية لبيروت، وانفجار المقاومة في وجّهها، حتى بدأت قوات العدو الإسرائيلي تعلن، بمكبرات الصوت، عن استعدادها للانسحاب، داعية أهالي بيروت لإيقاف عملياتهم الفدائية ضد هذه القوات، تسهيلاً لانسحابها. وكان ذلك، في الواقع، أول انتصار للمقاومة، ونهجها. وهكذا استمرت الأعمال الفدائية في بيروت إلى أن تحررت. وكانت تلك بداية طبيعية، قدمت فيها المقاومة الوطنية نفسها للشعب اللبناني على أنها حركة للتحرير، ذات نهج ثوري جديد، وأسلوب في الكفاح مختلف عن السابق. وإن كانت تجربة هذه الأيام المعدودة من المقاومة سرعان ما انتشرت في كل المناطق اللبنانية المحتلة. وصار أبطال المقاومة يلاحقون العدو المحتل، في كل أماكن وجوده، وفي دأب متواصل، على تطوير هذه العمليات، كماً ونوعاً، فمن الكمائن، إلى زرع الألغام، والعمليات الاستشهادية، إلى خروج قرى بأكملها للاشتباك مع قوات الاحتلال، إلى عمليات مركبة، يستدرج فيها العدو، فيقع في الفخ، وتنهمر عليه النيران، رصاصاً، وقذائف، وقنابل يدوية (٣).

أربعة أحداث قبعت وراء التطور النوعي في شكل المواجهة الوطنية اللبنانية مع المحتل الإسرائيلي، وفي مضمونها، إنه التطور الذي يستند إلى التجربة الغنية المكدّسة (٤).

الحدث الأول: الاتفاق حول شكل ومضمون خروج المقاومة الفلسطينية من

بيروت، وارتباط ذلك بمجئ القوات المتعددة الجنسيات، بقيادة أمريكية، إلى بيروت.

الحدث الثاني: فرض بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية، بقوة الدبابات الإسرائيلية، وبقوة الوجود الأمريكي، والأطلسي.

الحدث الثالث: تنظيم مجازر صبرا وشاتيلا، التي تلت اغتيال بشير الجميل، أي بتسليم لبنان إلى أعدائه.

الحدث الرابع: القرار الإسرائيلي باجتياح بيروت، في شكل خدعة، سياسية وعسكرية.

في هذا السياق، أُثير جدل مصطنع حول البدائل والخيارات من أجل التحرير، حاولت فيه السلطة اللبنانية وأنصارها، في الداخل والخارج، إيهام اللبنانيين بأن المقاومة لا تشكل بديلاً، وأن لا بديل، في الظروف الراهنة، لتحرير الأرض، سوى الدخول في المفاوضات، إلى نهايتها، إلى توقيع الاتفاق، مشروطة برعاية أمريكية كاملة لهذا الاتفاق، ولم تعر السلطة أي اهتمام لا للمقاومة الوطنية - التي كانت تتعاظم شأناً - ولا للقوى السياسية، والجماهير الواسعة، التي كانت تزداد التفافاً حولها، ودعماً لها، ومشاركة فيها. بل إن بعض أجهزة السلطة تطوع لملاحقة أفراد المقاومة الوطنية، وعرقلة خططهم، وتسليم بعض آخر منهم للإسرائيليين. إلى أن تم توقيع اتفاق الإذعان، المعروف باسم "اتفاق ١٧ آيار"، الذي كان ينتظر إقراره. وقد سارع الشعب اللبناني إلى رفضه، وظل يقاومه حتى أسقطه، بعد تسعة أشهر ونيّف من إقراره. وفي هذه الأثناء، وعلى امتداد عام ونصف العام، كبرت المقاومة الوطنية، وتحولت إلى حركة مسلحة، وجماهيرية، إلى ظاهرة جديدة في نوعها، وفي طبيعة القوى المساهمة فيها، وفي شكلها، وفي ممارساتها، وفي علاقات التحالف في داخلها، وفي نوع علاقتها بالجماهير، وفي دورها، وفي فاعليتها، وفي مدى تأثيرها في العدو. لقد غدت - باختصار - أداة حقيقية للتحرير (٥).

يروي مصدر وطني لبناني قصة "١٧ آيار"، فيقول إنه مع النصر العسكري الذي حققته إسرائيل في لبنان، سنة ١٩٨٢، استعجلت ترجمته إلى نصر سياسي، عبر اتفاق إذعان مع الحكومة اللبنانية، وبدأت المفاوضات بين

الطرفين، في "فندق ليبانون بيتش"، في خلده، جنوب بيروت، ابتداء من ٨ / ١١ / ١٩٨٢، وتنقلت المفاوضات ما بين خلدة وناتانيا الإسرائيلية، وفي الجولة الثالثة والثلاثين من المفاوضات، في خلدة (٢٥ / ٤ / ١٩٨٣) تم الاتفاق، لكن وزير الدولة الإسرائيلي، آرييل شارون اتهم الإدارة الأمريكية بعدم السماح لإسرائيل بإحراز إنجازٍ كامل من المفاوضات مع لبنان. وفي ٦/ ٥ نال مشروع الاتفاق تأييد ١٧ وزيراً إسرائيلياً، ومعارضة وزيرين، فقط. وفي ١٤/ ٥ وافق مجلس الوزراء اللبناني، بالإجماع، في جلسة استثنائية، على مشروع الاتفاق. فيما وافقت عليه الكنيست الإسرائيلية، بأكثرية ٥٧ صوتاً، ضد ٦، وامتناع ٤٥ عن التصويت. وفي اليوم التالي تم توقيع الاتفاق، في خلدة وكريات شمونه، في الوقت نفسه. بيد أن الاتفاق لم ينل موافقة مجلس النواب اللبناني، الذي اكتفى بدعمه للحكومة، بإجماع ٨٠ نائباً. وإن كان المجلس عاد وصدق على الاتفاق، في ١٤/ ٦، بأكثرية ٦٥ صوتاً، ومعارضة نائبين، فقط، وامتناع ٤ عن التصويت [٦]. وأنهى "اتفاق ١٧ آيار" حال الحرب بين لبنان وإسرائيل، ونص على إقامة منطقة أمنية بينهما، ومنع إقامة قوات غير نظامية، أو مكاتب، أو فرق للإغارة على أراضي الطرف الآخر، وفرض على كل فريق الامتناع عن المشاركة في تهديد الطرف الآخر، أو الدعاية ضده. واستحدث الاتفاق لجنة اتصال مشتركة، تشارك فيها الولايات المتحدة، وتنحصر مهمتها في الإشراف على تنفيذ الاتفاق. ومعالجة المسائل غير المفصول فيها، ومع تطوير العلاقات بين الدولتين، وإلغاء كل المعاهدات والاتفاقات التي تتعارض مع ذاك الاتفاق[٧].

أيد معظم السياسيين التقليديين اللبنانيين هذا الاتفاق، فمنهم من اعتبره خطوة أولى على طريق استعادة سيادة لبنان، واستقلاله، وحريته، ومنهم من وجده وسيلة وحيدة لتحقيق الأهداف الوطنية. ومنهم من رأى فيه خير الممكن، وإن لم يكن خير المطلوب. ومنهم من اعتبره خطوة كبيرة نحو الخلاص. ومنهم من وجد فيه إنجازاً يدفع الاحتلال عن صدور اللبنانيين [٨].

فيما انفجرت حركة معارضة قوية في وجه الاتفاق. فثمة من رفضه لأسباب مبدئية (اعترافاً بالاحتلال الإسرائيلي). ومنهم لأسباب قانونية (كل اتفاق يوقع تحت الاحتلال باطل، بطلاناً مطلقاً). ومنهم من رفضه لأسباب سياسية (سيادة

لبنان، أو علاقته بشقيقاته الدول العربية) [٩].

تصاعدت المقاومة المسلحة في وجه المحتل، وطرحت "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" شعار "التحرير"، بعد أن انتصرت هذه "الجبهة" وشعبها على القوات المتعددة الجنسيات، ودحرتها عن التراب الوطني اللبناني. وكان النصر في ٦ شباط/ فبراير ١٩٨٤. ما دفع "الجبهة" إلى طرح شعار "التحرير"، في استجابة للتطور الكمي والنوعي لعمليات أبطال المقاومة في الجنوب اللبناني، الذي أفضى إلى تغير نسبة القوى الإقليمية، تغيراً نسبياً، في غير صالح إسرائيل، فضلاً عن تغير نسبة القوى الداخلية، في غير صالح الخيار الإسرائيلي، وانهيار مؤسسات السلطة اللبنانية، والاختلال الكبير في مجمل أسس النظام السياسي اللبناني [١٠].

هنا لم يجد مجلس الوزراء اللبناني مفراً من إلغاء "اتفاق ١٧ آيار"، في ٥/ ٣ / ١٩٨٤.

وفي خضم مختلف أشكال الكفاح، فإن العمليات الاستشهادية احتلت موقعاً متقدماً، إلى أن أخلت موقعها هذا لحرب الشعب، بعد أن كانت الفصائل الوطنية اللبنانية - إسلامية، ويسارية، وقومية - قد تعافت، وغدت في مستوى المواجهة في حرب عصابات. ما يحتم استعراض العمليات الاستشهادية في لبنان، على مدى زهاء ثلاث سنوات متصلة.

ثبت بالعمليات [١١]

- في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٢ أخذت الأنباء تتحدث عن نية الرئيس الأمريكي، رونالد ريجان، إرسال مبعوثه، فيليب حبيب، مجدداً، إلى الشرق الأوسط، بعدما نال حبيب قسطاً من الراحة. واتجهت الخطة الأمريكية إلى التوصل لاتفاق إسرائيلي - لبناني. يكرّس نجاح الاجتياح الإسرائيلي للبنان (٤/ ٦ / ١٩٨٢)، فيما كانت الأوضاع المتوترة تسود منطقة جبل لبنان، وتحديداً مدينة عالية، وجوارها.

فجأة دوّى انفجار مروّع، هز مدينة صور، صباح يوم ١١/ ١١ / ١٩٨٢، أسفر عن تدمير مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي، نتيجة اقتحام أحمد قصير

(حيدر)، ابن بلدة دير قانون النهر، قضاء صور، ذي الثمانية عشر ربيعاً، مبنى الحاكم العسكري الموما اليه، بسيارة مرسيدس بيضاء، مفخخة بكميات ضخمة من المتفجرات.

ضم المقر مكاتب للمخابرات الإسرائيلية، نشطت في اعتقال عشرات الوطنيين، فيما خُصص أحد طوابق المبنى لوحدة المساعدة، التابعة للقيادة الإسرائيلية في المنطقة، وغدا الطابق الرابع مبيتاً للضباط وضباط الصف الإسرائيليين، توزعوا ما بين المخابرات، والإدارة، والارتباط.

إنه مركز قيادة العمليات اليومية للمخابرات الإسرائيلية، ولمساعدي الحاكم العام، فضلاً عن أنه مكتب مراجعات، يصطف أمامه، يومياً، مئات المواطنين اللبنانيين، طالبي تصاريح الانتقال إلى بيروت، وضم المقر سجناً، مارس فيه أشد أنواع التعذيب للبنانيين والفلسطينيين، على حد سواء، قبل نقلهم إلى معتقل أنصار. فكان نسفه بمثابة رد موجع على إذلال الوطنيين المعتقلين، ودليل على قدرة المقاومة الوطنية على الوصول إلى أي هدف تنتقيه.

لقد كانت هذه العملية بداية انطلاق "المقاومة الوطنية اللبنانية" للاحتلال الإسرائيلي. وأسفرت عن ١٤١ قتيلاً، وعشرة مفقودين إسرائيليين، عدا تمكن بعض المعتقلين الوطنيين من الإفلات. وكانت أول أقوى صفعة للجيش الإسرائيلي في لبنان، فأعلن مجلس الوزراء الإسرائيلي الحداد، ليوم واحد، فيما انفلت حبل الجيش الإسرائيلي في لبنان، يعتقل، ويقتل، حتى وصل عدد المعتقلين إلى زهاء ٤٠٠ معتقل. كما فرض منع التجول على صور وقضائها، لمدة ٤ أيام. وشاركت الإدارة الأمريكية إسرائيل حزنها على قتلاها. فيما اندفع رئيس كتلة "سثينوي" الإسرائيلية في الكنيست، أمنون روبنشتاين مطالباً باستقالة وزير الدفاع، مجرم الحرب، أرييل شارون. وأكدت يومية "هارتس الإسرائيلية بأن الحادث أظهر بأن اجتياح إسرائيل للبنان أخفق في تحقيق أهدافه في القضاء على (الإرهاب). وأن على الحكومة (الإسرائيلية) أن توفر ترتيبات لأمن المستوطنات على الحدود اللبنانية، وإعادة جنودنا إلى بلادهم بأسرع ما يمكن". وأبدت يومية "دافار" الإسرائيلية خشيتها "من أن يقوم شارون - في غياب مناحيم بيجن في الولايات المتحدة - بإقناع مجلس الوزراء بالرد، عسكرياً. لقد ظهر، قبل الآن، أن طرق عمل وزير الدفاع اتسمت

بالخلل، وعلى إسرائيل ألا تتعرض للخطر، نتيجة أية أعمال متسرعة".

نسبت جهات عدة إلى نفسها شرف هذه العملية، لكن "المقاومة الإسلامية" انتظرت زهاء سنتين وستة أشهر متصلة لتعلن، في ١٩ / ٥ / ١٩٨٥، مسئوليتها عن نسف مقر الحاكم العسكري لمدينة صور، وهنا فحسب عرف اسم الشهيد منفّذ العملية، أحمد القصير. واتضح بأنه من مواليد ١٩٦٧، وقد ترك الدراسة، بمجرد أن أنهى الخامس الابتدائي، وشارك والده في العمل في حانوته، بعد أن كان عمل سائقاً لشاحنة صغيرة، بمجرد عودته من رحلة إلى السعودية، دامت ثلاثة أشهر، بهدف ملاحقة لقمة العيش.

- فيما كان المبعوث الأمريكي، فيليب حبيب، يدخل القصر الجمهوري اللبناني، في بعبدا، ضمن جولاته المكوكية بين عواصم المنطقة، لتحريك المفاوضات اللبنانية - الإسرائيلية - الأمريكية، وفيما كانت الجولة الحادية والثلاثون من هذه المفاوضات ستعقد، في ١٨ / ٤ / ١٩٨٣، في منتجع ناتانيا الإسرائيلي، وقع انفجار ضخم في مبنى السفارة الأمريكية، على كورنيش البحر في بيروت الغربية، بين منطقتي المنارة وعين المريسة، شمالي الجامعة الأمريكية، حين اقتحمت سيارة بيك أب مفخخة بأكثر من ١٥٠ كج من المواد المتفجرة مبنى السفارة، في تمام الساعة الواحدة وخمس دقائق من مساء اليوم نفسه. وخلال ٧ دقائق كان القسم الشرقي من السفارة، المؤلف من سبع طوابق، قد انهار، تماماً، واشتعلت النار في بقية الأجنحة.

أسفرت العملية عن مقتل ثلاثين شخصاً، وإصابة مئة آخرين. وأعلنت "الجهاد الإسلامي" مسئوليتها عن الحادث، بعد ١٠ دقائق من وقوعه، واتصل مجهول بيومية "السفير" البيروتية ليعلن مسئولية منظمته عن الحادث "الوجوديون الاشتراكيون العرب - الخلايا الوطنية الفاعلة - حوف".

رد ريجان، بعصبية، مؤكداً بأنه "لن يردعنا عن متابعة أهدافنا". فيما رأى السناتور الجمهوري المتشدد، بلاي غولد ووتر" إنه الوقت المناسب لإخراج مشاة البحرية {الأمريكية من لبنان}، معتقداً "أننا متجهون إلى مشاكل". فيما نسب عضو الكونجرس الأمريكي، لاري بليرز، إلى مصادر الاستخبارات الأمريكية قولها "إن جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد)، وحده، المؤهل

للقيام بعملية ناجحة، مثل تلك التي حدثت ضد السفارة الأمريكية في بيروت".

لا ندري ما الذي دعا وزير الخارجية اللبناني، آنذاك، إيلي سالم إلى إرسال برقية إلى نظيره الأمريكي، يؤكد له فيها "إن هذا العمل يستهدف، أساساً، إضعاف التصميم الأمريكي على إعادة السلام، والوحدة والصفاء إلى هذه الأرض المعذّبة"!، فيما نفهم صدمة وزير خارجية إسرائيل، آنذاك، إسحق شامير، القوية، لدى سماعه النبأ. ورأت الإذاعة الإسرائيلية بأن هذا الحادث يؤكد عدم أهلية الحكومة اللبنانية لحفظ الأمن. أما حركة "كاخ"، في أقصى اليمين الإسرائيلي، فرأت أن نسف مبنى السفارة الأمريكية "عقاب إلهي لحكومة ريجان، بسبب السياسة المعادية لإسرائيل، التي تحاول إنتهاجها"!

- في تمام الساعة السادسة وعشرين دقيقة من صباح ٢٣ / ١٠ / ١٩٨٣، اقتحمت شاحنة بيك آب، محمّلة بالمواد المتفجرة، مبنى قيادة المارينز الأمريكية في بيروت الغربية، ليفجّر سائقها الشاحنة، وهو فيها، ويعتبر الموقع أكبر تجمع للجنود الأمريكيين في بيروت. وكان، بالأساس، خاصاً بدائرة سلامة الطيران المدني، وهو مؤلف من ثلاثة طوابق، بطول ٧٥م، وعرض ٥٠م. وتشغله، عادة، عناصر المارينز، من جنود وضباط، قدروا ما بين ٢٥٠ و٣٠٠ عنصراً، ذهب زهاء ٤٠ منهم في إجازات يقضونها في مصر. ما جعل رقم القتلى يرتفع إلى ٢٦٢، والجرحى إلى مجرد ٣٠ جريحاً.

الناطق الرسمي باسم "المارينز"، الميجر روبرت جوردان، قدّر حجم المواد الناسفة بقوة ألف باوند، أي ٩٠٠ كجم، من مادة ت. ن. ت.

- بعد ثلاث دقائق على نسف مقر المارينز، هز بيروت الغربية انفجار آخر، مقر لقيادة القوات الفرنسية، كانت تشغله إدارة التفتيش التربوي، ثم غدا مقراً للمخابرات السورية في "قوات الردع العربية"، قبل أن تشغله القوات الفرنسية، غداة الاجتياح الفرنسي للبنان. وقد شغلت سرية من ثمانين عنصراً المبنى، إلى جانب عائلة لبنانية مهجّرة، ظلت في المبنى. وقد قتل كل من في المبنى، ودمرت ١١ سيارة جيب وشاحنة. وقدرت العبوة بمئتي كجم من المواد المتفجرة.

أعلنت "حركة الثورة الإسلامية الحرة" مسئوليتها عن العمليتين. ونعت

المجاهدين أبومازن (٢٦ سنة)، وأبو سمعان (٢٤ سنة).

أدان حزب "العمل" الإسرائيلي العمليتين، وإن رأى فيهما ما يحتم إيجاد حل سياسي في لبنان. وتوقع رئيس "العمل"، اسحق رابين، بأن يصدر ريجان أوامره بانسحاب قواته من لبنان، لحفظ ماء الوجه. فيما أعلن ريجان بأن إدارته، "مصممة، أكثر من أي وقت مضى، على منع أصحاب الطبيعة المتوحشة ... من السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم". تبعه وزير دفاعه، وينبرجر، الذي صرح، بعد اجتماعين لمجلس الأمن القومي الأمريكي، بأن الإدارة الأمريكية تدرس خيارات أخرى "لحفظ المخاطر التي تواجهها قوات المارينز". وزير الدفاع الفرنسي، شارل أيرنسو وصف ماجرى بأنه "اعتداء بغيض، وجبان ضد جنود السلام"!.

ـ كانت قيادة قوات الاحتلال الإسرائيلي حولت مبنى مدرسة الشجرة، التابعة لوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، عند المدخل الشمالي الشرقي لمدينة صور، قبالة ثكنة نبوا بركات، التابعة للجيش اللبناني، والتي تتخذها القوة اللوجستية الفرنسية، العاملة مع قوات الطوارئ الدولية في الجنوب اللبناني، مقراً لها، حولته قوات الاحتلال إلى مقر للحاكم العسكري الإسرائيلي، بعد تفجير مقره الأول، وقد أحاطته قوات الاحتلال بتحصينات، وسواتر ترابية، وحديدية، فيما رابطت وحدات عسكرية إسرائيلية على طول المدخل المؤدي إليه.

عند الساعة السادسة من صباح ٤ / ١١ / ١٩٨٣، اقتحمت سيارة بيك آب الحاجز الحديدي الأمامي، القائم أمام باحة المدرسة، ودوى انفجار مروّع، ترتب عليه ١٧٠ قتيلاً إسرائيلياً، و٩٧ من المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين. وأعلنت "أمل" بأن ٣٥ معتقلاً من عناصرها كانوا ضمن هؤلاء المعتقلين.

إتضح بأن السيارة كانت مفخخة بخمسين كجم. فيما أعلنت "الجهاد الإسلامي"، بعد ثلاث ساعات من الانفجار، مسئوليتها عنه.

لعل المثير للسخرية أن وزير الدفاع الإسرائيلي، آنذاك، موشيه أرينز، صرح "إننا نقاتل عدواً قاسياً، وظالماً، لا يعمل بطريقة معقولة، على الأقل بالنسبة للقواعد المتعارف عليها في العالم المتحضر"!. واتهم أرينز سوريا بدعم

"الإرهاب". وعلى منواله نسج سفير إسرائيل في واشنطن، مئيرروزين.

- عند مدخل قرية دير قانون القمر، فجّر الشهيد علي صفي الدين نفسه، مقتحماً قافلة إسرائيلية. حيث أوقف الشهيد سيارته، الرينو خضراء اللون، المفخخة بمئة وخمسين كجم ت. ن. ت، قرب منحدر يقع عند مدخل البلدة، وأدار المسجل بالقرآن الكريم، وتظاهر بأن السيارة معطلة. وفي العاشرة صباح يوم ١٣ / ٤ / ١٩٨٤، نفذ عمليته الاستشهادية، فأوقع ١٢ قتيلاً إسرائيلياً، و١٤ جريحاً.

بينما قوات العدو الإسرائيلي تحاصر قرى الجنوب اللبناني، والبقاع الغربي، وراشيا، وتشن حملات اعتقال عشوائية واسعة، كانت بكفيا في انتظار وصول نائب الرئيس السوري، عبد الحليم خدام، لبحث الأوضاع، ومحاولة تحريكها، ومتابعة ما أثير في القمة السورية - اللبنانية، كانت "المقاومة الوطنية اللبنانية" قد اتخذت قرارها بضرورة تصعيد عملياتها ضد العدو الإسرائيلي.

في تمام الرابعة وعشر دقائق من مساء السبت، ١٦ / ٦ / ١٩٨٤، قاد بلال فحص، من بلدة جيشيت، سيارة مرسيدس ٢٠٠، بيضاء اللون، وانحرف بها في وسط قافلة إسرائيلية. وكانت مفخخة بحوالي ١٥٠ كجم من المواد المتفجرة. ووقع الحادث قرب التابلاين، وحملت العملية اسم الشهيد مرشد نحاسي، أحد شهداء "المقاومة الوطنية اللبنانية".

ذكر شهود عيان بأن عدد القتلى تخطى العشرين، وقتل مواطن لبناني، تصادف وجوده في المكان. وأعلنت "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" مسئوليتها.

- بعد مرور سبعة عشر شهراً ويومين على تدمير مبنى السفارة الأمريكية في بيروت الغربية، هوجم المبنى الجديد للسفارة، في ديرعوكر ببيروت الشرقية.

وقع الهجوم في تمام الساعة ١١,٤٥ صباح يوم ٢٠ / ٩ / ١٩٨٤، بواسطة سيارة من نوع "دودج" فان، بيضاء اللون، شوهدت مندفعة نحو مبنى السفارة، وهي تحمل لوحة دبلوماسية أمريكية، ما خيل للحراس أنها تابعة للسفارة.

أصيب في العملية السفير الأمريكي، نفسه، بارتولوميو، وكان مجتمعاً بنظيره البريطاني، هنري ميرز (أصيب أيضاً). وكانت المحصلة ٢٣ قتيلاً، و٩٦ جريحاً. وأعلنت "الجهاد الإسلامي" مسئوليتها. ورد ريجان بأن إدارته "لن تستسلم للإرهاب"! فيما اتهمت الإدارة الأمريكية الاتحاد السوفييتي بدعم هذه الهجمات، ولم تبرئ سوريا وإيران من الدعم نفسه.

أما "الجهاد الإسلامي" فأكدت بأنها ستضرب مؤسسات أمريكية حيوية في منطقة الشرق الأوسط. فيما أكد ريجان، ووزير خارجيته، شولتز، ووزير الدفاع، وينبرغر بأن الطريق الوحيد لمنع العمليات الاستشهادية هي القيام بعمل طويل، ومضنٍ، بواسطة "وكالة المخابرات المركزية الأمريكية".

- عند طريق فرعي في منطقة البرج الشمالي، شرقي مدينة صور، يصل إلى "مؤسسة جبل عامر" المهنية، وفي تمام الساعة الثالثة مساء يوم ٥ / ٢ / ١٩٨٥، وبينما بعض طلبة المؤسسة يؤدون امتحاناتهم، خرج الطالب حسن قصير، بعد أن شارك بامتحانات مادة الرياضيات، وسرعان ما فجّر مقاتلو "جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية" عبوة ناسفة، استهدفت القوات الإسرائيلية، على بعد خمسين متراً من "مؤسسة جبل عامر"، فهرعت عشرات الآليات الإسرائيلية إلى مكان الانفجار، على بعد نحو ٣٠٠ متراً من مقر الحاكم العسكري. وفيما كانت تمر على الطريق ذاته قافلة كبيرة من القوات الإسرائيلية المنسحبة من منطقتي صيدا والزهران، اقتحمت سيارة مرسيدس هذا التجمع للقوات الإسرائيلية، وكانت السيارة مفخخة بأربعمائة كجم من المتفجرات، فقتلت ٦٠ إسرائيلياً، وجرحت ما يزيد على المئة. كما دمر الانفجار دبابتين، وشاحنتين، وسيارة جيب.

معروف أن الشهيد كان اعتقل من قبل قوات الاحتلال، في ٤ / ٨ / ١٩٨٢، وأن أفرج عنه بعد شهر واحد.

رد الاحتلال، بجنون، فشنت مشاته وطائراته الحربية غارات على قرى: معركة، البرج الشمالي، طيردبا، طورا، و"مؤسسة جبل عامل"، فأصيب ٢٥ طالب وطالبة بجروح مختلفة. كما اعتقل المحتلون رئيس جمعية البر والإحسان، حسين بيطار، ونسفوا محطة كهرباء المعشوق، ما قطع التيار

الكهربائي عن صور ومحيطها. ومنعت سيارات الصليب الأحمر الدولي من إنقاذ الجرحى اللبنانيين.

- بينما كانت قوات المحتل الإسرائيلي تعيد انتشارها، اقتحم شاب مجهول، أعطته، لاحقاً، "المقاومة الإسلامية" إسم "أبو زينب"، بسيارته البيك آب المفخخة بتسعمائة كجم من المتفجرات قافلة عسكرية إسرائيلية، كانت في طريقها إلى المطلة، عند نقطة تفتيش إسرائيلية، وأفضت عمليته إلى مقتل ١٢ إسرائيلياً، وجرح ١٤ آخرين.

بعد يومين انفجرت سيارة مفخخة في منطقة بير العبد، في بيروت الغربية، راح ضحيتها ٢٥٠ بين شهيد وجريح، لحساب العدو الإسرائيلي.

- في تمام الثالثة والثلث، من بعد ظهر الثلاثاء، الموافق ١٢ / ٣ / ١٩٨٥، توقفت سيارة مرسيدس ٢٥، بحوالي مئة كجم من المتفجرات، يقودها وجدي الصايغ، من بلدة شارون، (مواليد ١٩٦٦)، عند منعطف صغير، وفوجئت به قافلة عسكرية إسرائيلية يقتحمها، فيدمر سيارة جيب، وناقلة جند، فيما تدهورت آليتان، وقتل ثلاثة جنود، على الأقل، عدا الجرحى.

- أما أول عملية استشهادية لفتاة لبنانية، فكانت من نصيب سناء المحيدلي (الحزب السوري القومي الاجتماعي)، من عنقون، قضاء الزهراني، مواليد ١٤ / ٨ / ١٩٦٨. ففي تمام الحادية عشر، من صباح ٩ / ٤ / ١٩٨٥، عند باتر جزين، عبرت سيارة بيجو ٥٠٤، بيضاء اللون، الحاجز الذي أقامته قوات الاحتلال الإسرائيلي، وبعد عبورها الحاجز الأول، اخترقت قافلة عسكرية إسرائيلية كانت تمر من هناك، وفجّرت سيارتها، واعترفت إسرائيل بمقتل ضابطين إسرائيليين، وجرح جنديين. فيما أجمعت وكالات الأنباء على أن خسائر العدو المحتل تصل إلى عشرين، عدا تدمير عدد من الآليات العسكرية. واعترفت "جبهة المقاومة الوطنية" بمسئوليتها.

- أخذت قوات الاحتلال في الانسحاب من الجنوب اللبناني، ولم تستكن المقاومة الوطنية اللبنانية، ولم تنم ليلها الطويل، بل عمدت إلى ملاحقة القوات المنسحبة.

- في السادسة والربع من مساء ٢٠ / ٤ / ١٩٨٥، اقتربت شاحنة، يقودها مالك وهبي، من بلدة النبي عثمان بالبقاع (١٩٦٦)، مزوّدة بحوالي ألف كجم من مادة ت. ن. ت. ، من جسر القاسمية، في محاولة للوصول إلى تجمع كبير للآليات الإسرائيلية. وقد نجح. مما أدى إلى تدمير أربع ملالات، وقافلة جند، وأربع شاحنات، وسيارتي "جيب". وقتل وجرح زهاء ١٢٠ إسرائيلياً.

- في العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد، الموافق ٢١ / ٤ / ١٩٨٥ استشهدت لولا عبود، من بلدة القرعون، بعد عملية فدائية ضد دورية للعدو المحتل، مؤلفة من شاحنتين، وسيارة جيب، عند مدخل الفرعون الجنوبي. ولولا عضو في الحزب الشيوعي اللبناني، إبنة الكاتب السياسي إلياس عبود، وقد انتسبت إلى "جبهة المقاومة الوطنية" : "إيماناً مني أن جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية هي الطريق الوحيد للتحرير، والتوحيد، والتغيير الديمقراطي، بفضل تلك السواعد الطاهرة".

- حين وصلت وفاء نور الدين، ابنة النبطية الفوقا، المنتسبة إلى "الحزب الشيوعي اللبناني"، إلى مفترق أبو قمحة، قرب بلدة حاصبيا، بحقيبة المتفجرات، التي كانت تبغي إيصالها إلى الشريط الحدودي، يوم ٩ / ٥ / ١٩٨٥، شك جندي من "جيش لبنان الجنوبي" العميل لإسرائيل في محتويات الحقيبة، ما اضطر وفاء إلى تفجيرها، وقتل ضابط إسرائيلي، وزوجته، وعدد آخر من أفراد الدورية. وإن كانت الإذاعة الإسرائيلية لم تعترف سوى بمقتل ثلاثة فقط.

- عند الرابعة والنصف من مساء ١٠ / ٧ / ١٩٨٥، اقتحمت سيارة بيجو ٥٠٤، تقودها ابتسام حرب، من مواليد بلدة عزيفا - الشوف (مواليد ١٩٥٧)، بوابة العبور الجديدة للاحتلال، ويتجمع عندها عناصر من "جيش لبنان الجنوبي"، والمخابرات الإسرائيلية، في منطقة البياضة، جنوبي مدينة صور، وعند وصول ابتسام بسيارتها إلى هذا التجمع فجّرت السيارة، ما أفضى إلى مقتل ٣٠ عنصراً من "جيش لبنان الجنوبي"، ومخابرات الاحتلال، عدا ١٧ جريحاً، بينهم إسرائيليان.

- قبلها بخمس دقائق، فقط، كان الشهيد خالد أزرق، ابن حلب السورية، وإن

ولد في المتن الأعلى، ١٩٦٦، يتقدم بسيارته "بيك أب" من حاجز مشترك إسرائيلي - بحري، عند بوابة الزامرية (٤ كم شمالي الحاصباني)، وفجّرها في تجمع لجنود من "جيش لبنان الجنوبي"، ما دمر ناقلة جند تابعة لهذا الجيش. وسيارة جيب إسرائيلية، و٣ سيارات مدنية للاستخبارات الإسرائيلية، وقتل وجرح زهاء خمسين عنصراً، بينهم ٣ قتلى من المخابرات الإسرائيلية، و ٤ من "جيش لبنان الجنوبي".

- بعد ستة أيام من عمليتي ابتسام وخالد، وعند الرابعة من مساء الإثنين (١٥ / ٧ / ١٩٨٥)، تقدمت سيارة بيجو ٥٠٤، بيضاء اللون، ترفع علم الصليب الأحمر الدولي، من حاجز مشترك لحدي - استخباري إسرائيلي. في بلدة كفر تبنيت، واندفع قائد السيارة، هشام عباس (حزب البعث)، بسيارته المفخخة بمئتين وعشرة كجم من المتفجرات، ليوقع خسائر فادحة بالمتواجدين قرب الحاجز، عدا مجندتين، وسيارة "جيب" عسكرية.

- وصل علي غازي - طالب من تكريت - قضاء عكار، واجتاز كل الحواجز، والمتاريس، الطائفية والمذهبية، وانطلق جنوباً، بسيارة مرسيدس بيضاء، مفخخة بمئتي كجم ت. ن. ت. ، وقصد بلدة أرنون، قرب قلعة الشقيف، وفجّرها في تجمع لقوات لحد والقوات الإسرائيلية، في تمام الساعة الثالثة صباحاً، موعد وصول دورية إسرائيلية راجلة. وقتل في هذه العملية الجسورة أربعة جنود إسرائيليين، وذلك صباح الأربعاء، الموافق ٣١ / ٧ / ١٩٨٥.

- جمال ساطي، من كامد اللوز، بالبقاع الغربي (مواليد ١٩٦٢)، انخرط مبكراً في "جبهة المقاومة الوطنية"، ونفذ جملة من العمليات الفدائية الجسورة. ثم وصل بحماره المفخخ، بأربعمائة كجم من المتفجرات، إلى القرب من مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي لمنطقة حاصبيا، ونجح في تفجير حماره، في الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء (٦ / ٨ / ١٩٨٥)، وأوقع بالعدو وعملائه خسائر فادحة بالأرواح والماديات.

- في تمام الثالثة والثلث من مساء ١٥ / ٨ / ١٩٨٥، اقترب عبد الله عبد القادر، من مواليد قرية السحل السورية - قضاء النبت (١٩٦٢)، بسيارته المفخخة بحوالي ٣٠٠ كجم من المواد المتفجرة، من حاجز بيت ياجون، وقد

تصادف وجود حوالي ثلاثين من عناصر جيش لحد، خلال عملية تبديل وتسلم، واندفع الشهيد بسيارته إلى وسط المعبر، فقتل وجرح كل من كان هناك، ودمرت آليتان وسيارتا "جيب"، إضافة إلى ثلاث سيارات لمخابرات العدو المحتل.

- كانت سيارة مفخخة أخرى قرب مكان الحادث، يقودها منّاع قطايا، ومهمتها مهاجمة المكان، بمجرد وصول نجدات عسكرية إليه. لكن سيارته استعصت على الحركة. حتى كان يوم الأربعاء (٢٨ / ٨ / ١٩٨٥)، وفي تمام الثانية وخمس دقائق اقتحم قضايا الحاجز، الواقع عند مشارف مزرعة ريمات، فسقط ١٥ جندياً إسرائيلياً ولحدياً، بين قتيل وجريح.

بعد ستة أيام، فقط، من عملية الشهيد قطايا، وفي تمام السادسة من صباح ٣ / ٩ / ١٩٨٥، وصل الشهيد عصام عبد الساتر (حزب البعث) بسيارته المفخخة بثلاثمائة كجم من المتفجرات، مرسيدس ٢٠٠، زرقاء اللون، إلى حاجز تابع لميليشيات لحد، عند المدخل الشرقي لبلدة كفر حونة. وتضمن الحاجز موقعين حصينين، يبعد أحدهما عن الآخر حوالي ١٠٠ متراً، ويفصلهما طريق متعرج. وقد تمكن الشهيد من تفجير سيارته، على بعد ٢٠ متراً من الموقع الثاني، فأوقع خسائر فادحة في الموقعين.

- عند السابعة والنصف من صباح الأربعاء، الموافق ١١ / ٩ / ١٩٨٥ اقتربت سيارة تويوتا، تقودها مريم خير الدين، من الحزب السوري القومي الاجتماعي، ذات الثمانية عشر ربيعاً، من درويس، قضاء بعلبك (مواليد ١٩٦٦)، من حاجز لميليشيات لحد، عند بوابة زغلة، وانفجرت السيارة المفخخة، ما أدى إلى قتل وجرح ٣٠ عنصراً.

- عند الخامسة من مساء الأربعاء، الموافق ١٨ / ٩ / ١٩٨٥، اقتحم علي طلبة حسن، ابن الاسكندرية، سنة ١٩٦٢ (رابطة مصر العروبة) موقعاً مشتركاً لقوات لحد والاستخبارات الإسرائيلية، بسيارته المرسيدس ٢٣٠، طحينية اللون، بمتفجرات زنتها ٣٠٠ كجم، ما أدى إلى قتل وجرح أكثر من ٤٠ عنصراً، وتفجير آلية "ميركافا" وعدد من الآليات والسيارات التابعة للحد والجيش الإسرائيلي.

كان الموقع على طريق قعقعية الطيبة.

نتائج

ليس من العسير رصد نتائج المقاومة ضد المحتل الإسرائيلي، في عجالة:

- لعل في مقدمتها ولادة "حزب الله"، الذي بدأت أولى خطوات تأسيسه، مع العام ١٩٨٢، في سبيل وضع صيغة لتعزيز المواجهة مع المحتل الإسرائيلي، خاصة مع ميل رئيس "أمل"، نبيه بري، للتعاطي مع رئاسة الجمهورية اللبنانية، إبان الاحتلال الإسرائيلي للبنان، حيث هجر "أمل" بعض رموزها. ما وضع بذرة "حزب الله"، بمجرد أن انضم هؤلاء إلى "حزب الدعوة"، وعناصر أخرى من المقاومة الفلسطينية، وأحزاب لبنانية. ورفع الحزب الوليد شعار "محاربة الاحتلال الإسرائيلي وقوى الاستكبار العالمي". واحتل هذا الحزب موقعه اللائق بحزب استجاب لاحتياجات مجابهة المحتل، وتحرير الوطن. ومن خلال الممارسة اكتسب الحزب مرونة لافتة، وأكد "لا طائفيته"[١٢].

- فيما أشار أحد قادة "حزب العمل" الإسرائيلي بأن ما لاقاه جيش الاحتلال في لبنان أكد بأن الإملاء، والإنذار أسلوب خاطئ، ما دعا القائد نفسه مناشدة حكومة الليكود الكف عن الحاق الأذى بالإسرائيليين، بالخروج من الورطة اللبنانية، بعد أن استعصى تنصيب حكومة مركزية قوية (!) في لبنان، واستمر ضعف الجيش اللبناني، فضلاً عن خور ميليشيا لحد [١٣].

- إلى ذلك رصد الكاتب السياسي الإسرائيلي، رون بن يشاي ثلاثة اتجاهات داخل إسرائيل، لم ير أولها أي داع للاجتياح الإسرائيلي للبنان (صيف ١٩٨٢)، ويعتقد الاتجاه الثاني بأن الاجتياح تحول إلى سهم ارتد إلى نحر إسرائيل، فيما تعتقد القلة (الاتجاه الثالث) بأن الاجتياح لم يسئ إلى الأمن الإسرائيلي، بقدر ما خدمه. ويؤكد الكاتب نفسه الخطر الكبير، المتمثل في خروج الجيش الإسرائيلي من لبنان، دون أن يتمكن من تحطيم "الإرهاب الشيعي في الجنوب"، أو الاتفاق معه. بينما جاء الانسحاب الإسرائيلي السريع من الجنوب، تحت ضغط الخسائر البشرية الكبيرة، التي منى بها هناك، "لقد

تعلمنا في لبنان ما سبق للأمريكيين أن تعلموه في فيتنام"، بكلمات الكاتب نفسه، فمن تشكك في عدالة الاجتياح، وضبابية أهدافه، إلى تفشي ظاهرة التهرب من خدمة الاحتياط، وسيطرة "الرعب اللبناني" على جنود إسرائيليين. وتمنى بن يشاي أن تحوّل المقاومة الإسلامية جزءاً من قوتها تجاه الفلسطينيين * (١٤).

- لقد ألحق الإخفاق العسكري الإسرائيلي الكبير في مواجهة المقاومة اللبنانية أضراراً فادحة بصورة الضابط الإسرائيلي الكبير. فيما أحجمت رئاسة الأركان الإسرائيلية عن عادتها في ممارسة الانتقاد الذاتي، واستخلاص العبر، فيما تعلمت إسرائيل إستحالة تصفية الشعوب، بالقوة العسكرية، أو تحقيق السلام بجنازير الدبابات (١٥).

- هذا وزير خارجية إسرائيل الأسبق، الصهيوني المخضرم، أبا إيبان يرى بأنه "بدلاً من سبعة آلاف فدائي فلسطيني في الجنوب اللبناني، أصبحت إسرائيل تواجه سبعمائة ألف مسلح شيعي هناك، يكنون لها عداءً، سوف يستمر لأجيال قادمة" (١٦).

- "فهل تعني هزيمة إسرائيل في لبنان، أنها تخاطر، الآن، بفقد الضفة الغربية، أيضاً" (١٧)، بكلمات يومية لندنية، رأت بأن الحرب التي تواجهها إسرائيل في لبنان كانت من أجل الضفة الغربية.

---

* كانت "أمل" حاصرت بعض مخيمات الفلسطينيين في لبنان، منذ آيار/ مايو ١٩٨٥، وأعملت في أهلها تجويعاً، وتعطيشاً، وتقتيلاً، حتى اضطروا إلى أكل الكلاب، والقطط، والفئران. وأفتى لهم العلامة البارز، السيد حسين فضل الله هذا الأمر!

الدروس

لم تخلُ سنوات المقاومة الجسورة للاحتلال الإسرائيلي في لبنان من دروس، لطالما تكررت في الكثير من حركات التحرر الوطني في العالم، لعل في مقدمتها:

- مواجهة الهجمة الصهيونية ليست واجبة فحسب، بل إن دحرها ممكن، أيضاً.

- ضرورة اعتماد خيار المقاومة، لاخيار تسول الحل من العدو.

- حرب الشعب هي السلاح الأمضى، في مواجهة العدو الصهيوني، المدجج بآخر ما أنتجته الترسانة الحربية الأمريكية.

- الحذر واليقظة من محاولات تخريب المقاومة، أو تفتيتها، أو تشويهها بالنكوص إلى الطائفية، أو المذهبية، أو الحلقية، فضلاً عن شر الوقوع في أسر الاستعراض.

- ضربات المقاومة المتلاحقة ضد المحتلين تفضي إلى رحيلهم. ولم يؤد الانسحاب الإسرائيلي الجزئي الأول (أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣) إلى جسر الأولي، إلا إلى تشديد المقاومة، ملاحقتها للعدو، ما دفع مستوطني مستعمرات شمال إسرائيل (خاصة المطلة، وكريات شمونة) إلى جمع حاجياتهم، وأثاثهم، لمغادرة مستعمراتهم إلى مكان آمن.

- العلاقة الحميمة مع تحرير فلسطين.

- الرابطة العضوية، والتأثير المتبادل بين القطري والقومي.

استنتاجات

نخلص من هذا كله إلى ما يلي:

١ - ما أن أخرجت إسرائيل الجيش المصري من المواجهة معها، وتأكدت من صمت الجيش الأردني، حتى تطلعت إلى تحييد سوريا، عبر إدخال لبنان ضمن دائرة النفوذ الإسرائيلي، ما يتيح لإسرائيل ضم جميع الأراضي المحتلة، وإقامة "إسرائيل الكبرى"، وفرض الصيغة الإسرائيلية للسلام على الجميع. ولعل في اطمئنان إسرائيل إلى صمت الجبهتين، المصرية والأردنية، ما أغراها بدفع زهاء ثلثي مجموع الجيش الإسرائيلي إلى لبنان.

٢ - في العمليات الاستشهادية، اختلطت التنظيمات العلمانية بنظيراتها الدينية، وقدمت الأولى فتيات من أبناء الدين المسيحي. ما يؤكد خطل وقف الدافع للاستشهاد على الدين، وحده، وإسقاط الوطن في هذا الصدد.

٣ - حين اختل ميزان القوى، تماماً، لصالح الأعداء، الذين تكاثروا على لبنان (إسرائيليين، وأمريكيين، وفرنسيين)، عمدت المقاومة إلى العمليات الاستشهادية، في سبيل منع أعداء الأمة من الاستقواء بهذا الميزان، مع التأثير فيه لصالح لبنان، في انتظار تهيؤ القوى الوطنية اللبنانية للمواجهة، عبر استراتيجية حرب الشعب، فتضافر تراخي قبضة الحكومة اللبنانية على القوى السياسية وحركة الجماهير، مع الوحدة الوطنية، والاستراتيجية السليمة، لتوفر مجتمعة شروط "حرب الشعب".

٤ - ما أن تمت تهيئة تلك القوى لخوض غمار حرب الشعب، حتى أخلت العمليات الاستشهادية موقعها للكمائن، والهجمات الخاطفة، ولزرع الألغام في طريق الدوريات العسكرية الإسرائيلية. الأمر الذي توّج بسعي العدو الصهيوني للإفلات بجلده. حتى أن إيهود باراك نجح في انتخابات رئاسة الوزارة الإسرائيلية (١٩٩٨) بفضل برنامج الانسحاب من جنوب لبنان. ومن منا يمكن أن ينسى مشهد الجنود الإسرائيليين، الفرحين بالخروج سالمين من ضربات المقاومة اللبنانية، بينما الشعب اللبناني يحتفل بيوم النصر والتحرير (٢٥ / ٥ / ٢٠٠٠)، ومعه كل الأمة.

هوامش الفصل الثاني

(١) أنظر حديث الرفيق حازم إلى: **النهار العربي والدولي** (بيروت) ٩ / ٩ / ١٩٨٤.

(٢) هاشم علي محسن وآخرون، **المقاومة الوطنية اللبنانية: انطلاقتها/ واقعها/ وآفاق تطورها**، بيروت، الدار اللبنانية للتوثيق والنشر والتوزيع، ط٢، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٤، ص ٩٨ - ٩٩.

(٣) كرم مروّة، **المقاومة/ أفكار للنقاش عن الجذور والتجربة والآفاق**، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٥، ص ٢٤، ٣٣ - ٣٦.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٩ - ٢٠.

(٥) د. نزار الزين وآخرون، **المقاومة الوطنية اللبنانية طريق التحرير والوحدة**، بيروت، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ١٩٨٤ (أنظر: كريم مروّة، المقاومة الوطنية اللبنانية، ص ٦٧ - ٩٧).

(٦) **اتفاق ١٧ آيار ١٩٨٣**، بيروت، مركز الوحدة الإسلامية، ١٩٨٨، ص ٢١ - ٢٨.

(٧) راجع النص الرسمي لمشروع الاتفاق، باللغة العربية في: **المصدر نفسه**، ص ٤٥ - ٦٧.

(٨) لمراجعة أسماء المؤيدين وأقوالهم، يمكن الرجوع إلى: **المصدر نفسه**، ص ٦٩ - ٨٣.

(٩) لمراجعة أسماء المعارضين، وحججهم، يمكن الرجوع إلى: **المصدر نفسه**، ص ٨٥ - ٩٦.

(١٠) أنظر: مقدمة جورج حاوي لكتاب مروّة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧.

(١١) تم الاعتماد هنا، أساساً، على:

رفيق نصر الله (إعداد)، **المقاومة الوطنية اللبنانية (١٩٨٢ - ١٩٨٥) العمليات الاستشهادية، وثائق وصور**، بيروت، المركز العربي للمعلومات، ط١، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥، صفحات متفرقة من ص ٢٢ - ٢٧١.

(١٢) لمزيد من المعلومات عن "حزب الله" يمكن الرجوع إلى:

نهاد حشيشو، **الأحزاب في لبنان**، بيروت، سلسلة "دراسات" (٤)، مركز الدراسات

الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٨، ص ٣٢ - ٤٢.

(١٣) مردخاي غور، ضرورة الإسراع في الخروج من لبنان، **دافار**، ٦ / ٢ / ١٩٨٤.

(١٤) **يديعوت احرونوت**، ٦ / ٦ / ١٩٨٦.

(١٥) **المصدر نفسه**.

(١٦) **الأوبزيرفر** (لندن) ٢٩ / ٣ / ١٩٨٥.

(١٧) **المصدر نفسه**.

الفصل الثالث
لمحات من الاستشهاد
في التاريخ الفلسطيني

سمر الغلبان

لم تكن العمليات الاستشهادية الحالية في فلسطين، نبتة شيطانية، إنما نبتت عن بذور خاصة زرعها الشعب الفلسطيني في أرض المحشر، لتكون في غدهم البعيد شجرة لا تموت، أبداً.

تحت الاحتلال البريطاني

العمليات الاستشهادية الراهنة ضد الاحتلال الاسرائيلي هي مجرد حلقة في سلسلة طويلة، لأعمال فدائية قدمها الشعب الفلسطيني، منذ "تصريح بلفور"، والمحاولات الأولى لتهويد فلسطين.

المتصفح للتاريخ الفلسطيني يجد جذوراً فدائية رائعة، لملحمة لم تنته، فمنذ ١٩١٧، بدأ الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني مرحلة جديدة، وأصبح ثمة ضرورة لعمل فدائي يؤرق مضجع الغاصبين، وقد بدأ بالتنظيم للجمعيات، والمعسكرات، والنوادي، ولا سيما جمعية (الفدائية) [١].

بالإضافة إلى تبلور سريع في كفاحهم المسلح، الذي لم يكن بالنسبة للشعب الفلسطيني أحد الخيارات، بل كان خيارهم الوحيد، فبدأت المصادمات مع القوات البريطانية، والصهاينة، في تنظيم المظاهرات، وخوض المعارك أو شنّ هجمات قصيرة ضد الجنود المعتدين واقتحام المستعمرات، وإطلاق النار على المسلحين الصهاينة، والقوات البريطانية، ففي عام ١٩٢٠ شنّ مسلحون فلسطينيون هجومين على مستوطنتي (المطلة) و(تل حي)، حيث قتلوا سبعة

من الصهاينة فيها [٢].

كذلك الانتفاضات الجماهيرية، الممتدة منذ أوائل العشرينات، وحتى الثورة الوطنية الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، بالإضافة إلى أعمال ثورية مسلحة، الكثير منها بشكل منظم ومدرب، وذلك مع بداية أكبر للخلايا السرية الفدائية المسلحة في جميع أنحاء فلسطين.

تشكلت جمعية عربية، أواخر ١٩٢٩، لاغتيال الخونة، ثم ما لبث أن ظهرت مجموعة (الكف الأخضر) المسلحة [٣]، التي بدأت تشنّ الهجمات على الجيش والبوليس البريطاني، والمستعمرين الصهاينة، ومن أمثلة ذلك:

شنّ هجوم على الحي اليهودي في صفد، بالتعاون مع أنصارها داخل المدينة، وذلك في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٩، بقيادة (أحمد طافش) *، فضلاً عن نصب الكمائن للدوريات البوليسية في قضاء عكا، مروراً بمنتصف الثلاثينات، خاض (الشيخ عز الدين القسام) معركة غير متكافئة، في ١٩/ ١١ / ١٩٣٥، وقد كان نداؤه فيها حين اشتد القتال: "هذا جهاد في سبيل الله، يارفاقي موتوا شهداء". [٤]

كان استشهاد (القسام)**، في تلك المعركة بداية الشرارة الأولى للثورة الوطنية الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩م)، والتي تضمنت عمليات سرية مسلحة، وقتل المستعمرين اليهود، ومحاولات اغتيال القادة البريطانيين، والصهاينة، رداً على جرائمهم بحق الشعب الفلسطيني.

كما تضمنت هذه الأعمال الفدائية الفلسطينية أمثلة من أعمال المقاومة، منها: [٥]

---

* قائد مجموعة الكف الأخضر الفدائية، والتي امتازت بقدرتها اللافتة على الحركة والمناورة.

** **الشيخ عز الدين القسام**، من مواليد جبلة، قضاء اللاذقية، شمال غرب سوريا، عام ١٨٨٢م، هاجر إلى "حيفا"، عام ١٩٢١، بعد انتهاء الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي، والذي كان القسام قائداً بارزاً فيها. لمع القسام في تاريخ النضال الوطني الفلسطيني، فكان موته شرارة الثورة الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩).

- إطلاق الرصاص على الجنود البريطانيين، كذلك كبار المسئولين اليهود والبريطانيين، ومهاجمتهم المخيمات والمستوطنات، وإلقاء القنابل، ومهاجمة سيارات الجنود البريطانية، وسيارات الصهاينة، ومراكز البوليس، وإتلاف كثير من الأشجار المثمرة التي يمتلكها الصهاينة، نجدها تمركزت، في بداياتها الأولى، حول مدن يافا، ونابلس، وعكا، إلا أنها اتسعت لتشمل جميع أنحاء فلسطين، خلافاً لما قدمته هذه العمليات الفدائية من شهداء وجرحى، إثر اشتباكها مع البريطانيين واليهود.

وهذه بعض العمليات الفدائية إبان ثورة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) :

- ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٣٦، تم اغتيال قائد شرطة القدس البريطاني وحارسه، وقد استشهد المنفذ سامي الأنصاري، بعد إطلاق النار عليه، ونجا رفيقه، بهجت أبو غربية [٦].

- في أواخر أيار/ مايو ١٩٣٦ هاجم ثلاثة من المجاهدين العرب دورية إنجليزية، على طريق بيسان، ومستعمرة بيت ألفا، الواقعة غربي بيسان، وتمكنوا من قتل معظم أفراد الدورية وحدهم. وقد استشهد اثنان من المجاهدين، هما: سعد محمود مطالقة، وأخوه، وجرح ثالث، هو الشيخ خضر، من أخوان القسام، ولما وصل الخبر إلى والدتهما، زغردت، وقالت "في سبيل الله والوطن يا أبناء الأمة العربية" [٧].

لقد كانت الخنساء الفلسطينية دليلاً قاطعاً على أن الجهاد والنضال في فلسطين، منذ المهد، يسري في أجسادنا، ومن قبل في أحشاء أمهاتنا، فالمرأة الفلسطينية سند قوي لمسيرة النضال الفلسطيني.

- هجوم على قرية يهودية في جهات صور، والناصرة، استشهد خلالها السيد محمد الرشيد، متأثراً بجراحه، بعد اشتباكه في أحد المعارك [٨].

- هجمات عنيفة على أنابيب البترول، والسكك الحديدية، ومراكز الشرطة، بالإضافة لعملية اغتيال، هاجم فيها الثوار في شوارع مدينة الناصرة، حاكم لواء الجليل، ومساعده، الذي كان بصحبته، فقتلا ومعهما حارسهما، وذلك في ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ [٩].

لم تكن تضحيات سنة ١٩٣٨، أقل جرأة وشجاعة من سابقتها، فقد قدر عدد العمليات فيها ب ٤٩٦٩ عملية، إستناداً لتقرير صدر عن حكومة الانتداب (١٠). وعلى سبيل المثال :

- عملية الاحتلال ليلة ٢ - ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨، بقيادة المجاهد محمود سليم الصالح (أبو عاطف المغربي)، من قرية عموقة، ومساعده، ومعهما ثلاثة فصائل، فقد وضعت خطة عسكرية بارعة لاحتلال مدينة طبريا، نفذت الخطة، بنجاح باهر، أذهل السلطات العسكرية اليهودية، واستشهد على أثرها أربعة ثوار، منهم شخص يدعى يوسف، من أخواننا في العربية - المسيحيين - وثلاثة من إخواننا الدروز، وقدرت خسائر العدو بسبعين قتيلاً يهودياً، وخمسة وعشرين جندياً إنجليزياً (١١).

وهكذا لم يبخل أحد من أبناء فلسطين بدمه، أو روحه عليها، أياً كانت ديانته.

إبان النكبة (١٩٤٧ - ١٩٤٨)

بحلول عام ١٩٤٧، وصدور قرار التقسيم (٢٩ / ١١ / ١٩٤٧)، بدأت حرب العصابات في فلسطين، بشكل ملحوظ، فتعالت صيحات الرفض لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٢).

اندلعت حرب فلسطين، أواخر سنة ١٩٤٧، بقصد منع انتقال الأراضي الفلسطينية للصهاينة، بقوة السلاح، وامتازت عمليات عام ١٩٤٨ بقتال الشوارع، والنسف، والتدمير، خاصة في المدن المشتركة، بين اليهود والعرب، مثل حيفا، وصفد، ويافا، وطبريا (١٣).

لعل من أبرز العمليات الفدائية، والتي استشهد فيها عدد من المناضلين:

- في ٩ / ١ / ١٩٤٨ أول هجوم على مستعمرة عبرية في حرب فلسطين، في أقصى الشمال من البلد على كيبوتس "كفاسولد"، وتوالت العمليات الخاصة على المستعمرات اليهودية، "هجوم على مستعمرة "كريات عناقيم"، وآخر على مستعمرة "كفا راؤريا" في ١١ / ١ / ١٩٤٨، قتل خلال الهجومين ثلاث رجال من قوات الدفاع الإسرائيلي (١٤).

- محاولة اغتيال، في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، فقد استشهد الأخوان سامي الأصفر وشقيقه ، وهما يضعان قنبلة موقوتة، للإعداد لاغتيال زعيم قيل، يومئذ، إنه "ديفيد بن جوريون [١٥].

- عملية لمجاهد سرور برهم، في ٥ / ٣ / ١٩٤٨، فقد ألقى قنبلة يدوية على سيارة ألغام كبيرة، من قافلة عربية، قادمة من لبنان إلى حيفا، تنقل الأسلحة، والمتفجرات، بحراسة خمسة عشر مجاهداً، وكان سرور برهم أحدهم، وعند دوار "مستعمرة موتسكن" عرقلت مسيرتهم سرية عسكرية يهودية، مما اضطرهم لخوض معركة غير متكافئة لصالح الصهاينة، فقرر سرور له، وللمجاهدين الشهادة، بادئاً بإلقاء قنبلة يدوية على سيارة الألغام الكبيرة، ليدوي انفجار هائل، سقط على أثره المجاهدون الخمسة عشر شهداء، فيما قتل أكثر من خمسين صهيونياً، ودمرت عدة بنايات للصهاينة، [١٦] فكانت عملية سرور برهم عملاً فدائياً، وصل إلى مرحلة الأعمال الاستشهادية الخاصة الراهنة.

- في ١٣ / ٥ / ١٩٤٨، جرى أول عمل هجومي للمتطوعين العرب، على قافلة عسكرية مدربة، بمدافع "بونير" عند مستعمرة (دنجور)، أسفرت عن استشهاد فتحي الخولي أحد المتطوعين المصريين، وغيرها من أعمال المقاومة العربية والفلسطينية في حرب فلسطين [١٧].

- إلى نماذج من العمليات التي قام بها المناضلون من المتطوعين العرب مع أشقائهم الفلسطينيين، وكثير من المعارك المشتركة مما زاد من حمية العمل الفدائي الفلسطيني، حينئذ [١٨].

- في عملية فدائية على مستعمرة "كفا رديرفم"، قرب دير البلح، للمتطوعين المصريين، سقط عدد كبير من الشهداء والجرحى، لأن الأسلاك كانت ملغمة، وكذلك استشهد النقيب "انور صبحي"، في ١٤ / ٥ / ١٩٤٨، في هجوم على مستعمرة "كفار هيشل" [١٩].

باستعراض النماذج السابقة، نجد بأن الكثير من الأعمال الفدائية، اقتربت في كثير من الأحيان، من مستوى الاستشهاد، فمن المرجح أن الشهادة مقصدهم، وأسمى أمانيهم في مقاومة الاحتلال، واسترداد أرض فلسطين كاملة.

بنظرة عامة على مسار النضال الوطني الفلسطيني في فترة (١٩١٨ - ١٩٤٨)، نجده في بداياته عفوياً، وغير منظم، تملأه روح الكفاح المستميت ثم أخذ الطابع التنظيمي بدرجة متذبذبة بين الصعود والهبوط، تبع ما تقضي به الأوضاع.

وتجلى ذلك في تنظيم الجمعيات والأندية في بداية العمل الفدائي، وصولاً للتنظيمات المشتركة والعربية، في أعقاب حرب ١٩٤٨، فالعمليات الاستشهادية المخططة، لم تكن واردة، بالشكل المتعارف عليه بعد ذلك في الكفاح المسلح الفلسطيني.

من العدوان الثلاثي إلى ما بعد النكسة

أخذت الأعمال الفدائية في منتصف الخمسينات، باستعادة نشاطها، بعد حالة ركود عارضة، غداة نكبة حرب فلسطين، وإن عادت متجددة ويملأها الحماس، ولا سيما الكتيبة ١٤١ بقيادة البكباشي (المقدم) مصطفى حافظ، والتي أسست في آذار/ مارس ١٩٥٥، وانحصر نشاط الهجوم على السيارات العسكرية الإسرائيلية، فضلاً عن قيام أفراد هذه الكتيبة بالدوريات الإستطلاعية، وعمليات فدائية كانت بمثابة عمليات استشهادية، لأن العودة فيها بسلام أمر شبه مستحيل [٢٠].

- بالإضافة لتشكيل مجموعات استشهادية، تتصدى للدبابات الإسرائيلية، حتى أوقفت تقدمها، بعد تدمير عدد منها، وسقط شهيدان، هما عواد حسن العويدات، عبد الرحمن النباهين، وهذه المجموعات بتشكيل من (الفدائيين القدامى)، الذين لهم أعمال نضالية فدائية ناجحة، في تلك الفترة [٢١].

لعل أبرز عمليات عام ١٩٥٨، عملية استطلاع للمفاعل النووي الإسرائيلي، في ديمونة في صحراء النقب، فقد استشهد اثنان من الفدائيين، بعد إطلاق النار عليهما، من قبل دوريات حراسة المفاعل [٢٢].

تحرك أبطال الفداء من سوريا، ولبنان والأردن، والأكثرية من الأردن من رجال القواعد السرية المنظمة، أثناء "العدوان الثلاثي" على مصر، خريف ١٩٥٦.

كان العمل الفدائي من أسباب النصر على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، داخل بورسعيد، وفي الأراضي المحتلة، ولا سيما أعمال "فرقة خالد بن الوليد"، وهجومها على المفرزات الإسرائيلية، وزرع الألغام، ونسف أنابيب المياه، التي تروي المستعمرات الصهيونية، وإلحاق خسائر مادية بالغة بالجانب الإسرائيلي [٢٣].

"الفداء المنظم"

أخذ العمل الفلسطيني الفدائي يتقلص، بسبب التحرك السري الأمريكي، والضغط الأردني، ومحاربتهما للعمل الفدائي، حتى توقف من أواخر ١٩٥٨، إلى أوائل ١٩٦٥ [٢٤]. وعادت طلائع عمل فلسطيني في أول عملية فدائية في الأرض المحتلة لحركة "فتح"، في أوائل عام ١٩٦٥، ومضت تعمل الحركة الفدائية، بشكل متقطع، عمليات محدودة، لإسماع العالم صوت النداء الفلسطيني [٢٥]، الذي أخذ في الاستمرار، طوال عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، ومنتصف ١٩٦٧، وصولاً إلى "معركة الكرامة" (٢١ / ٣ / ١٩٦٨) وقد بلغ عدد العمليات، في عام ١٩٦٨، وحده، ٨٠٠ عملية عسكرية، أي ما يزيد عن سبعين عملية، في المتوسط، شهرياً [٢٦].

تطورت الأعمال الفدائية، في العام ١٩٦٨، ما بين مهاجمة مصانع الآلات والمواد الكهربائية، ومصانع الفوسفات، والبوتاس، وقصف الأحياء السكنية اليهودية، والأهداف العسكرية، والمنشآت الصناعية، وقصف المستعمرات [٢٧].

لقد آمن الفدائيون والاستشهاديون بأن شريعة الحق الفلسطيني وأرض الآباء، والأجداد، نابعة من فوهة البندقية، ودخان الألغام. هذا ما نجده، في سنوات السبعينيات والثمانينيات، وما بعد الانتفاضة الكبرى، عام ١٩٨٧، وصولاً إلى (انتفاضة الأقصى والاستقلال) الحالية ، وعملياتها الاستشهادية النوعية الخالصة، والتي خرجت جذورها من أرض الكفاح الوطني الفلسطيني الباسل.

حفلت سنوات السبعينيات بالعمليات الخاصة بالإضافة لعمليات استشهادية نوعية، وذلك إثر حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، وما بعدها من سنوات، تشهد بزيادة الحماس في قلوب المقاتلين الفلسطينيين، مع تحقيق نقلة نوعية في عملياتهم الفدائية، والتي كانت، حقاً، بداية العمليات الاستشهادية.

قدرت العمليات الفدائية في حزيران/ يونيو، تموز/ يوليو ١٩٧١، بـ ٢٦٥ عملية وفي بداية السبعينيات سجل الفدائيون في غزة أعلى نسبة من النشاط العسكري [٢٨].

نتناول هنا بعض العمليات الخاصة فيما يلي: [٢٩]

- ٨ / ١٠ / ١٩٧٣ جرى قصف صاروخي لشبكة رادار العدو، في جبل "الجرمق"، مستعمرة "ارمك" في الجليل الغربي، ومهاجمة معسكر في منطقة سعسع، واستشهد أحد الفدائيين، وفقد آخر، وجرح خمسة منهم.

٩ - ١٠ / ١٠ / ١٩٧٣ قصف مدفعي، وصاروخي لمستعمرتي فرجليوت "وفسكاف عام"، في الجليل الأعلى، ومستعمرة المنارة، ومعسكر "فشكول"، و"كريات شمونة"، بانياس، واستشهد خمسة ثوار، حينئذ.

١١ - ١٢ / ١٠ / ١٩٧٣ عدة كمائن لدوريات العدو، نصبها الفدائيون، عند محور المطلة في منطقة "أبل القمح"، وبين "هاكوشريم" و"الخالصة"، وعلى الطريق الرئيسي بين الخالصة وبانياس، بالإضافة إلى كمين رابع على الطريق (نخيلة وان)، وغيرها من المستوطنات، وكانت حصيلة اليومين اثنى عشر شهيداً، سقط ثمانية منهم في اشتباك مع الإسرائيليين، في صدام واسع في مستعمرتي مزرعيت والمطلة.

في المحصّلة قامت الثورة الفلسطينية، أثناء حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، بما يزيد عن ٢٠٧ عملية فدائية، سقط خلالها ٥٩ شهيداً، و٤٣ جريحاً من الفدائيين، فكانت أعمال خاصة، ترقى إلى العمليات الاستشهادية.

- شهد الحادي عشر من نيسان/ إبريل ١٩٧٤، أول عملية خاصة في تلك

السنة، حين تسلل ثلاثة فدائيين إلى مبنى يستخدمه، أفراد لتنظيم (ناحال) شبه العسكري، في مستوطنة (الخالصة)، كريات شمونة، في الجليل الأعلى، واحتجز الفدائيون عدداً من الإسرائيليين، وطالبوا بإطلاق سريع لـ (١٠٠) فدائي عربي أسير، فيما تجاهل الجيش الإسرائيلي المفاوضات الجارية، واقتحم المبنى، فاستشهد ثلاثة فدائيين، وقتل تسعة عشر جندياً إسرائيلياً، وجرح ستة عشر آخرين [٣٠]. ونسبت هذه العملية إلى الجبهة الشعبية، القيادة العامة.

- في ١٥ أيار/ مايو ١٩٧٤، تم احتجاز (١٠٠) رهينة من أفراد منظمة (جدناع) شبه العسكرية، داخل مبنى في مستوطنة معالوت (ترشيحا)، انتهت، كسابقتها، باقتحام الجيش الإسرائيلي المبنى، وقتل الفدائيين، مقابل ٢٣ قتيلاً، وسبعين جريحاً إسرائيلياً [٣١]. وأعلنت الجبهة الديمقراطية مسئوليتها عن الهجوم.

- توالت العمليات الخاصة الاستشهادية، فبعد مرور شهر على العملية السابقة استشهد ثلاثة فدائيين، وقتل ثلاثة إسرائيليين، وأصيب ثلاثة آخرون بجراح في هجوم فدائي على مستعمرة شامير، الإسرائيلية، على مسافة ١٠ كم من الحدود اللبنانية [٣٢].

- في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٧٤ قامت قوة فدائية فلسطينية بهجوم فدائي استشهادي، على مدينة "نهاريا" الإسرائيلية، مستخدمة الطائرات الهيلكوبتر، والمدفعية الثقيلة، دون معرفة النتائج [٣٣]. واعترفت "الجبهة الديمقراطية" بمسئوليتها عن هذا الهجوم.

ظلت العمليات الخاصة في تألق، وصولاً لعملية "كمال عدوان" [٣٤]، تلك التي وقعت في ١١ / ٣ / ١٩٧٨، في المنطقة الساحلية بين حيفا وتل أبيب، والتي كانت من أفضل العمليات الفدائية التي قامت بها الفصائل الثورية الفلسطينية، في الأراضي المحتلة، وكانت مكونة من (مجموعة ديرياسين) الفتحاوية، من ثلاثة عشر فدائياً، منهم فدائية واحدة، هي دلال المغربي، التي تولت قيادة العملية، وقد كانت العملية براً وبحراً، وأسفرت عن نتائج مذهلة، بإلحاقها خسائر فادحة بالعدو، وذلك بتدمير وإصابة، ست سيارات تاكسي، وعربة جيب، ومقتل ٤٢ إسرائيلياً وجرح ٨٥ آخرين، مقابل تسعة فدائيين،

استشهد اثنان في بداية العملية، أثناء الاستعداد للخروج من السفينة (أم)، وأُسر اثنان آخران.

بذلك كانت عملية استشهادية رائعة في صورتها الجماعية، من روائع الكفاح الوطني الفلسطيني، فقد أحرق الفدائيون الزوارق، حين رسوا على شاطئ النجاة، ليكون النصر أو الاستشهاد حليفهم.

- في ٢٥ / ١١ / ١٩٨٧ نجد عملية نادرة في سيرة النضال الوطني الفلسطيني، عملية "النسر الطائر"، "شهداء قبية" [٣٥]. نفذها ابن حلب السوري، محمد خالد أكر، حيث دخل شمال فلسطين المحتلة في منطقة الخالصة، مع مجموعة من الفدائيين، مستخدمين طائرتين شراعيتين، لاقتحام معسكر الخالصة، والاشتباك مع عناصره، وجهاً لوجه، ليثبت لإسرائيل والعالم بأن الحرب لم تنته، بعد، مع الصهاينة، حتى استرداد فلسطين. وبمناسبة مرور أربعين عاماً على صدور قرار التقسيم (٢٩ / ١١ / ١٩٤٧) [٣٦]. استشهد النسر الطائر، خالد أكر، داخل المعسكر، ووجد فدائي آخر (تونسي) في غرب نبع الوزاني في الجنوب اللبناني المحتل مستشهداً.

لقد اقتحم الشهيد أكر على الجنود الصهاينة معسكرهم، فادياً فلسطين المحتلة بنفسه.

توالت العمليات الاستشهادية رداً واستنكاراً ولا سيما أواخر الثمانينات، غداة اندلاع الانتفاضة الكبرى في أواخر عام ١٩٨٧، وارتفع معدل العمليات الاستشهادية، المنظمة وغير المنظمة، فنجد الشاب عبد الهادي غنيم، من مخيم النصيرات في قطاع غزة، الذي استطاع السيطرة على قيادة أتوبيس، كان متجهاً من القدس إلى تل أبيب، وقام بالانحراف به، والتوجه إلى جرف صخري، ثم هوى به، مما أدى لقتل ما يقارب ٢٠ إسرائيلياً، وإصابة العشرات، وكان الفدائي ضمن الناجين (٦ / ٦ / ١٩٨٩) [٣٧].

توالت العمليات وصولاً لعملية المجاهد شفيق الجملة، من "حماس"، في ٢٩ / ١٠ / ١٩٩١، حيث قتل مستوطناً، واستشهد المجاهد [٣٨].

محاولة قلب الحافلة ٤٠٥ :

بدأ ابن "حماس"، المجاهد أحمد حسين شكري (٢٦ عاماً) عملياته باستدراج أحد جنود العدو إلى مكان منعزل في تل أبيب، حيث ضربه على رأسه، عدة ضربات، بشوكة إزميل فقتله، وألقاه في بئر، وسكب على جثته عدة أكياس من الأسمنت وكان ذلك يوم ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩، وفي اليوم التالي ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩ توجه المجاهد إلى محطة الحافلات المركزية في تل ابيب وصعد الحافلة ٤٠٥، وعلى طريق تل ابيب - القدس استل المجاهد شكري سكيناً، وهاجم سائق الحافلة، وطعنه عدة طعنات في البطن والذراع ثم حاول دفع الحافلة إلى المنحدر، غير أن الركاب تمكنوا من السيطرة عليه، قبل سقوط الحافلة.

قاد المجاهد راتب زيدان إحدى سيارات النقل الصهيونية (ميني باص) نحو تل ابيب في ١١ تشرين/ أول أكتوبر ١٩٩١، وما إن اقترب من محطة انتظار الحافلات على مثلث تل هاشومير، حتى اتجه بسرعة فائقة نحو مجموعة كبيرة من جنود الاحتلال الإسرائيلي، كانوا يقفون على المحطة في انتظار حافلات النقل العام الإسرائيلية، فقتل اثنين منهم، وأصاب أحد عشر آخرين بجروح مختلفة.

في الوقت الذي كان فيه أبطالنا المبعدون في مرج الزهور يتقدمون في مسيرتهم (مسيرة الأكفان) إلى معبر زمريا، احتجاجاً على استمرار تجاهل مطالبهم بالعودة الفورية إلى مدنهم، وقراهم، ومخيماتهم، قام المجاهد ساهر التمام بشن هجوم بطولي استشهادي، بسيارة ملغومة، على مقهى يرتاده الجنود اليهود في مستوطنة ميجولا، القريبة من مدينة بيسان، مخترقاً الطوق الأمني والعسكري الذي ضربه العدو حول الضفة الغربية، حيث انفجرت السيارة وسط حافلتين عسكريتين كانتا متوقفتين أمام المقهى، بعد ظهر يوم الجمعة المبارك، ١٦ نيسان/ إبريل ١٩٩٣، مما أدى إلى مقتل وجرح عدد كبير من جنود الاحتلال، واحتراق الحافلتين، وقد استشهد منفذ العملية.

منذ اللحظة الأولى لإعلان جيش العدو نبأ إعدام مجاهدي القسام الستة، على الحدود المصرية، أعد مجاهدو القسام للانتقام لدماء الشهداء، حيث قاموا بزرع كمية كبيرة من المتفجرات في مبنى مركزي مكون من خمسة عشر طابقا، يقع في وسط تل أبيب. وفي الوقت المحدد، في السادس عشر من أيار/ مايو

١٩٩٣ هز انفجار ضخم المبنى، ليدمر جزءاً كبيراً منه، ويسقط العشرات بين قتيل وجريح، وقد زعم العدو أن الانفجار لم يسفر عن سقوط سوى قتيل واحد، وأربعين جريحاً، مدعياً بأن انفجار اسطوانات الغاز كان السبب في هذا الانفجار، في محاولة تعتيم مكشوفة.

بعد أوسلو

بمجرد الإعلان عن التوصل إلى "اتفاق أوسلو" تولد جيل جديد من العمليات الفدائية الاستشهادية، فاقتحم المجاهد بهاء النجار من حماس في عملية استشهادية، مركز شرطة العدو في حي الرمال بغزة، في الساعة الواحدة ظهر يوم الثلاثاء، ٤ / ٩ / ١٩٩٣، وقد تمكن الشهيد من اجتياز البوابة الخارجية للمبنى قبل أن يطلق أحد جنود الاحتلال عليه النار مما أدى إلى استشهاده على الفور وانفجار قنابل كانت بحوزته يخفيها تحت ملابسه، وادعت مصادر الاحتلال الأمنية أنه لم تقع أية إصابات في صفوف الجنود الذين كانوا موجودين داخل المبنى.

ظهر يوم الأحد ١٢ / ٩ / ١٩٩٣، قام المجاهد أيمن عطا الله، من "كتائب القسام" بقيادة سيارة مفخخة، واختراق الشارع الرئيسي في مستوطنة نتساريم، جنوبي مدينة غزة، وما أن خرجت السيارة باتجاه منطقة الشيخ عجلين، حتى تقابلت مع سيارة تابعة لمصلحة السجون الصهيونية. وما هي إلا لحظات، حتى قرر المجاهد الاصطدام بسيارة العدو، حيث انفجرت السيارتان، مما أحدث دوياً هائلاً اضطرت معه سلطات الاحتلال إلى الاعتراف بالعملية، وإن زعمت بأن ضابطاً ومجندة صهيونية، فقط، أصيبا بجروح، في حين ارتقى المجاهد إلى العلا، شهيداً.

رداً على الهجمة البربرية الشرسة، التي شنتها قوات العدو ضد أهلنا الآمنين في مخيمات قطاع العزة والكرامة، ووفاء لأرواح الشهداء الأبطال من "كتائب الشهيد عز الدين القسام"، قام المجاهد سليمان زيدان، في الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٤ / ١٠ / ١٩٩٣، بقيادة سيارة مفخخة على الطريق بين القدس والمستوطنات اليهودية في شمال الضفة الغربية، وعند وصوله إلى مستوطنة "بيت إيل"، وقرب القيادة الخاصة للجيش الإسرائيلي في الضفة

الغربية، صدم المجاهد سيارته بحافلة عسكرية، تقل العشرات من جنود الاحتلال، لتنفجر السيارة مع الحافلة، محدثة دوياً هائلاً، وقد اعترف العدو بالعملية، غير أنه زعم بأن الانفجار لم يسفر سوى عن سقوط ثلاثين جريحاً، في محاولة للتقليل من شأن العملية البطولية، التي أودت بحياة العديد من جنود العدو، وقد استشهد منفذ العملية.

عملية العفولة:

تعد العملية الأولى في سلسلة عمليات ثأر بطولية، رداً على مذبحة المسجد الإبراهيمي. ففي يوم ٦ / ٤ / ١٩٩٤ قام المجاهد البطل الشهيد رائد عبد الله زكارنة، أحد أعضاء "كتائب الشهيد عز الدين القسام"، بقيادة سيارة مفخخة، تحمل لوحة تسجيل إسرائيلية، وتوقف في محطة باصات العفولة، وفجّرها في نحو الساعة (١٢:٢٥ بتوقيت فلسطين)، مما أوقع في صفوف الصهاينة تسعة قتلى، وأصيب أكثر من ٥٠ آخرين، بجروح، وإعاقات، وحروق بليغة، وقد جاء في بيان للكتائب أن السيارة التي فجّرها الاستشهادي البطل كانت تحمل ٥٧ كغم من المتفجرات. وأنذر البيان المستوطنين بالجلاء، ومغادرة مستوطناتهم، وقال إنه "حتى لا يتهمنا أحد بأننا معنيون بقتل المدنيين الإسرائيليين، فإننا نطالب المستوطنين بالجلاء السريع عن الضفة والقطاع".

عملية الخضيرة:

في غمرة احتفالات الكيان الصهيوني بذكرى جنوده، الذين قتلوا في الحروب العربية - الإسرائيلية، وبعد أسبوع واحد من عملية الرد الأولى، ضربت "كتائب القسام" ضربتها الثانية، بتاريخ ٣٠ / ٤ / ١٩٩٤، في بلدة الخضيرة، الواقعة شمال غرب مدينة طولكرم، ففي نحو الساعة الثامنة وخمسين دقيقة بتوقيت فلسطين، فجّر المجاهد عمار عمارنة شحنة ناسفة داخل حافلة للعدو تابعة لشركة "إيجد"، تعمل على خط رقم (٨٠)، وقد أسفرت العملية البطولية عن مقتل خمسة صهاينة، وإصابة نحو ٣٢ آخرين، حسب الإحصاءات الرسمية للعدو، بينهم عدد من جنود الاحتلال الصهاينة.

عملية شارع ديزنكوف:

في واحدة من أكثر العمليات الاستشهادية قوة، وتأثيراً، ونجاحاً، قام الشهيد صالح عبد الرحيم صوي بعملية تفجير بطولية في باص في شارع ديزنكوف، في قلب مدينة تل أبيب الإسرائيلية، صباح ١٠ / ١٠ / ١٩٩٤، مما أدى إلى مقتل ٢٣ صهيونياً، وإصابة ما يزيد عن ٤٧ آخرين. وقد هزّ الانفجار الضخم، والذي حول الحافلة إلى كومة من الحطام وأسفر عن خسائر مادية كبيرة في واجهات المحال، والمنازل المجاورة لمكان الانفجار، إضافة إلى إحداث حالة من الإرباك وسط أركان أجهزة العدو الأمنية، وضجة واسعة في أوساط حكومة رابين العمالية، الذي قطع زيارته لبريطانيا، فور سماعه الخبر، فيما قطع وزير الشرطة الصهيوني، هو الآخر، زيارة كان يقوم بها للولايات المتحدة. وقد سعى رابين، فور عودته، إلى عقد اجتماع طارئ لقادة الأجهزة الأمنية الصهيونية، لبحث الإجراءات الواجب اتخاذها، للرد على الهجوم، والحد من نشاط "حماس" في الضفة الغربية والقطاع. وقد جاءت العملية رداً على استشهاد خاطفي الجندي الصهيوني، نحشون فاكسمان.

في السادسة من صباح ٢٥ / ١٢ / ١٩٩٤، تمكنت "كتائب الشهيد عز الدين القسام" من تحقيق إنجاز جديد، على الصعيدين الأمني والاستخباري، فقد تمكنت مجموعات الإسناد العاملة في منطقة القدس المحتلة من نقل المجاهد الشهيد أيمن كامل جمعة راضي عبر كافة الحواجز العسكرية، التي أقامها العدو، ليحول دون قيام المجاهدين بتنفيذ واجباتهم الاستشهادية، واستطاعوا تأمين وصوله من قطاع غزة إلى محطة باص عسكرية، تقع بالقرب من مباني الأمة في القدس الغربية المحتلة، وكان الهدف من الهجوم تفجير باص صهيوني، يقل ضباطاً وجنوداً يخدمون في سلاح الجو، باستخدام عبوة ناسفة شديدة الانفجار، تحوي ١٠ كغم من مادة تي. ان. تي.، لكن خللاً ما حال دون دخول الشهيد للباص، فقام بتفجير العبوة بجانب الباص مما أدى إلى إصابة العديد من ركابه، واعترف جيش الاحتلال بإصابة ١٣ طياراً، اثنين منهم في حالة الخطر.

في ٩ / ٤ / ١٩٩٥ نفذ الشهيد البطل خالد محمد الخطيب، وهو مجاهد من "الجهاد الإسلامي" العملية الأولى، عندما اصطدم بسيارته المفخخة بمتفجرات، قدر وزنها ٧٠ كغم، بحافلة للجنود الصهاينة، على مقربة من

مستوطنة كفار داروم، في قطاع غزة، وقد أسفر الانفجار الضخم عن مقتل تسعة جنود، وجرح حوالي ٤٣ صهيونياً آخر. أما العملية الثانية فقد نفذها الشهيد عماد أبو أمونة المجاهد في "كتائب القسام"، والذي قاد سيارة ثانية، ليفجرها بين مجموعة من السيارات العسكرية الصهيونية، كانت تسير باتجاه مفترق نتساريم، مما أدى إلى مقتل أحد الجنود الصهاينة، وإصابة عشرة آخرين، وفق ما اعترف به الناطق الرسمي الإسرائيلي. وجاء تنفيذ الهجومين، عقب تفجير الاستخبارات الصهيونية منزلاً في حي الشيخ رضوان، لاغتيال كمال كحيل، أحد قادة القسام، وقد أدى تفجير المنزل إلى استشهاد أربعة مواطنين، بينهم كحيل، وطفل من سكان المنزل.

عملية رامات جان:

"لن يستطيع أحد إيقاف أي انتحاري حين يتوجه لتنفيذ عمليته "هذا ما عبر عنه مفتش عام الشرطة الإسرائيلية آساف حيفتس، بعد العملية الاستشهادية في مستعمرة رامات جان، بمدينة تل أبيب، في ٢٤ / ٧ / ١٩٩٥. فقد نجحت إحدى الخلايا، التابعة لكتائب الشهيد عز الدين القسام، من اختراق خطوط الأمن الصهيوني، وتجاوز عمليات التفتيش، والفحص الدقيق على الحواجز ودوريات الشرطة الراجلة، والمحمولة. حيث توج هذا الاختراق بصعود المجاهد البطل لبيب قاسم الحافلة رقم (٢٠)، التابعة لشركة "دان" الصهيونية، وتفجير عبوته الناسفة، التي يحملها. مما أدى إلى تحطيم الحافلة، بشكل كامل، ومقتل ٦ صهاينة، وجرح العشرات بجروح وحروق متفاوتة.

عملية رامات أشكول:

جاءت هذه العملية في الذكرى السادسة والعشرين لإحراق المسجد الأقصى، حيث تمكن المجاهد البطل سفيان جبارين من النفاذ إلى مدينة القدس المحتلة، وفي حي رامات أشكول، تحديداً، في يوم ١٢ / ٨ / ١٩٩٥، وصعود الحافلة رقم (٢٦ أ)، وتفجير عبوته الناسفة بالحافلة ذاتها لحافلة أخرى، مما أدى إلى مقتل ٩ صهاينة، بينهم رائد في الشرطة الإسرائيلية، وإصابة أكثر من ١٠٧، معظمهم من جنود الاحتلال.

عملية الحافلة ١٨ الأولى:

بعد خمسين يوماً من عملية الاغتيال الجبانة بحق القائد البطل، يحيي عياش، قائد مجموعات الاستشهاديين في "كتائب عز الدين القسام" تمكن المجاهد البطل مجدي محمد أبو وردة، في يوم ٢٥ / ٢ / ١٩٩٦، من صعود الحافلة، التي تعمل على خط رقم ١٨، المؤدي إلى مقر القيادة العامة لكل من الشرطة الإسرائيلية وجهاز المخابرات العامة (الشاباك)، وكان المجاهد يرتدي ملابس الجنود الإسرائيليين، ويحمل نحو ١٥ كغم من المتفجرات الممزوجة بكمية كبيرة من المسامير والقطع المعدنية الحادة، وفي نحو الساعة السادسة و٤٨ دقيقة فجّر الشهيد أبو وردة المتفجرات، أثناء توقف الحافلة عند إشارة مرورية، مما أدى إلى تدمير الحافلة، المكونة من مقطورتين بالكامل، وانشطارها إلى نصفين، احترق جزء منها، كلياً. كما تحطمت عدة سيارات كانت تقف بالقرب من الحافلة، وتضررت حافلة أخرى تعمل على خط رقم ٣٦ كانت تقف وراء الحافلة، التي استهدفتها العملية البطولية.

اسفرت العملية عن مقتل ٢٤ صهيونياً، بينهم ١٣ جندياً، وعدد من ضباط وكوادر الشاباك، الذين كانوا في طريقهم إلى مقر عملهم، بالإضافة إلى إصابة أكثر من ٥٠ إسرائيلياً، بجروح وحروق مختلفة، حسب الإحصاءات الإسرائيلية.

عملية عسقلان:

بعد أقل من ٤٥ دقيقة من ملحمة أبو وردة، وفيما كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف، أوصلت مجموعات الإسناد في "كتائب الشهيد عز الدين القسام" البطل إبراهيم حسن السراحنة، الذي كان يرتدي، أيضاً، زي الجنود الإسرائيليين، ويحمل حقيبة احتوت على خمسة عشر كيلو غراماً من المتفجرات، المحشوة بالمسامير، والكرات المعدنية، إلى محطة سفر الجنود الصهاينة، عند مفترق الطرق في مدينة عسقلان، حيث تقدم المجاهد القسامي، ودخل إلى المحطة، التي كان يتواجد فيها أكثر من ٣٥ جندياً ومجندة. وقد فجّر البطل نفسه، وسط مجموعة الجنود، مما أدى إلى مقتل ٣ جنود صهاينة، وإصابة ثلاثين صهيونياً بجروح، وصفت جراح ١٩ منهم بأنها خطيرة.

عملية الحافلة ١٨ الثانية:

"إننا نغرق في الرعب "، بهذه العبارة استقبل الشارع الإسرائيلي العملية الثانية، التي نفذها البطل الرائد عبد الكريم الشغنوبي، في الحافلة العاملة على خط ١٨، للمرة الثانية، خلال أسبوع واحد.

ففي يوم الأحد ٣ / ٣ / ١٩٩٦، فجّر المجاهد عبوته الناسفة، داخل الحافلة، بعد تجاوز إجراءات الأمن والمراقبة الشديدة، التي فرضت من قبل الشرطة وحرس الحدود، بعد عمليتي البطلين، السراحنة وأبو وردة، ودمّر الانفجار الحافلة، وتطاير حطامها، في دائرة قطرها خمسين متراً تقريباً، وأعلن المتحدث الرسمي باسم الشرطة العسكرية عن مقتل ١٩ صهيونياً، بينهم ٣ جنود، وجرح ١٠ آخرين، كانت جروح ٧ منهم بالغة الخطورة.

عملية مقهى آفورفو:

شاب غريب الأطوار، "لا يحمل ملامح شرقية، دخل إلى المقهى، وهو يحمل حقيبة سوداء كبيرة، ويضع عليها معطفاً أصفر اللون، جلس في وسط المقهى، ولم تمض ثلاثة دقائق حتى فجّر نفسه"، هكذا وصفت مستوطنة صهيونية اللحظات الأخيرة التي سبقت العملية الاستشهادية التي نفذها الشهيد البطل موسى غنيمات، عندما دخل مقهى "آفروفر"، الواقع في شارع بن جوريون وسط تل أبيب، وذلك يوم الجمعة، ١٢ / ٣ / ١٩٩٧. وقد اعترف الصهاينة، عقب العملية، بمقتل ٣ صهاينة، وجرح ٤٦ آخرين، جراح ٦ منهم بالغة.

عملية محنى يهودا:

قبل ساعات قليلة من موعد وصول المبعوث الأمريكي، دنيس روس إلى فلسطين المحتلة، بغرض فرض الرؤية الإسرائيلية للقضايا المصيرية والهامة، كمستقبل القدس، والاستيطان، واللاجئين، وحق العودة، وفيما كان بنيامين نتنياهو يعلن، متبجحاً، بأن حكومته "استطاعت أن تضع حداً، وللأبد، لعمليات حماس"، قام اثنان من المجاهدين في "وحدة الشهداء لتحرير الأسرى والمعتقلين"، التابعة لكتائب عز الدين القسام، بتفجير العبوات الناسفة التي كانا يحملانها، بفارق زمني "أقل من دقيقة واحدة"، داخل السوق التجاري "محنى يهودا"، الذي يعد أكبر مجمع تجاري في الجزء الغربي المحتل من مدينة القدس، منذ عام ١٩٤٨، وأهم معقل لحركة "كاخ" الإرهابية المتطرفة، يوم

٣٠ / ٧ / ١٩٩٧. وقد أسفر الانفجار عن تدمير السوق التجاري، ومقتل ١٧ إسرائيلياً، وإصابة نحو مائة وخمسين آخرين بجروح وحروق مختلفة.

عملية بن يهودا:

"ما حدث في سوق محنى يهودا لم يكن سوى أول الغيث"، كما قال بيان "الكتائب"، الذي تضمن قضية ومطالب عادلة، مست جمهور الشعب، في فلسطين المحتلة وخارجها، إذ تضمن إنذاراً، حتى الساعة التاسعة من مساء يوم الأحد، الموافق ٣ / ٨ / ١٩٩٧، للإفراج عن عدد من المجاهدين المعتقلين من مختلف الفصائل والاتجاهات. ولأن حكومة نتنياهو استمرت في غطرستها، متجاهلة الإنذار، فقد عادت "وحدة الشهداء لتحرير الأسرى والمعتقلين" لتضرب، من جديد، وفي قلب القدس، أيضاً، حيث استهدفت العملية، هذه المرة، شارع بن يهودا التجاري الكبير، في ٤ / ٩ / ١٩٩٧، ودوّت ثلاث انفجارات متتالية، عند حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد أن فجّر ثلاثة من الأبطال العبوات التي كانوا يحملونها، مما أدى إلى مقتل وجرح نحو مئتي إسرائيلي، ووصلت حالة الذعر، التي افترست الإسرائيليين. نتيجة لهذه العملية، نتنياهو نفسه، فوقف أمام عدسات التلفاز، معترفاً بفشله في الوفاء بوعوده التي قطعها عشية الانتخابات الأخيرة، قائلاً: "يجب أن لا نضلل أنفسنا فحرب استقلالنا لم تنته، بعد، وأن علينا التحلي بالصبر، لكي نبقى، بالرغم من كل ذلك على هذه البقعة من الأرض". ويشارك عوزي لنداو، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، زعيمه الهواجس، حيث نقلت وسائل الإعلام الإسرائيلية عنه: "إن ما حدث يظهر، بشكل كبير، بوادر خطر داهم، يهدد الحلم الصهيوني. إن الظاهرة الأصولية أمر يجب أن يشكل دافعاً لنا ولجميع حلفائنا، للبحث بشكل جذري في مواجهته".

ولا يسعنا إلا أن نفخر بكل مسيرة الجهاد والنضال الوطني الفلسطيني، على مر تاريخه الطويل، متغنين بأبيات الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي   وأُلقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق   وإما ممات يكيد العدا

إنه الشاعر الفلسطيني الذي استشهد أثناء نقله للمستشفى، متأثراً بجراحه، عندما سقطت السيارة التي أسعفته من فوق مرتفع، لتسقط هاوية، ومعها شاعرنا البطل، حيث لقي حتفه شهيداً، فكانت شهادته بهذه الصورة شديدة الكيد على الأعداء.

هوامش الفصل الثالث

(١) عبد القادر ياسين، **شبهات حول الثورة الفلسطينية**، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٧، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٥، ص ١١٣ - ١١٤.

(٤) **مذكرات المناضل بهجت أبو غريبة ١٩١٦ - ١٩٤٨، في خضم النضال العربي الفلسطيني**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، كانون الثاني، يناير ١٩٩٣، ص ٤٦.

(٥) صالح مسعود أبو بصير، **جهاد شعب فلسطين خلال ربع قرن**، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٨، ص ٢٠ - ١٢٥.

(٦) أبو غريبة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٣.

(٧) صبحي محمد ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأمين والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٨٢ - ٩٠.

(٨) أبو بصير، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤١.

(٩) أبو غريبة،، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠ - ١٠١.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٢٥.

(١١) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(١٢) لواء أ. ح. إبراهيم شكيب، **حرب فلسطين ١٩٤٨ الرؤية المصرية**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، ص ٦٩.

(١٣) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٤ - ١٤٨.

(١٤) **حرب فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٤٨ - الرواية الإسرائيلية الرسمية**، ترجمة أحمد

خليفة، سلسلة الدراسات رقم (٦٥)، بيروت، **معهد الدراسات الفلسطينية**، ط١، ١٩٨٤، ص ٢٧٢ - ٢٧٧.

(١٥) عارف العارف، **النكبة في صور**، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، كانون الثاني/ يناير ١٩٦١، ص ٤٣٢.

(١٦) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٦ - ١٦٧.

(١٧) لمزيد من التفاصيل راجع: **مذكرات محمد دروزة، سجل حافل بمسيرة الحركة العربية القضية الفلسطينية خلال قرن من الزمان**، المجلد الثالث، بيروت، دار العربي الإسلامي، ١٩٩٣، ص ٢١٦ - ٢٢٠.

(١٨) صبحي سعيد طوقان، **الموسوعة الفلسطينية**، القاهرة، دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩، ص ٦٣.

(١٩) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٧.

(٢٠) أنظر: المقدم/ محمد الشاعر، **الحرب الفدائية في فلسطين على ضوء تجارب الشعوب في قتال العصابات**، بيروت، م. ت. ف. ، مركز الأبحاث، ١٩٦٧، ص ١٩٦.

(٢١) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٧، ١٨٩. وانظر: يونس الكتري، **حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني، الكتيبة (١٤١) فدائيون**، القاهرة، المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، م. ت. ف.، دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٨٧، ص ٤٦ - ٩٣.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٧٩، ٨٠.

(٢٤) صبحي ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٩٤، ٢٠٤.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢٧) العماد مصطفى طلاس، **الثورة الفلسطينية المسلحة ١٩٦٥ - ١٩٨٧**، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٩، ص ١٠٠ - ١١١.

لمزيد من التفاصيل حول الأعمال العسكرية عام ١٩٦٨، أنظر: فتح، **الكتاب السنوي ١٩٦٨**، بيروت، توزيع دار الطليعة، د.ت.، ص ١٨٢ ، ٣٦٨.

(٢٨) **الثورة الفلسطينية**، (دمشق)، عدد خاص عن معركة الكرامة، العدد الرابع، نيسان/ أبريل ١٩٦٨، ص ١٠٢، ١٠٩.

(٢٩) بلال الحسن: **شؤون فلسطينية**، (بيروت) العدد (٤) أيلول/ سبتمبر ١٩٧١، ص ١٦٧.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣١) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٩٠، (أنظر يزيد صايغ، التجربة العسكرية الفلسطينية المعاصرة، ص ٤٣٩).

(٣٢) **السياسة الدولية** (القاهرة)، العدد ٣٨، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٤، ص ٩٥٨.

(٣٣) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٣٤) **الموسوعة الفلسطينية**، (أنظر: يزيد صايغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣٦).

(٣٥) **المصدر نفسه**، ٤٣٦.

(٣٦) طلاس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٩ - ٢١٦.

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ١٧٩ - ٢١٦.

(٣٨) غسان، روعر الجريان، **حرب الأيام السبعة**، لندن، منشورات فلسطين المسلمة، ط١، ١٩٩٣، ص ١٣.

الفصل الرابع

العمليات الاستشهادية في انتفاضة الأقصى والاستقلال

راندا أبو الذهب

إذا انحنيتُ انحنى تل

وضاعت سماء ..

ولا أعود جديراً بقبلة أو دعاء

محمود درويش

"حينما يبذل الإنسان نفسه

من أجل وطنه، لا نسمي ذلك انتحاراً".

البابا شنودة الثالث

فضائية أبو ظبي ٧,٣٠ مساءً بتوقيت جرينتش، الثلاثاء ٢٧ / ٨ / ٢٠٠٢

ركزت الصفحات التالية على السير الذاتية للاستشهاديين، وتفاصيل كل عملية استشهادية، بالذات، بهدف محاولة الإجابة عن بعض الأسئلة، منها: من الاستشهادي؟ هل هو من يفجّر نفسه فحسب؟ أم من ينازل العدو وجهاً لوجه،

حتى يلقى ربه شهيداً؟ هل ثمة شروط يجب توافرها في الاستشهادي؟ هل العمليات الاستشهادية حكر على الفصائل والحركات الإسلامية فحسب؟ كيف يتم الإعداد للعملية؟ وهل هناك توقيت مناسب لها؟

في الماضي كان الاستشهادي من ينزل إلى الأحراش، أو الصحاري، بسلاحه، فيقاتل عدوه، وجهاً لوجه، حتى يلقى ربه شهيداً، والآن، النموذج نفسه، لكن مع اختلاف الأدوات، فأصبح هناك الحزام الناسف، والعبّوة الناسفة، والسيارة المفخخة، والبندقية، هناك من يفجّر نفسه، أو يشتبك بالسلاح الناري مع العدو، حتى يستشهد. أي رغم اختلاف صور الاستشهاد، فإن الاستشهادي هو من عقد العزم على الشهادة، منذ زمن، وأعد نفسه لذلك. وإن ركزت هذه الدراسة على عمليات تفجير الذات.

فيما أهم الشروط الواجب توافرها عند اختيار الاستشهادي، حسن الخلق، والسمعة، والنزاهة، واستعداده الكبير للتضحية، كما تميل بعض المنظمات الفلسطينية إلى شرط الالتزام الديني، وعلى ألا يكون الاستشهادي رباً لأسرة، وله إخوة آخرون، وحاصل على قدر من التعليم، وفي الغالب غير متزوج. ففي تقرير نشرته يومية "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية، في ٢٠/ ٥ /٢٠٠١، اهتم بتصنيف الاستشهاديين، منذ توقيع "اتفاق أوسلو"، في ١٣ / ٩ / ١٩٩٣، وحتى تاريخ نشر التقرير، تبين فيه أن ١٧٪ منهم متزوجون، و٨٣٪ غير متزوجين، و٦٤٪ ما بين سن ١٨ و٢٣ سنة، و٣٦٪ بين ٢٤ - ٣٠ عاماً. وبالنسبة للتعليم فإن ٤٧٪ منهم من ذوي التعليم الجامعي والأكاديمي، و٢٩٪ من ذوي التعليم الثانوي، و٢٤٪ أنهوا التعليم الابتدائي (١).

وفي "دراسة نفسية لشخصية الاستشهادي، من خلال العائلة"، اشترك في إعدادها كل من الدكتور الأمريكي، رونالد فيلد، والدكتور سلمان البدور، من جامعة بن جوريون، ومدير مركز التدريب المجتمعي وإدارة الأزمات، في غزة، الدكتور فضل أبوهين، استخلص الأخير "أن الاستشهاديين الفلسطينيين هم الأكثر التزاماً بالمبادئ، والمثل، والقيم، فمنهم من استشهد نتيجة لقيمة دينية، أو وطنية" .. وحينما ترتفع القيمة التي يدافع عنها الإنسان، ويتبناها، يُضحي من أجلها" (٢).

منذ اندلاع "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، في ٢٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، نفذت أكثر من ١٢٠ عملية في عمق الكيان الصهيوني، منها ٣٩ حالة قام الاستشهادي فيها بتفجير نفسه، بالإضافة إلى ٨ آلاف هجوم مسلح في الضفة والقطاع. وشهد عام ٢٠٠٢، ٢٧ عملية، ما بين اشتباك مسلح، وتفجير. كما لم تعد العمليات الاستشهادية حكراً على الحركات الإسلامية، فقد دخلت المجال نفسه تيارات علمانية وماركسية، مثل "كتائب شهداء الأقصى"، الذراع المسلحة لحركة "فتح"، فضلاً عن "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، التي بدأته في ١٠/١٧/ ٢٠٠١، عندما قام خضر أبو سرية (٢٥ عاماً) في غزة بتفجير نفسه، قرب سيارة جيب عسكرية إسرائيلية، عند حاجز "ناحال عوز" شرق المدينة، ما أدى إلى إصابة جنديين إسرائيليين بجروح، بالإضافة إلى صادق عبد الحافظ، الذي تمكن من التسلل إلى مستوطنة كارني شمرون بالضفة، وفجّر نفسه في أحد محالها، وقتل اثنين، وجرح ثلاثين صهيونياً، يوم ٢٦ / ٢ / ٢٠٠٢.

أما الإعداد للعملية الاستشهادية، فيتركز على شقين، الأول معنوي، والثاني مادي، الأول يتم فيه تأهيل الاستشهادي نفسياً لتقبل فكرة تناثر أشلائه، بعد تفجير نفسه، فلا يكفي أن يكون لديك روح وطنية صادقة، وشخصية لا تهاب الموت، حيث لابد أن يتمتع الشخص بروح إيمان وقناعة برغبته للذهاب إلى جوار ربه، وقدر على تحمل التدريب الشاق، الذي يسبق عمليته الاستشهادية، على طرق استخدام المتفجرات، والحزام الناسف، ثم التعامل مع المحققين الإسرائيليين، إذا ما فشلت العملية [٣].

فيما يتضمن الإعداد المادي، رصد الهدف، من خلال مجموعات رصد أو استخبارات عسكرية، مهمتها ملاحقة الدوريات الصهيونية، والمستوطنين، وتحركات قوات الاحتلال على الحدود، وبالتالي انتهاز أي ثغرة أمنية، والانقضاض على الهدف، بعد تصويره عبر كاميرات فيديو، وعرضه على لجنة تقوم بإقرار تفجير الهدف، ثم إقرار تدريب الاستشهادي، بعد معاينته للهدف، قبل وضع الخطة الملائمة من خلال مجموعة من الخبراء، ولا يقيّم نجاح العملية أو فشلها بعدد القتلى، بل بإمكانية الوصول إلى الهدف، وآلية التنفيذ، والتخطيط الجيد [٤].

تتفاوت تكاليف العملية، حسب نوعها، فإذا كانت اشتباكاً مسلحاً، فإن تكلفتها لا تتعدى ثمن السلاح والذخيرة، فضلاً عن عدد من القنابل اليدوية. فيما أنواع أخرى من العمليات تكاليفها أكبر، تتضمن توصيل الاستشهادي إلى الموقع المستهدف، ودفع أموال من أجل شراء ذمم الصهاينة، والسيارات، وتخطي أدق وأصعب الحواجز العسكرية، بكامل المعدات القتالية، حتى أن العملية تتكلف ما يترواح بين ٣٥٠٠ دولار و٥٠ ألف دولار، حسب الهدف.

لهيئة الاستشهادي، وملامحه الشخصية، دور مهم في تحديد نوعية العملية، أي أن العملية يتم اختيارها لصاحب هذه الملامح دون غيره، ومدى تكيف الشكل الخارجي للاستشهادي مع طبيعة الهدف، خصوصاً من خلال التنكر، على ألا يكون للاستشهادي ملامح مميزة لافتة للانتباه، فإذا كانت العملية داخل مستوطنة من الضروري تشابه هيئة الاستشهادي مع الشكل الخارجي للمستوطنين، مثلما حدث مع اسماعيل المعصوابي، (حماس) منفذ العملية الاستشهادية داخل مستوطنة نتساريم، يوم ٢٢ / ٦ / ٢٠٠١، حيث لم يشتبه به جنود المستوطنة، فاستطاع دخول المستوطنة، والاقتراب منهم، وتفجير نفسه.

في الجدول رقم (١) نستعرض بانوراما للعمليات الاستشهادية على مدى السنتين الأولين من عمر "انتفاضة الأقصى والاستقلال".

جدول رقم (١)
العمليات الاستشهادية
خلال السنتين الأولين من عمر الانتفاضة *

م	تاريخ العملية	الاستشهادي	العمر	مكان الميلاد	التنظيم	نبذة عن العملية
١	٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٠	نبيل	٢٤ عاماً	غزة	سرايا القدس	أول عملية استشهادية نفذت بالقرب من حاجز كيسوفيم قرب خان يونس، لم تسفر عن وقوع إصابات.
٢	٧/ ١١/ ٢٠٠٠	حمدي عرفات أنصيو	٢٨ عاماً	مخيم الشاطئ	كتائب القسام	عملية استشهادية بحرية، تم فيها تفجير قارب صيد بحري، في طراد صهيوني قبالة شاطئ رفح.
٣	٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٠	هاشم عبد الله النجار	٢٢ عاماً	الخليل	كتائب القسام	حيث فجّر نفسه في مطعم، داخل استراحة مستوطنة ميحولا، شمال غور الأردن، وقتل ٣، وإصابة ٩.
٤	١/١ / ٢٠٠١	حامد أبو حجلة	٢٠ عاماً	نابلس	كتائب القسام	حيث فجّر سيارة مفخخة في أحد شوارع "نتانيا" بأراضي ١٩٤٨، ما أدى إلى مقتل واحد، وإصابة ٤٢ آخرين.
٥	٤/٣ / ٢٠٠١	أحمد عمر عليان	٢٣	مخيم نور شمس - طولكرم	كتائب القسام	فجّر حزامه الناسف في أحد أسواق "نتانيا"، ومقتل ٣، وإصابة ٨٠.

٦	٢٧/٣/ ٢٠٠١	ضياء حسين الطويل	٢١ عاماً	البيرة	كتائب القسام	فجر حافلة صهيونية في حي التلة الفرنسية، وقتل صهيوني، وجرح ٣٧ آخرين.
٧	٢٨/٣/ ٢٠٠١	فادي عطا الله عامر	٢٣ عاماً	قلقيلية	كتائب القسام	فجر حزامه الناسف على الحاجز العسكري الفاصل بين قلقيلية وكفارسابا.
٨	٢ ٢ /٤/ ٢٠٠١	عماد كامل الزبيدي	١٨ عاماً	نابلس	كتائب القسام	فجر نفسه في حشد من الجنود الصهاينة في كفارسابا، وقتل واحد وأصاب ٥٠ آخرين.
٩	٢٩/ ٤ / ٢٠٠١	جمال عبد الغني ناصر	٢٣ عاماً	نابلس	كتائب القسام	فجر سيارته المفخخة في أتوبيس للجنود والمستوطنين بالقرب من نابلس، حيث قتل ١١ صهيونياً.
١٠	١٨ / ٥ / ٢٠٠١	محمود أحمد مرمش	٢٠ عاماً	طولكرم	كتائب القسام	فجر نفسه في أحد المجامع التجارية بشارع هرتزل في مدينة نتانيا، حيث قتل ستة، وأصيب أكثر من مائة.
١١	٢٥ / ٥ / ٢٠٠١	حسين حسن أبو النصر	٢٤ عاماً	مخيم جباليا	كتائب القسام	فجر سيارته المفخخة في موقع عسكري صهيوني، جنوب القطاع.
١٢	٢٥ / ٥ / ٢٠٠١	- أسامة درويش أبو الهيجا - علاء هلال صباح	٢١ عاماً ٢٢ عاماً	جنين جنين	سرايا القدس	نفذا عمليتهما في الخضيرة، داخل أراضي ١٩٤٨، ما أدى لإصابة ٦٠ صهيونياً.
١٣	٢٩ / ٥ / ٢٠٠١	- عبد المعطي العصار - اسماعيل عاشور	١٩ عاماً ١٨ عاماً	خان يونس خان يونس	كتائب القسام	فجرا نفسيهما في موقع عسكري، قرب خان يونس.

١٤	١ / ٦ / ٢٠٠١ .	سعيد الحوتري	٢٠ عاماً	قلقيلية	كتائب القسام	فجر نفسه في ملهى ليلي بتل أبيب، وقتل ٢١، وأصيب ١٢٠ آخرين.
١٥	٢٢ / ٦ / ٢٠٠١ .	إسماعيل المعصوابي	٢٧ عاماً	مخيم الشاطئ	كتائب القسام	حيث فجر جيب مفخخ، قرب مستوطنة "روجيت"، ومقتل جنديين، وجرح ثالث.
١٦	٩ / ٧ / ٢٠٠١	نافذ النذر	٢٥ عاماً	جباليا	كتائب القسام	فجر نفسه في منطقة "كيسوفيم" جنوب القطاع.
١٧	١٦ / ٧ / ٢٠٠١ .	نضال شادوف	٢٠ عاماً	جنين	سرايا القدس	قام بعملية قرب تل أبيب، ما أدى لمقتل جنديين صهيونين، وإصابة ٢١ آخرين
١٨	٨ / ٨ / ٢٠٠١	أشرف السيد	٢٣ عاماً	نابلس	كتائب القسام	فجر سيارته المفخخة في تجمع عسكري في منطقة نابلس.
١٩	٩ / ٨ / ٢٠٠١ .	عز الدين المصري	٢٣ عاماً	جنين	كتائب القسام	حيث قتل ١٨ صهيونياً، وأصاب ١٢٠ أخرين سيارو للبيتزا بشارع يافا، بالقدس الغربية.
٢٠	١٢ / ٨ / ٢٠٠١	محمد محمود نصر	٢٨ عاماً .	قباطية	سرايا القدس	أصاب ١٥ صهيونياً، بمدينة حيفا المحتلة عام ١٩٤٨، حين فجّر نفسه في مطعم بشارع بن جوريون.
٢١	٤ / ٩ / ٢٠٠١	رائد البرغوثي	٢٥ عاماً	عابود - رام الله	كتائب القسام	فجر نفسه في جنود الاحتلال بالقدس، ما أدى لإصابة ١٣، ومقتل ٥ آخرين.
٢٢	٤ / ٩ / ٢٠٠١	محمد حبيشة	٤٨ عاماً	أبو سنان	كتائب القسام	فجّر نفسه، في محطة للقطارات في "نهاريا"، وقتل ٣، وأصاب ٦٦.

٢٣	٩ / ٩ / ٢٠٠١	عبد الفتاح راشد	٣٣ عاماً	أرتاح - طولكرم	سرايا القدس	فجّر سيارة مفخخة في إحدى الحافلات، داخل أراضي ٤٨، وأصاب ١٠ صهاينة.
٢٤	١٧ / ١٠ / ٢٠٠١	خضر أبو سرية	٢٥ عاماً	غزة	الجبهة الشعبية	فجّر نفسه قرب سيارة جيب عسكرية عند حاجز "ناحل عوز".
٢٥	٨ / ١١ / ٢٠٠١	مؤيد صلاح الدين	٢٤ عاماً	باقة الشرقية	كتائب القسام	أصاب جنديين بعد تفجير نفسه في جنود الاحتلال، الذين أتوا لاغتياله.
٢٦	٢٦ / ١١ / ٢٠٠١	تيسير العجرمي	٢٥ عاماً	مخيم جباليا	كتائب القسام	فجّر نفسه على حاجز إيرز، ما أدى لإصابة جنديين صهيونيين.
٢٧	٢٧ / ١١ / ٢٠٠١	أسامة حلس	٢٢ عاماً	غزة	كتائب القسام	فجّر نفسه قرب مجموع مستوطنات "غوش قطيف".
٢٨	٢٩ / ١١ / ٢٠٠١	ساهر شواهنة	١٩ عاماً	سيلة الظهر	سرايا القدس	فجّر نفسه، في الخضيرة، وقتل ٣ صهاينة، وأصاب ٦٠ آخرين.
٢٩	١ / ١٢ / ٢٠٠١	أسامة بحر نبيل حلبية	٢٢ عاماً ٢٢ عاماً	أبوديس أبوديس	كتائب القسام	فجّرا نفسيهما، بالقدس. فقتلا عشرة من الصهاينة، وأصابا العشرات.
٣٠	٢ / ١٢ / ٢٠٠١	ماهر حبيشة	٢٣ عاماً	نابلس	كتائب القسام	قتل ١٥ صهيونياً، وأصاب ٧٠، حين انفجر في حافلة في مدينة حيفا.
٣١	١٢ / ١٢ / ٢٠٠١	علي عاشور أمجد فياض	٢٣ عاماً ٢٣ عاماً	خان يونس	كتائب القسام	عملية مزدوجة، في غوش قطيف.

٣٢	٢٥ / ١ / ٢٠٠٢	صفوت عبد الرحمن خليل	١٧ عاماً	بيت وزن نابلس	سرايا القدس	أصاب ٤٥ صهيونيا في تل أبيب.
٣٣	٢٧ / ١ / ٢٠٠٢	وفاء إدريس	٢٨ عاماً	مخيم الأمعري	شهداء الأقصى	بالقدس المحتلة حيث قتل واحد وجرح ١٧٠ آخرين.
٣٤	٣٠ / ١٠ / ٢٠٠٢	مراد أبو عسل	٢٦ عاماً	عنبتا	سرايا القدس	قتل ضابط مخابرات صهيوني، وجرح آخر، في الطيبة، داخل أراضي ١٩٤٨.
٣٥	١٦ / ٢ / ٢٠٠٢	صادق عبد الحفيظ	١٨ عاماً	قلقيلية	الجبهة الشعبية	مقتل ٢ وإصابة ٣٠ آخرين بمستوطنة كارني شمرون.
٣٦	١٧ / ٢ / ٢٠٠٢	محمد حموضة عبد الجابر خالد	١٨ عاماً ٢٢ عاماً	نابلس جيوس	شهداء الأقصى	إصابة خمسة، قرب الخضيرة.
٣٧	٢٧ / ٢ / ٢٠٠٢	دارين أبو عايشة	٢٢ عاماً	وزنه	شهداء الأقصى	أصابت ثلاثة صهاينة على حاجز قرب القدس المحتلة.
٣٨	٢ / ٣ / ٢٠٠٢	محمد الشوعاني	١٩ عاماً	مخيم الدهيشة	شهداء الأقصى	قتل تسعة وأصاب ٥٠ آخرين، في القدس المحتلة.
٣٩	٥ / ٣ / ٢٠٠٢	عبد الكريم طجاينة	٢١ عاماً	سيلة الحارثية	سرايا القدس	قتل صهيوني، وأصاب ١٠ آخرين في عملية، بمدينة العفولة.
٤٠	٩ / ٣ / ٢٠٠٢	فؤاد الحوراني	٢٢ عاماً	مخيم العروب	كتائب القسام	قتل ١١ صهيونياً، وجرح مائة بالقرب من منزل شارون.
٤١	١٧ / ٣ / ٢٠٠٢	أكرم النبتيتي	-	مخيم عايدة	سرايا القدس	بالقرب من حافلة صهيونية في حي التلة الفرنسية بالقدس، ما أدى لإصابة تسعة.

٤٢	٢٠ / ٣ / ٢٠٠٢	رأفت أبو دياك	٢٢ عاماً	جنين	سرايا القدس	استهدف إحدى الحافلات، ٠ قرب أم الفحم، وقتل ٧، وأصاب ٥٥ آخرين.
٤٣	٢١ / ٣ / ٢٠٠٢	محمد حشايكة	٢١ عاماً	طلوزة	شهداء الأقصى	مقتل ٣، وإصابة خمسين في القدس المحتلة.
٤٤	٢٧ / ٣ / ٢٠٠٢	عبد الباسط عودة	٢٥ عاماً	طولكرم	كتائب القسام	حيث قتل ٣١ صهيوني وأصاب ١٥٠ آخرين، حيث فجر نفسه، في أحد فنادق نتانيا.
٤٥	٢٩ / ٣ / ٢٠٠٢	أيات الأخرس	١٦ عاماً	مخيم الدهيشة	شهداء الأقصى	فجرت نفسها في أحد المحال التجارية بالقدس، وقتل ٢، وأصيب ١٦ آخرين.
٤٦	٣٠ / ٣ / ٢٠٠٢	مهند صلاحات	-	نابلس	شهداء الأقصى	إصابة ٣٠ صهيونياً منهم ٩ في حالة الخطر في تل أبيب.
٤٧	٣٠ / ٣ / ٢٠٠٢	مجدي خنفر	-	سيلة الظهر	شهداء الأقصى	قتل جندي صهيوني حين أوقفته دورية للتفتيش قرب باقة الغربية.
٤٨	٣١ / ٣ / ٢٠٠٢	شادي طوباسي	٢٣ عاماً	مخيم جنين	كتائب القسام	قتل ١٥ صهيونياً معظمهم جنود وإصابة ٦٥ آخرين بجروح في عملية بمطعم بمدينة حيفا.
٤٩	٣١ / ٣ / ٢٠٠٢	جميل حميد	١٨ عاماً	بيت لحم	شهداء الأقصى	أصاب سبعة مستوطنين في مستوطنة "إفرات" قرب نابلس.
٥٠	١ / ٤ / ٢٠٠٢	رامي الشوعاني	-	مخيم الدهيشة	شهداء الأقصى	إصابة ثلاثة جنود في دورية شرطة بالقدس.
٥١	٣ / ٤ / ٢٠٠٢	أكرم خليفة	-	جنين	شهداء الأقصى	فجر نفسه في حاجز صهيوني قرب باقة الغربية.

٥٢	١٠ / ٤ / ٢٠٠٢	أيمن أبو الهيجا	-	مخيم جنين	كتائب القسام	قتل ثمانية جنود وأصاب العشرين عندما استهدف حافلة قرب حيفا.
٥٣	٧ / ٥ / ٢٠٠٢	مجهول			كتائب القسام	استهدف ملهى ليلي في "ريشون لتسيون" جنوب تل أبيب ومقتل ١٩ صهيونياً، وإصابة ٥٥ آخرين.
٥٤	١٩ / ٥ / ٢٠٠٢	أسامة بشكار	١٨ عاماً	مخيم عسكر	الجبهة الشعبية	قتل ٣ وأصاب ٧٠، في مدينة نتانيا.
٥٥	١١ / ٦ / ٢٠٠٢	عمر محمد زيادة	٢٩ عاماً	مادما	شهداء الأقصى	نفذها في وسط مدينة "هرتسليا" وقتل صهيونية وأصاب ١٥ آخرين.
٥٦	٤ / ٨ / ٢٠٠٢	جهاد حمادة	-	مخيم جنين	كتائب القسام	أدى إلى مقتل تسعة صهاينة وإصابة ٥٠ آخرين، في تفجير حافلة صهيونية قرب صفد.
٥٧	١٨ / ٩ / ٢٠٠٢	مجهول			سرايا القدس	مقتل شرطي صهيوني وإصابة اثنين بجروح في عملية قرب أم الفحم، وتتحفظ على اسم منفذها.
٥٨	١٩ / ٩ / ٢٠٠٢	مجهول			كتائب القسام	قتل ستة صهاينة وإصابة ٧٢ آخرين في عملية داخل حافلة في شارع اللنبي بتل أبيب، ويتحفظ على اسم المنفذ.

* بذلك يتضح أن مجموع العمليات الاستشهادية التي نفذها فلسطينيون ضد الكيان الصهيوني، خلال العامين الأولين من الانتفاضة، بلغ ٥٨ عملية، خص العام الأول ٢٣ عملية، فيما خص العام الثاني ٣٥ عملية.

* اعتمد في إعداد هذا الجدول على مجموعة من المصادر منها:

WWW. qassam. org
WWW. sis. gov. ps
WWW. PalesTine - info. info
WWW. palssek. can

يتناول الجدول رقم (٢) الاشتباكات المسلحة التي استشهد منفذوها، موزعة على الفصائل.

جدول رقم (٢)

الاشتباكات المسلحة التي استشهد منفذوها *

م	تاريخ العملية	الاستشهادي	العمر	مكان الميلاد	التنظيم	نبذة عن العملية
١	١٨ / ١١ / ٢٠٠٠	بهاء الدين سعيد	٣٠ عاماً	مخيم المغازي	لجان المقاومة الشعبية	تمكن من اختراق مستوطنة "كفار داروم"، واشتبك مع الجنود داخلها، ما ادى إلى مصرع جنديين وجرح اثنين آخرين.
٢	٧ / ١٢ / ٢٠٠٠	محمد العاصي	٣٠ عاماً	غزة	المقاومة الشعبية	حيث قتل صهيوني وجرح آخر طعناً بالسكاكين في منطقة "إيرز" الصناعية.
٣	١٥ / ١٢ / ٢٠٠٠	نور الدين محمد أبو صافي	٢١ عاماً	مخيم الشاطئ	كتائب القسام	طعن ثلاثة جنود صهاينة، في غرفة التفتيش الأمني لحاجز إيرز.
٤	١٦ / ٣ / ٢٠٠١	محمد أبو النيل	٣٠ عاماً	مخيم الأمعري		حيث تمكن من تدمير دبابة ميركافا على مدخل المخيم أثناء حصاره، منذ ١٣ / ٣ / ٢٠٠١.
٥	١٤ / ٥ / ٢٠٠١	عرفات كويك	٢١ عاماً	مخيم الشاطئ	كتائب القسام	حيث ألقى قنابل يدوية على موقع عسكري صهيوني جنوب القطاع.

٦	١٤ / ٦ / ٢٠٠١	حسن أبو شعيرة	٣٢ عاماً	مخيم العزة قضاء بيت لحم	شهداء الأقصى	حيث قتل ضابط استخبارات صهيوني، وجرح مرافقه، في كمين بعد أن مارس عليه دور العميل المزدوج، واستشهد بعد إطلاق النار عليه.
٧	٣١ / ٧ / ٢٠٠١	حمودة المدهون	٢٣ عاماً	بيت لاهيا	سرايا القدس	اشتبك مسلح مع جنود الاحتلال شرق مدينة غزة.
٨	٥ / ٨ / ٢٠٠١	على الجولاني	٣٠ عاماً	قلنديا - القدس	المقاومة الشعبية	شن هجوم على جنود الاحتلال، وأصاب منهم ٨، أمام مبنى وزارة الدفاع الصهيونية، تل أبيب.
٩	٢٥ / ٨ / ٢٠٠١	هشام أبو جاموس أيمن أبو حطب	٢٢ عاماً ٢٦ عاماً	رفح رفح	الجبهة الديمقراطية	حيث اقتحما معسكراً للجيش الصهيوني جنوب القطاع، فقتلا ٣ جنود، وأصابا ٧ بجروح مختلفة.
١٠	٩ / ٩ / ٢٠٠١	نسيم أبو عاصي	٢٨ عاماً	خان يونس	الجبهة الديمقراطية	حيث استهدف موقعاً عسكرياً صهيونياً شرق غزة.
١١	٢ / ١٠ / ٢٠٠١	إبراهيم ريان عبد الله شعبان	١٧ عاماً ٢١	جباليا جباليا	كتائب القسام	اقتحما مستوطنة "إيلي سيناي" وقتل جنديين، وأصابا ١٤ آخرين.
١٢	٤ / ١٠ / ٢٠٠١	نظير محمد حماد	٢٧ عاماً	العرقة	شهداء الأقصى	في مدينة العفولة، حيث قتل ثلاثة صهاينة، وجرح ١٤ آخرين.
١٣	٢٢ / ١٠ / ٢٠٠١	محمد يوسف عايش	٣٣ عاماً	أرطاس	سرايا القدس	حيث أصاب ٤ مستوطنين بجروح في هجوم مسلح بالقدس.

١٤	٢٦ / ١٠ / ٢٠٠١	فؤاد الدهشان عثمان الرزاينة إياد البطش	١٧ ٢٢ عاماً ٢١	جباليا جباليا جباليا	كتائب القسام	حيث اقتحموا مستوطنة "دوغيت" شمال غزة.
١٥	٢٨ / ١٠ / ٢٠٠١	يوسف سويطات تيسير جبالي	٢٢ ٢٣	مخيم جنين جنين	سرايا القدس	هجوم في الخضيرة، أحد الميادين، ما أدى لقتل ٤، وإصابة ٤٠ آخرين.
١٦	٤ / ١١ / ٢٠٠١	حاتم الشويكي	٣٤ عاماً	الخليل	سرايا القدس	قام بهجوم مسلح، في القدس، فكان مقتل ٢، وإصابة ٥٠ آخرين.
١٧	٦ / ١١ / ٢٠٠١	- جمال أبو ملوح - علي أبو حجلة - إياد الخطيب	٢٢ عاماً ٢٢ عاماً ٢٢	دير ايتسيا قضاء سلفيت	كتائب القسام	اشتباك مع قوات الاحتلال، التي أعدمتهم، بعد إصابتهم في جنوب نابلس، بعد أن قتلوا ضابطاً صهيونياً.
١٨	٢٧ / ١١ / ٢٠٠١	- مصطفي أبو سرية - عبد الله أبو ناعمة	٢٠ عاماً ٢٠ عاماً	مخيم جنين مخيم جنين	سرايا القدس شهداء الأقصى	هجوم في مدينة العفولة أدى إلى مقتل ٢، وجرح ٥٠ آخرين.
١٩	٢ / ١٢ / ٢٠٠١	- مسلمة الأعرج - جهاد المصري	٢٠ عاماً ٢٠ عاماً	غزة بيت لاهيا	كتائب القسام كتائب القسام	استشهد واحد قرب مستوطنة "إيلي سيناي"، بعد اشتباك مع جنود الاحتلال، وإصابة ٣ منهم. قتل في هذه العملية عالم نووي صهيوني.
٢٠	٥ / ١٢ / ٢٠٠١	داود أبو صوي	٤٨ عاماً	أرطاس	سرايا القدس	أصاب سبعة أمام فندق تواجد فيه وزيران صهيونيان بالقدس.
٢١	٩ / ١٢ / ٢٠٠١	نمر أبو سيفين	٢٢ عاماً	اليامون	سرايا القدس	أصاب ٨ بالرصاص، في حيفا، والشرطة تقتله، بعدما كان جريحاً.

٢٢	١٢ / ١٢ / ٢٠٠١	عاصم ريحان	٢١ عاماً	تل نابلس	كتائب القسام	قتل ١٠ مستوطنين صهاينة، وإصابة أكثر من ٤٠، على أتوبيس قرب مستوطنة "عمانويل" جنوب نابلس.
٢٣	٢٤ / ١٢ / ٢٠٠١	جميل أبو عطوان	٢٥ عاماً	الخليل	شهداء الأقصى	هجوم مسلح قرب نابلس.
٢٤	٩ / ١ / ٢٠٠٢	- عماد أبو رزق - محمد أبو جاموس	٢٧ عاماً ٢١ عاماً	مخيم رفح مخيم رفح	كتائب القسام	مقتل ٤ جنود الصهاينة، بالقرب من مستوطنة "كرين شالوم"، شرق رفح.
٢٥	١٧ / ١ / ٢٠٠٢	عبد السلام صادق حسونة	٢٧ عاماً	بيت أمرين نابلس	شهداء الأقصى	هجوم مسلح في الخضيرة أدى إلى مقتل ٦ صهاينة، وإصابة ٣٤ آخرين.
٢٦	٢٢ / ١ / ٢٠٠٢	سعد ابراهيم رمضان	٢٤ عاماً	تل	شهداء الأقصى	قتل ٢، وأصاب ٣٠ صهيونياً، في القدس المحتلة.
٢٧	٢٤ / ١ / ٢٠٠٢	- رائد فايز الأغا - أحمد عبد الوهاب	٢١ عاماً ٢٤ عاماً	خان يونس خان يونس	كتائب القسام	استشهد واحد، في اشتباك، عندما حاولا اقتحام مستوطنة "جاني طال".
٢٨	٢٤ / ١ / ٢٠٠٢	- إسماعيل السعدني - جهاد القصاص	٢٦ عاماً ٣٥ عاماً	مخيم البريج غزة	الجبهة الشعبية	استشهد واحد أثناء محاولة اقتحام "كفاردارom" بالقطاع.
٢٩	٣١ / ١ / ٢٠٠٢	محمد عماد مازن بدوي	١٩ ٢٨	جباليا - غزة	كتائب القسام	هجوم مسلح في منطقة المواصي، غرب خان يونس، على حافلة.
٣٠	٦ / ٢ / ٢٠٠٢	محمد زياد الخليلي	٢٦ عاماً	نابلس	كتائب القسام	مقتل٤، وإصابة أربعة آخرين، في هجوم نفذ في مستوطنة "الحمرا" بالأغوار.

٣١	٢ / ١٠ / ٢٠٠٢	خالد البطل محمد البطاط	٢٢ عاماً ٢٣ عاماً	الظاهرية الظاهرية	كتائب القسام	قتل مجندتين، وجرح ١٤ آخرين، في هجوم على مركز قيادة المنطقة الجنوبية للاحتلال، في بئر سبع.
٣٢	٢ / ١٨ / ٢٠٠٢	محمد القصير ياسر موسى	١٩ عاماً -	رفح الدوحة	شهداء الأقصى	مقتل ٤ صهاينة، وجرح ٨ آخرين.
٣٣	٢ / ١٩ / ٢٠٠٢	علي أبو ركبة	٢٧ عاماً	خان يونس	سرايا القدس	استشهد في اشتباك، قرب مستوطنة نتساريم بالقطاع.
٣٤	٢ / ٢٣ / ٢٠٠٢	صابر البو	٢٢ عاماً	الخليل	المقاومة الشعبية	استشهد في اشتباك مسلح مع جنود الاحتلال، في بلدة حلحول قضاء الخليل.
٣٥	٢ / ٢٥ / ٢٠٠٢	رامي نور	-	نابلس	شهداء الأقصى	اشتبك مع آخر جنود الاحتلال في محطة حافلات شمال القدس، ما أدى لقتل واحد، وإصابة تسعة آخرين.
٣٦	٣ / ٥ / ٢٠٠٢	إبراهيم حسونة	-	جباليا	شهداء الأقصى	مقتل ٣ صهاينة وإصابة ٢٥ آخرين في تل أبيب.
٣٧	٣ / ٧ / ٢٠٠٢	محمد فرحات	١٧ عاماً	غزة	كتائب القسام	مقتل ٥ صهاينة وإصابة ٢٥ آخرين في هجوم مسلح على مستوطنة غوش قطيفة.
٣٨	٣ / ٧ / ٢٠٠٢	شادي نصار شادي الثجمة سعيد البطة	٢٣ عاماً ٢٦ عاماً ٢٠ عاماً	مادما مخيم العين مخيم عسكر	الجبهة الشعبية شهداء الأقصى	حيث جرح ١٤ مستوطناً في مستوطنة "أرئيل" بالضفة. مقتل ٣ صهاينة وجرح مائة .
٣٩	٣ / ١٠ / ٢٠٠٢	محمد القطاوي	٢١ عاماً	مخيم النصيرات	المقاومة الشعبية	أصاب ضابطاً وجندياً، في هجوم على مستوطنة "نتساريم".

٤٠	١١ / ٣ / ٢٠٠٢	- محمد حلس - بلال شحاتة	١٨ عاماً ١٩ عاماً	غزة بيت حانون	كتائب القسام	شنا هجوم على دورية صهيونية بالقرب من "نتساريم".
٤١	١٧ / ٣ / ٢٠٠٢	عمار الشخشير	٢٥ عاماً	نابلس	شهداء الأقصر	هجوم بالرصاص، أدى إلى مقتل صهيونية وإصابة ١٥ آخرين في "كفارسابا".
٤٢	١٨ / ٣ / ٢٠٠٢	محمد عبيد	٢٤ عاماً	مخيم الشاطئ	شهداء الأقصى	هجوم مسلح ضد حافلة للمستوطنين عند حاجز كيسوفيم بالقطاع.
٤٣	١٩ / ٣ / ٢٠٠٢	أحمد عتيق صالح كميل	١٩ ٢٣	مخيم جنين قباطية	كتائب القسام	هجوم على معسكر تياسير الصهيوني في شرق طوباس. ما أدى إلى مقتل ضابط، و٣ جنود.
٤٤	٢٣ / ٣ / ٢٠٠٢	ناجي العجرمي عيسى النذر	٢١ ٢٢	مخيم جباليا بلدة جباليا	كتائب القسام	استشهدا في اشتباك مسلح قرب "دوغيت".
٤٥	٢٤ / ٣ / ٢٠٠٢	- أحمد بربخ - أحمد أبو نعمة - محمد أبو معمر	٢٢ ٢١ ٢٣	خانيونس خانيونس خانيونس	شهداء الأقصى	استشهدوا في اشتباك مسلح مع جنود الاحتلال، بالقرب من مستوطنة "نتسار حزاني".
٤٦	٢٧ / ٣ / ٢٠٠٢	مصطفى الأسود وضاح البطش	٢٧ ٢٣	رفح بلدة جباليا	سرايا القدس	هجوم على موقع "كيسوفيم" العسكري أدى إلى إصابة جنديين.
٤٧	٢٨ / ٣ / ٢٠٠٢	أحمد سعدان	١٩	مخيم عسكر	كتائب القسام	اقتحم مستوطنة "ألون مورية"، قرب نابلس، حيث قتل ٤، وجرح ٣ آخرين.
٤٨	٢٩ / ٣ / ٢٠٠٢	ظافر كميل	٢٦	قباطية	كتائب القسام	اشتباك مع جنود الاحتلال.

٤٩	١ / ٤ / ٢٠٠٢	عبد الباسط الشرقاوي	-	سيلة الحارثي	شهداء الأقصى	اقتحم مستوطنة "تعناخ" قرب جنين.
٥٠	٢ / ٤ / ٢٠٠٢	شادي البطاط	-	الظاهرية	كتائب القسام	أصاب ٤ مستوطنين، بالقرب من مستوطنة "شمعة" جنوب غرب الخليل.
٥١	٤ / ٤ / ٢٠٠٢	نضال أبو الهيجا	٢٢	جنين	كتائب القسام	استشهد أثناء اشتباك مع جنود الاحتلال.
٥٢	٦ / ٤ / ٢٠٠٢	- أيمن الجزار - طارق أبو حنين	٢٢ عاماً ١٨ عاماً	رفح رفح	سرايا القدس	قتلا ضابط صهيوني، وأصابوا ٥ جنود بجروح، في هجوم ضد مستوطنة "رفيح يام".
٥٣	٦ / ٥ / ٢٠٠٢	- محروس البحطيطي - حازم الودية	٢٠ عاماً ١٩ عاماً	غزة مخيم البريج	سرايا القدس	حاولا اقتحام مستوطنة "كسوفيم" جنوب غزة.
٥٤	١٢ / ٥ / ٢٠٠٢	أمجد القطب فادي شحادة	٢٦ عاماً ١٦ عاماً	نابلس بيت لحم	كتائب القسام المقاومة الشعبية	استهدف دورية في غور الأردن. أصاب جندي قبل أن يسقط شهيداً على أبعد حواجز بيت لحم.
٥٥	٨ / ٦ / ٢٠٠٢	أحمد المسالمة	٣٨ عاماً	الخليل	كتائب القسام	قتل ٣ صهاينة وجرح ٢ في هجوم مسلح على مستوطنة "كرمي تسور" شمال الخليل.
٥٦	٨ / ٦ / ٢٠٠٢	احمد أحمد	١٨ عاماً	عصيرة	الجبهة الديمقراطية	أصاب ستة مستوطنين في هجوم على مستوطنة "يتسهار".
٥٧	١٨ / ٧ / ٢٠٠٢	محمد أبو عصيدة	-	عصيرة	كتائب القسام	اشتباك مسلح قرب مستوطنة عمانويل قتل ٨ مستوطنين وجنديين وإصابة العشرات واستشهاد محمد وأصحابه الباقين.
٥٨	٤ / ٨ / ٢٠٠٢	إبراهيم السعو	٢٠	الخليل	كتائب القسام	قتل صهيونياً في هجوم مسلح استشهد منفذه.

٥٩	١٠/٨/٢٠٠٢	محمد العط	٢٢ عاماً	جنين	شهداء الأقصى	اشتباك مع "قوات الاحتلال.
٦٠	٢٣/٨/٢٠٠٢	مدحت اليازجي وافي الدسوقي	٢٧ عاماً ٢٥ عاماً	بيت لاهيا مخيم المغازي	شهداء الأقصى	إصابة جندي، فيما أعدم أحدهما، بعدما كان جريحاً خلال اشتباك مسلح مع جنود الاحتلال، على مدخل مستوطنة "كفاردراوم".
٦١	٣١/٨/٢٠٠٢	يوسف عطا الله	-	مخيم بلاطة	الجبهة الشعبية	أصاب ٤ مستوطنين، في هجوم على مستوطنة "براخا".
٦٢	٥/٩/٢٠٠٢	محمود صيام	١٩ عاماً	غزة	شهداء الأقصى	قتل ضابط صهيوني وأصاب آخر عند هجومه على قوات الاحتلال المتمركزة في محيط مستوطنة "دوغيت وايلي سيناي".
٦٣	٢٦/٩/٢٠٠٢	نشأت جبارة	-	طولكرم	القسام	قتل ضابطاً صهيونياً وأصاب جنديين، عندما حاولت وحدة اغتيال أحد أعضاء "القسام"، الذي تحصن في إحدى المغارات واشتبك مع العدو، قبل استشهاده.
٦٤	٢٦/٩/٢٠٠٢	بهاء أبو سلطان	-	غزة	شهداء الأقصى	أصاب ثلاثة جنود صهاينة بالرصاص، في محيط مستوطنة "ايلي سيناي"، خلال الاشتباك.

*** المصدر :**

العمليات الاستشهادية التي نفذتها حركات المقاومة الفلسطينية وأعداد القتلى، والإصابات من الصهاينة جراء هذه العمليات خلال عامين من انتفاضة الأقصى، إعداد إسماعيل عبد اللطيف الأشقر، مؤمن محمد غازي بسيسو، مركز النور للبحوث والدراسات، غزة، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٢.

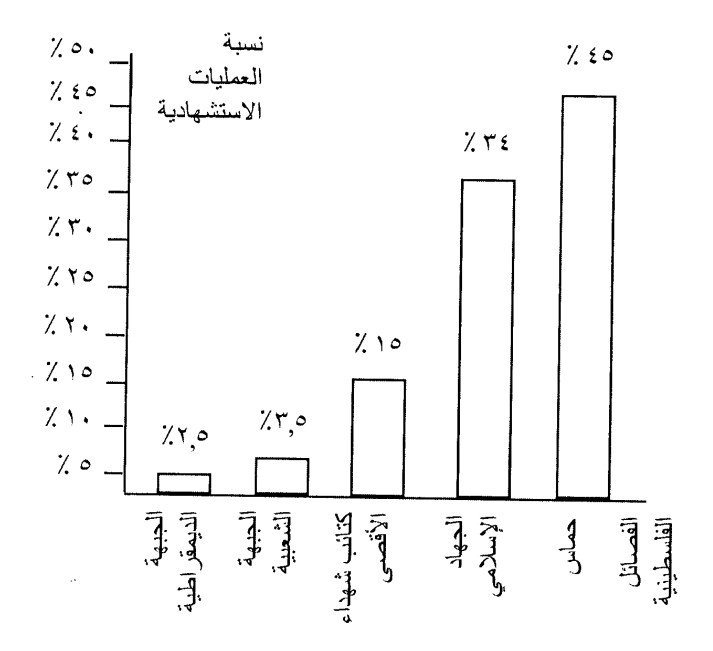
حسب التوزيع الزماني، سقط في السنة الأولى من عمر الانتفاضة ٢٠٢ قتيلاً صهيونياً، مقابل ٤٤٢ في السنة الثانية، و١٣٣٧، و٢٨٠٠ جريحاً، على التوالي.

السنة	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
السنة الأولى	٢٠٢	٪ ٣١,٤	١٣٣٧	٪ ٣٢,٣
السنة الثانية	٤٤٢	٪ ٦٨,٦	٢٨٠٠	٪ ٦٧,٧
الإجمالي	٦٤٤	٪ ١٠٠	٤١٣٧	٪ ١٠٠

فيما يوضح الجدول رقم (٣) أعداد القتلى، والإصابات من الصهاينة، خلال العام الأول والثاني لانتفاضة الأقصى والاستقلال [٥].

تورعت العمليات الاستشهادية، على الفصائل، على النحو التالي: ١٣ عملية (حماس)، ١٣ عملية (الجهاد)، و١٢ عملية (شهداء الأقصى)، و٣ عمليات (الشعبية)، ويوضح الرسم البياني رقم (١) نسبة كل فصيل من هذه العمليات.

الرسم البياني (١)
يوضح حصة كل فصل من العمليات الاستشهادية

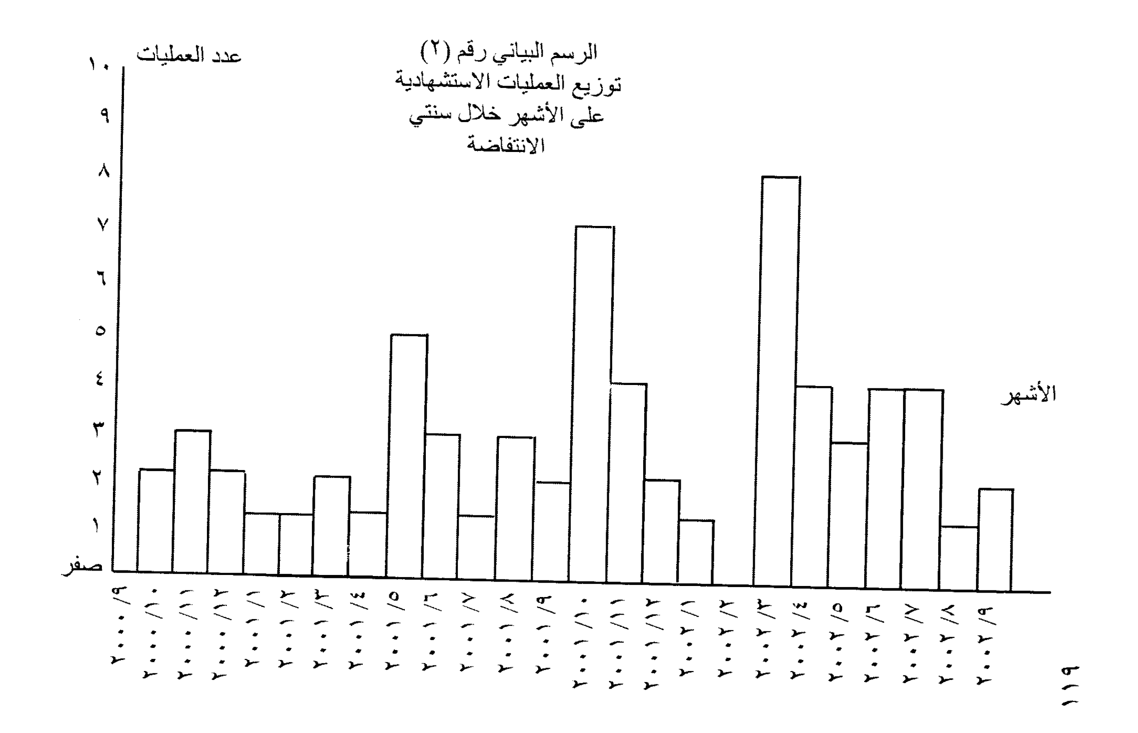


يتضح من الرسم البياني (١) ارتفاع نسبة مشاركة (حماس) عن باقي الفصائل، نظراً لأن الاستشهاد مثّل أحد أهم مرتكزات الاتجاه الإسلامي، عموماً، و(حماس) خصوصاً، بالإضافة إلى قدرة الحركة على تحمل التكلفة المادية المرتفعة للعملية الاستشهادية، فيما اعتمدت حركة (الجهاد الإسلامي) على التفجير عن بُعد، باستخدام التكنولوجيا، والذي تقارب مع أسلوب (حزب الله) في الجنوب اللبناني، في حين انخفضت نسبة مشاركة (كتائب

شهداء الأقصى)، نظراً لدخولها مجال العمليات الاستشهادية متأخرة، في منتصف عام ٢٠٠١، وإن تميزت عملياتها بصدى، ومردود واسع، من حيث الطريقة التي نفذت بها، والهدف الذي تم تفجيره، بالإضافة إلى التخطيط، والاستشهادي، حيث تكونت داخل الفصيل، وحدة للفتيات الاستشهاديات، بعضهن نفذن عمليات، أما (الشعبية)، فقد نفذت من خلال بعض عناصرها، ثلاث عمليات استشهادية، حيث اعتمدت و(الديمقراطية) على الاشتباكات المسلحة أكثر معتمدة ما قاله في هذا الصدد أمينها العام، نايف حواتمة: "عسكر مقابل عسكر".

فيما توزعت العمليات على الأشهر الأربعة والعشرين الأولى من الانتفاضة على النحو التالي، الذي يوضحه الرسم البياني رقم (٢).

الرسم البياني رقم (٢)
توزيع العمليات الاستشهادية
على الأشهر خلال سنتي
الانتفاضة



تناول الرسم البياني رقم (٢) توزيع العمليات الاستشهادية خلال سنتي الانتفاضة موزعة حسب الأشهر، حيث ارتبط صعود وهبوط العمليات الاستشهادية، بازدياد الهجمات الشرسة لقوات الاحتلال، وما فرضته من حصار، ضد الشعب الفلسطيني، هنا ينطلق الاستشهاديون مخترقين نظرية الأمن الصهيوني، والحصار لتنفيذ عملياتهم مثلما حدث خلال شهري مارس/ آذار، وإبريل/ نيسان ٢٠٠٢، أثناء حصار مخيم "جنين"، واجتياح الضفة الغربية، فيما يعود هبوط العمليات إلى الاجتماعات والتنسيق الأمني بين السلطة الفلسطينية، وقوات الاحتلال، الذي يعقبه القبض على المزيد من عناصر "الجهاد"، و"حماس"، وغيرهما، كذلك الإعلان عن وقف إطلاق النار، والذي لم يكن يستمر طويلاً. على أن العمليات الاستشهادية، ظلت ورقة ضغط في يد الفصائل الفلسطينية على سلطة الحكم الذاتي، في آن، فكلما سادت هدنة بين الفصائل والسلطة، انخفضت وتيرة العمليات الاستشهادية.

وبعد، فإن العمليات الاستشهادية تحولت إلى ظاهرة فلسطينية، على يد مقاتلي "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، ومع هذا كله فهي مجرد أسلوب كفاحي، وليست هدفاً في حد ذاتها.

هوامش الفصل الرابع

(١) أحمد صدقي الدجاني، الاستشهاد في الواقع الفلسطيني المعاصر، **شؤون عربية**، (القاهرة)، عدد ١٠٧، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، ص ٣٠ - ٤٤.

(٢) WWW. qassam. org

(٣) حوار مع مسؤول الجناح العسكري لحركة حماس الشهيد صلاح شحادة، **العربي**، (القاهرة)، ٩ / ٦ / ٢٠٠٢.

(٤) **المصدر نفسه**.

(٥) الأشقر وبسيسو، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١.



الفصل الخامس

المردود

معالي أحمد عصمت

"ليس هناك حسم عسكري بضربة واحدة، فالمهم القدرة على الصمود، والنصر يتحقق بالنقاط"(١)

زئيف شيف

المعلق الاستراتيجي الإسرائيلي المعروف

"لا يجب أن يعلو صوت فوق صوت الاستشهاديين، فهذا أوان الدم الناطق باسم امة الصامتين".

عبد الحليم قنديل

رئيس تحرير أسبوعية "العربي" القاهرية

سقطت أسس نظرية الأمن الإسرائيلي تحت وطأة العمليات الاستشهادية. وعلى الرغم من ذلك فلايزال يسود لدى بعض العرب الاعتقاد، بأن العمليات الاستشهادية لم تسفر عن نتيجة، وأن كل شي هادئ على جبهة العدو. بل على العكس، هناك من يروّج بأن هذه العمليات سوف تفتح النار على الشعب الفلسطيني، وسوف تضيع "مكاسب" المفاوضات، "وتهدر الجهود المبذولة من أجل السلام".

لكن الحقائق، والأرقام تؤكد بأن هذه النظرة غير صحيحة، فحتى السفاح شارون، نفسه، فقد الإحساس بالأمن، لدرجة أرغمته على تغيير البيت الذي يقيم فيه، في الليلة الواحدة أكثر من مرة (٢).

في هذه الدراسة، نحاول أن نرسم صورة للتجمع الصهيوني، بعد مرور عامين على الانتفاضة، وبعد وقوع أكثر من ٣٥٠ عملية استشهادية، داخل إسرائيل. [٣] صورة مغايرة، تماماً، لما يحاول مروجو ثقافة الاستسلام ترويجه، صورة تعيد لنا الثقة في أنفسنا، وفي مقدرتنا على التصدي للعدو.

أولاً: الاقتصاد الإسرائيلي

كان الاقتصاد الإسرائيلي قد بلغ إحدى ذرواته، في عام ٢٠٠٠، عندما بلغ معدل نمو الناتج المحلي، حوالي ٦,٢ ٪، [٤] وكان يمكن لهذا المعدل أن يتجاوز هذا المستوى، لولا انفجار "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، في ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٠، والتي وضعت التجمع الصهيوني في حالة من الاضطراب، والتوتر الأمني، والانشغال بالمواجهة مع الشعب الفلسطيني في أراضيه المحتلة. كل ذلك أثر، سلباً، على القطاعات الأكثر حساسية للتوتر الأمني، مثل السياحة، كما أثر، بالسلب، على القطاعات المعتمدة على العمالة الفلسطينية، أو على تصدير إنتاجها إلى الأسواق الفلسطينية، التي تعد ثاني أهم سوق للصادرات السلعية الإسرائيلية، بعد السوق الأمريكية، مباشرة.

في هذا الجزء من الدراسة، نحاول أن نلقي الضوء على الخسائر التي تكبدتها مختلف القطاعات الاقتصادية الإسرائيلية، منذ اندلاع الانتفاضة، وبسبب العمليات الاستشهادية.

١ - قطاع الاستثمار:

تعرض قطاع الاستثمار في إسرائيل، لهزة عنيفة؛ بسبب العمليات الاستشهادية، والتي سحبت من الاقتصاد الإسرائيلي مزية رئيسية لجذب الاستثمارات الأجنبية، ألا وهي الاستقرار السياسي الداخلي.

حسب بيانات "بنك إسرائيل"، فقد انخفض الاستثمار الأجنبي، في النصف الأول من عام ٢٠٠١، إلى ٢,٥ مليار دولار، من أصل ٥,٨ مليار دولار [٥]. على سبيل المثال، ألغت شركة الطاقة الدولية، "بريتش جاز"، بعض خططها للبحث عن الغاز، في بعض مناطق الامتياز الممنوحة لها، على الساحل الإسرائيلي؛ بسبب الوضع الأمني المتدهور. كما أعلنت، شركة "إنتل كورب"

بأنها أرجأت بناء مصنع جديد لإنتاج رقائق الكومبيوتر؛ "لأسباب أمنية" (٦).

إلى ذلك، تشهد إسرائيل تراجعاً في الاستثمار المحلي، أيضاً، والذي يحجم عن العمل؛ بسبب تزايد المخاطر الأمنية، فقد انخفض الاستثمار في ميدان بناء المساكن، بنسبة ١٥,٨٪، بينما انخفضت قيمة الشيكل، لتقلل من ثقة المستثمرين الأجانب في العملة الإسرائيلية، ولتؤثر سلباً على تقييم درجة إسرائيل، في جدول القدرة على سداد الديون (٧).

٢ ـ قطاع الصناعة:

كان لقطاع الصناعات العالية التكنولوجيا، منذ منتصف التسعينات، نصيب الأسد في الإسهام في نمو الناتج المحلي الإجمالي الإسرائيلي، والذي يُعد، بحق، قاطرة الاقتصاد الإسرائيلي.

لكن مؤشرات نمو هذا القطاع، تدهورت بشدة، بدءاً من الربع الأخير من عام ٢٠٠٠، بسبب الانتفاضة، والتي أسهمت في تراجع الاستثمارات الأجنبية، المباشرة، وغير المباشرة، الموجهة لهذا القطاع، في إطار تراجع الاستثمارات الأجنبية، إجمالاً، عقب الانتفاضة.

لقد ذكر "مكتب الإحصاء المركزي" في إسرائيل بأن الإنتاج الصناعي هبط بمعدل سنوي ٦ ٪، في الربع الثاني من عام ٢٠٠١، والمعروف أن هذا القطاع، يشكل خُمس الناتج المحلي الإسرائيلي (٨).

كمحصلة لأزمة القطاع الصناعي الإسرائيلي، تراجعت الصادرات الصناعية الإسرائيلية، خلال الأشهر العشرة الأولى من عام ٢٠٠١، إلى ١٦,٧ مليار دولار، مقارنة بنحو، ١٧,٦ مليار دولار، خلال الفترة نفسها من عام ٢٠٠٠ (٩).

٣ ـ قطاع الزراعة:

يعتمد القطاع الزراعي في إسرائيل، على الأيدي العاملة الفلسطينية، إلى حد بعيد. وكنتيجة للحصار، والإغلاق، الذي فرضته، إسرائيل على الأراضي الفلسطينية، لم يستطع هؤلاء العمال الوصول إلى أماكن عملهم، داخل "الخط

الأخضر"، ما سبب نقصاً فادحاً في الأيدي العاملة، اللازمة لقطاع الزراعة.

لقد تكبد قطاع الزراعة الإسرائيلي، حسب المعلومات التي نشرها "بنك إسرائيل" في ٧ / ٧ / ٢٠٠٢، خسائر فادحة، قدرت بحوالي ٥٠٠ مليون شيكل [١٠].

٤ - قطاع التشييد والبناء:

أدت الانتفاضة، إلى تراجع حاد في أنشطة البناء، داخل إسرائيل، حيث انخفضت الاستثمارات في بناء الشقق السكنية، بنسبة ٢١ ٪، في النصف الأول من عام ٢٠٠١ [١١].

لقد أسهمت عوامل عدة في التراجع الكبير في هذا القطاع، ربما يكون العامل الأهم، ذلك التراجع في الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، باندلاع الانتفاضة؛ وبسبب العمليات الاستشهادية؛ فاليهود الجدد، القادمون لإسرائيل، يمثلون أهم عوامل انتعاش قطاع التشييد والبناء الإسرائيلي؛ حيث يؤدي ارتفاع نسبة الهجرة إلى زيادة الطلب على السكن.

فضلاً عن أن هذه العثرات، التي مر بها الاقتصاد الإسرائيلي، خلال أشهر الانتفاضة، قد أدت إلى ارتفاع معدلات البطالة، حيث تدل المعطيات الرسمية، على أن معدلها، مطلع ٢٠٠٢، بلغ ١٠,٦ ٪. وتشير التوقعات إلى أنها ستصل إلى ١٧ ٪، في العام التالي [١٢].

على أن أكثر ما يخشاه المحللون، وصنّاع القرار الاقتصادي في إسرائيل، هو أن تؤدي الانتفاضة، إلى ما يسمى بالعقد المفقود من النمو الاقتصادي، على غرار ما حدث في السنوات العشر، التي تلت حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣، وكان مؤتمر "هرتسليا" الاقتصادي الإسرائيلي (مارس/ آذار)، بمثابة إعلان عن أن كل الخطوات الاقتصادية الممكنة، لن تنقذ الاقتصاد الإسرائيلي من ورطته، إذا لم يحدث تغيير أمني - سياسي [١٣].

٥ - القطاع السياحي:

جاءت الانتفاضة الإسرائيلية لتكّرس هيمنة البعد الأمني، في تحديد مسار

منحنى السياحة الإسرائيلية، حيث قدرت وزارة السياحة الإسرائيلية، ومكتب الإحصاء المركزي الإسرائيلي، الخسارة التي تكبّدها هذا القطاع، منذ اندلاع الانتفاضة، وحتى ١٧ / ١ / ٢٠٠٢، بحوالي ٧,٣ مليار شيكل، أي ما يقدر بحوالي، ١,٢مليار دولار [١٤].

كما تم تسريح ١٥٠ ألف موظف، من أصل ٢٢٠ ألف موظف، يعملون في القطاع السياحي، واضطرت ٢٥ مؤسسة، في قطاع الفنادق، من أصل ٣٥٠، إلى إقفال أبوابها [١٥].

بالنظر إلى منحنى السياحة الإسرائيلية، الآخذ في الهبوط المطرد، نجد أنه قد عانى، في فترات سابقة، من عدة أزمات متتالية، في الثمانينات؛ نتيجة العمليات الفدائية، والانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩١)، حيث هبط متوسط عدد السائحين، خلالها، إلى نحو ٦٥ ألف سائح، شهرياً.

أما في الانتفاضة الحالية، فقد بلغ عدد السياح، خلال الأشهر العشر الأولى من عام ٢٠٠١، حوالي ٩٨٠ ألف سائح، مقابل ٢,١٩ مليون سائح، خلال الفترة نفسها من عام ٢٠٠٠. كما انخفض عدد الليالي السياحية، بنسبة ٧٠ ٪، وتراجعت معدلات الأشغال في الفنادق إلى أقل من الربع، تقريباً [١٦].

في السياق نفسه سجلت شركة "العال"، في النصف الأول من عام ٢٠٠١، خسائر بلغت ٨٢ مليون دولار؛ وترجع هذه الخسائر بشكل مباشر، للانخفاض الحاد في عدد المسافرين؛ بسبب الوضع الأمني المتدهور في إسرائيل، حيث انخفض عددهم، في عام ٢٠٠١، بنسبة ٤٠ ٪ من عدد المسافرين في عام ٢٠٠٠، مما اضطر "العال" إلى وقف عدد من خطوطها الدولية [١٧].

كنتيجة مباشرة لتدهور الوضع الأمني، قررت شركات طيران دولية عدة عدم المبيت في إسرائيل، ومنها الخطوط البريطانية، والبلجيكية، فضلاً عن ما صدر من أسقف روسيا، والذي أمر بتعليق الحجيج الروس إلى الأراضي المقدسة؛ "لأن الحج غير آمن" [١٨].

حسب تصريح، وزير السياحة الإسرائيلي، فإن الأزمة في قطاع السياحة سوف تستمر، حتى لو طرأ تحسن كبير على الأوضاع الأمنية، ولا يمكن إعادة

الوضع إلى ما كان عليه، قبل الانتفاضة، عشية مرور ثلاث سنوات [١٩].

ثانياً: سقوط الإجماع بخصوص الاستيطان

يرى كثير من الدارسين بأن الاستيطان هو جوهر الصهيونية، وعمودها الفقري. وكما قالت إحدى الصحف الإسرائيلية، فإن حركة الاستيطان توجد في قلب الصهيونية، ولا توجد صهيونية، بدون استيطان [٢٠].

لكن مع تصاعد المقاومة تعيد قطاعات كثيرة من العدو الصهيوني، حساباتها بخصوص الاستيطان، في الضفة الغربية، وقطاع غزة. ففي انتفاضة ١٩٨٧، انطلق السخط على الاستيطان، المكيّف الهواء، من عقاله، فوصف رابين المستوطنين، بأنهم يشكلون عبئاً على المؤسسة العسكرية [٢١].

مع توقيع "اتفاق أوسلو" (١٣ / ٩ / ١٩٩٣)، تراجع السخط على الاستيطان، واستقرت الأمور، واستمرت المؤسسة الصهيونية، في التهام الأراضي، وتشييد المستوطنات، وصمتت معظم الأصوات الإسرائيلية المعارضة.

لكن، مع اندلاع "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، عاد الهجوم على المستوطنات، مرة أخرى، من قبل المستوطنين الصهاينة، في فلسطين المحتلة منذ العام ١٩٤٨، وبدأت الصحف الإسرائيلية تتحدث عن الاستيطان، بوصفه "السرطان الذي يأكل جسد المجتمع الإسرائيلي" [٢٢]. وبدأت الأصوات تتعالى، وتسأل: "لماذا يجب علينا أن ندفع كل هذا المال، لحماية بضع عائلات إسرائيلية، أسست بيوتها، وحقولها وسط الأراضي الفلسطينية"؟! [٢٣].

فيما، بدأت حركات عدة، مثل "حركة السلام الآن"، تندد بالمستوطنات، وترى أن الدفاع عنها يفرض عبئاً أمنياً على إسرائيل. فالجزر الاستيطانية تطيل الحدود إلى نحو ألفي ميل، أي عشرة أضعاف "الخط الأخضر"، وتنشر إسرائيل حوالي ١١ فرقة عسكرية في الضفة والقطاع، مقابل ٨ فرق، فقط، على الحدود الشمالية [٢٤].

ثالثاً: الهجرة العكسية

فاقمت الانتفاضة من ظاهرة النزوح، والهجرة إلى خارج إسرائيل. فقد تحولت "أرض الميعاد"، تحت ضغط الانتفاضة، إلى جحيم، يضطر المرء إلى البقاء فيه، نظراً لعدم وجود المال الكافي للهجرة (٢٥).

ثم جاءت العمليات الاستشهادية، لتزيد من حالة رعب المستوطنين، ولتضاعف عدد الإسرائيليين الذين يفكرون في الهجرة، والنزوح. فقد ذكرت يومية "الجيروساليم بوست" الإسرائيلية أن ٢٢ ٪ من الإسرائيليين، في المرحلة العمرية بين ١٨ - ٣٥، يفكرون في الهجرة من إسرائيل، وهي نسبة عالية للغاية، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن من ينتمون لهذه المرحلة، هم أهم القطاعات العمرية في أي مجتمع، فهم أكثر القطاعات إنتاجية، ونشاط (٢٦).

لقد استفحلت أزمة إسرائيل الاستيطانية، مع تزايد خوف أعضاء الجمعيات اليهودية، من الهجرة إلى إسرائيل؛ بسبب العمليات الاستشهادية والانتفاضة؛ فالإحصائيات تقول إنه لن يهاجر إلى إسرائيل، خلال العقد المقبل، سوى ٣٠٠ ألف مهاجر، من دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقاً)، مقابل ٩٠٠ ألف، خلال السنوات العشر الماضية، وفيما سيختار ٣٠٠ ألف يهودي التوجه إلى دول أخرى (٢٧).

في الأسابيع الأولى من "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، تحصّن المستوطنون بمنازلهم، لكن مع تصاعد المقاومة الباسلة، واشتداد وطيس العمليات الاستشهادية، أخذ المستوطنون في بيع منازلهم، واجتهدوا للحصول على جواز سفر آخر. كما بدأت جماعة صهيونية في تأسيس رابطة تعاونية، بوسع المستوطن الإسرائيلي أن يدفع ٤٥٠٠ دولار، للانضمام إليها، وبالتالي يمتلك قطعة من الأرض، في بلدة تسمى "فانونو"، وتضم هذه الرابطة، حتى الآن، حوالي ٢٠٠٠ أسرة تنوي النزوح عن إسرائيل، والاستيطان في هذا البلد! (٢٨).

السؤال، الآن:.ما الذي يدفع المستوطن الإسرائيلي إلى التفكير في الهروب من إسرائيل؟

في محاولة للإجابة، عن هذا السؤال، نشرت جريدة، "هارتس"، مقالاً طويلاً، في ٢٤ / ٨ / ٢٠٠١، بعنوان "طريق الهروب" (٢٩)، أشارت فيه إلى أن الباحثين عن جواز سفر جديد، يمارسون إحساساً بالفزع، والخوف، والهستيريا، والإحساس بالعجز، والقلق، ويرون بأنه لا أمل في التوصل إلى اتفاقية سلام.

رابعاً: رفض الخدمة العسكرية

أصبحت ظاهرة الهروب من الخدمة العسكرية سمة رئيسية، للجيش الصهيوني، خاصة "الاحتياط"، وقد عرف التجمع الصهيوني هذه الظاهرة، مرات عدة من قبل، كان آخرها أثناء الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان.

مع تصاعد المقاومة الفلسطينية، في "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، ازدادت هذه الظاهرة، مرة أخرى، وأصبح الحديث الدائم عن الجندي الصهيوني، الذي يفاجأ بالاستشهادي، فيعجز عن استخدام سلاحه، إلا بعد أن يكون الاستشهادي نفّذ مهمته، بنجاح، مظهراً مدى جبن، وذعر، الجندي الصهيوني. مثال ذلك الهجوم الجرئ، الذي شنته ثلاثة عناصر من "الجبهة الشعبية"، في ٢٥ / ٨ / ٢٠٠١، داخل معقل للجيش الصهيوني، في جنوب قطاع غزة، الذي ثبت أن جنديين، فقط، من بين العسكريين الموجودين هناك، هما اللذان تمكنا من استعمال سلاحهما (٣٠).

بيد أن العمليات الاستشهادية كانت السبب الرئيسي في ظهور حركات عدة، داخل الجيش الإسرائيلي، كانت أكثرها حدة، حركة "الشجاعة في الرفض"، والتي بدأت بإعلان بيان، رفضت فيه التصور الصهيوني للأمن الإسرائيلي، الممتد من النهر إلى البحر، بكامل التراب الفلسطيني، ووصف البيان الجيش الإسرائيلي في الضفة، والقطاع، بأنه جيش احتلال، لأن "الضفة الغربية ليست إسرائيل" (٣١).

في ١٥ / ٤ / ٢٠٠٠، وصل عدد الموقعين، على بيان "حركة الشجاعة في الرفض"، إلى ٤٢٠ جندي، فضلاً عن ٤٠٠ جندي آخرين، أعلنوا بأنهم سيرفضون الخدمة، إذا تم استدعاؤهم (٣٢).

في السياق نفسه، ظهر ما يسمى بـ "الرفض الرمادي"، والذي ضم أعداداً كبيرة من جنود الاحتياط، الذين يلجأون إلى تأجيل الخدمة العسكرية؛ لأسباب صحية؛ أي أنهم يتمارضون.

بالطبع، لم يكن استيقاظ ضمير المجندين، سبب ظهور هذه الحركات، ولكنه الخوف من الموت؛ فقد اكتشف الجندي الإسرائيلي أنه بالرغم من معداته القتالية الفائقة، فإنه أصبح صيداً سهلاً، وقد عبر هذا الخوف عن نفسه، في كثير من الحوادث، لعل من أهمها ما حدث في مستوطنة الحمرا، حين قام أحد الاستشهاديين الفلسطينيين بعملية أدت إلى مصرع، وإصابة تسعة إسرائيليين، فقد ظهر أنه حينما وصل تحذير إلى الحارسين الإسرائيليين بأن استشهادياً سيقتحم المستعمرة، خشياً على نفسيهما ولم يبلغا عن ذلك، وحينما التقى الجنود الإسرائيليون بالاستشهادي، لم يشتبكوا معه، وفروا من أمامه! (٣٣).

أخيراً: توازن الرعب

فيما يعرف "بميزان الرعب"، باتت العمليات الاستشهادية الخيار الوحيد، أمام الشعب الفلسطيني، حتى يمنع إسرائيل من أن تجني ثمار ميل ميزان القوى العسكري؛ ذلك أن الإسرائيليون فقدوا الشعور بالأمن، مقابل افتقاد الفلسطينيين الشعور نفسه.

استيقظ الإسرائيليون على رقم الستمائة قتيل إسرائيلي، منذ بدأت "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، رقم مشابه، جعل مناحم بيجن يلزم منزله، حتى وفاته(٣٤). وعلى الرغم من كل الوعود الحكومية بعدم تكرار العمليات الاستشهادية، فإن الواقع يثبت فشل كل الإجراءات الوقائية الصهيونية، لدرجة جعلت رئيس المخابرات الإسرائيلية الأسبق، يعكوف بيري، يصف تجربة شارون بأنها "قصة فشل ذريع في مجال الأمن" (٣٥). وجعلت صحيفة "يديعوت أحرونوت"، في ٢٤ / ٧ / ٢٠٠٢، تصف عملية غزة، التي يعتبرها الجيش الإسرائيلي نجاحاً عسكرياً، تبدو، من الناحية السياسية، "عملية يائسة"، يرافقها الأمل بأن يخضع الفلسطينيون، وتتمكن إسرائيل من مواصلة احتلال المناطق (٣٦).

في عنوان موح، "القنبلة البشرية الفلسطينية"، نشرت مجلة "فورن أفيرز"

الأمريكية، مقالاً لضابط كبير سابق في جيش الكيان الصهيوني، جان لوفت، يعترف فيه بأن الفلسطينيين يدركون بأن إسرائيل لا تملك سلاحاً مضاداً لسلاح الاستشهاد، وإذا كانت قد نجحت في استحداث ونشر النظام الدفاعي الصاروخي "آرو"، لمواجهة أخطار الصواريخ العراقية "سكود"، فإنها لا تملك لمواجهة القنبلة البشرية الفلسطينية غير بناء الأسوار الشائكة (٣٧).

أدى تصاعد عدد القتلى، والجرحى الصهاينة، إلى سيادة جو من الفزع، جعل غالبيتهم تشعر بالخوف، وانعدام الأمن. ووصل الأمر بالكثير منهم إلى التردد على العيادات النفسية، بنسبة مطردة، حيث أوضحت الدراسات أنه، في عام ٢٠٠١، وحده، بلغ مجموع المترددين على العيادات النفسية، ٩٩ ألف صهيوني، بزيادة ١٠ آلاف، عن العام الذي سبقه (٣٨).

في السياق نفسه، أكدت يومية "هآرتس"، في ١٣ / ١١ / ٢٠٠١، بأن الجيش الإسرائيلي لم ينجح في تصفية "الإرهاب"، ودحره، بالقوة، بل إن الفلسطينيين، نجحوا في زرع الرعب في صفوف الإسرائيليين، وأكبر دليل على ذلك: "أن عدداً من الوزراء، وأبناء عائلاتهم قد أخلوا بيوتهم، خوفاً على أمنهم، وذلك بناء على نصيحة جهاز الشباك" (٣٩).

استنتاجات

أصبحت الانتفاضة حرب استنزاف، "وفي الحرب"، كما يقول نابليون "تشكل الاعتبارات المعنوية ثلاثة أرباع، أما توازن القوى فيشكل الربع الباقي". والفلسطينيون يمتلكون الروح المعنوية العالية، وبالعمليات الاستشهادية سوف يحصلون على الربع الباقي.

١ - العمليات الاستشهادية، هي الخيار الوحيد أمام الشعب الفلسطيني، لتحقيق توازن القوى، ولمنع إسرائيل من أن تجني ثمرة ميل ميزان القوى العسكري لصالحها. ونلاحظ بأن أية عملية استشهادية كانت تنسف أية محاولة إسرائيلية لعقد تسوية مع السلطة الفلسطينية، تعكس ميزان القوى في ميدان القتال؛ أي تسوية لصالح الطرف الإسرائيلي، وعلى حساب الطرف الفلسطيني.

٢ - العمليات الاستشهادية، أضرت بالاقتصاد الإسرائيلي، ضرراً غير

عابر، بل مديداً وكبيراً على الإنتاج؛ لأنها تمسّ أمن المستوطنين الشخصي، مما يؤثر مباشرة على تصرفاتهم الاقتصادية، ومسلكهم الاستهلاكي، على مدى الزمن.

٣ - ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية، هي أخطر الظواهر التي تهدد التجمُّع الصهيوني، خاصة وأن إسرائيل تعتمد على جيش نظامي صغير، وجيش احتياط كبير؛ نظراً لصغر حجم الكتلة السكانية في إسرائيل، والعمليات الاستشهادية أسهمت في اتساع هذه الظاهرة، بشكل واضح.

٤ - كلما تعزز "الاعتدال" العربي، ازداد التطرف الصهيوني، ومعه التمسك بالمستوطنات وبكل شبر من الأراضي المحتلة، والعكس صحيح؛ فكلما ازدادت المقاومة العربية، والحوار المسلح، ازداد الصهاينة رشداً، وتقبلاً لفكرة السلام، الذي يستند إلى العدل، وذلك أن الصهاينة لا يعترفون، إلا بمبدأ القوة.

٥ - مساندة العمليات الاستشهادية، ودعمها، واجب، عن طريق تفعيل العمق الاستراتيجي العربي، والإسلامي، على جميع المستويات الرسمية، والشعبية، ونبذ محاولات "وقف العنف"، و"العودة لمائدة المفاوضات".

وبعد، فإذا كان الكيان الصهيوني يمتلك طائرات الأباتشي، وأف ١٦، فعلى الجانب الآخر هناك الشعب الفلسطيني، بإصراره، وإيمانه بعدالة قضيته، فضلاً عن قنابله البشرية، التي لا تستطيع كل جيوش العالم، أن تستحدث نظاماً دفاعياً ضدها.

هوامش الفصل الخامس

(١) عبد الناصر حجازي، مقارنة بين ثورة ١٩٣٦ وانتفاضة الأقصى والاستقلال، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العددان ١٢٩ - ١٣٠، يوليو/ تموز: ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٢، ص ٧٦: ٩١.

(٢) وجيه أبو ذكري، الانتفاضة: الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، **الأخبار**، (القاهرة)، ٦ / ٩ / ٢٠٠٢.

(٣) **العربي**، (القاهرة)، ١١ / ٨ / ٢٠٠٢.

(٤) **قراءات**، (القاهرة)، نشرة دورية يصدرها حزب التجمع، فبراير/ شباط ٢٠٠٢ (أنظر: أحمد السيد النجار، الانتفاضة الفلسطينية، أثارها على الاقتصاد الإسرائيلي، ٣: ١٣).

(٤) موقع **مركز المعلومات الوطني الفلسطيني** على الإنترنت.

http://www.ipc.gov.ps/ipc@index@htm

(٦) قراءات، **مصدر سبق ذكره**.

(٧) موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني على الإنترنت، **مصدر سبق ذكره**.

(٨) **المصدر نفسه**.

(٩) قراءات، **مصدر سبق ذكره**.

(١٠) موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني على الإنترنت، **مصدر سبق ذكره**.

(١١) قراءات، **مصدر سبق ذكره**.

(١٢) جمال زحالقة، **في ظل الانتفاضة: قراءة في الحالة الاقتصادية**، من أوراق حزب التجمع الوطني الديمقراطي، الناصرة، ٢٠٠٢.

(١٣) **المصدر نفسه**.

(١٤) موقع **يديعوت أحرونوت** على الإنترنت، ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٢.

http://www.arabynct.com

(١٥) موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني على الإنترنت، **مصدر سبق ذكره**.

(١٦) قراءات، **مصدر سبق ذكره**.

(١٧) موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني على الإنترنت، **مصدر سبق ذكره**.

(١٨) **المصدر نفسه**.

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) عبد الوهاب المسيري، **من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية (أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني)**، القاهرة، مطبوعات درة، اللجنة الوطنية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية لمواجهة الصهيونية، ٢٠٠٢، ٣٤.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٣٥.

(٢٢) موقع يديعوت أحرونوت على الإنترنت، ١٣ / ١ / ٢٠٠٢، **مصدر سبق ذكره** .

(٢٣) المسيري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٧.

(٢٥) عبد الوهاب المسيري، الهروب اليهودي، **العربي**، (القاهرة)، ١٢ / ٥ / ٢٠٠٢.

(٢٦) **المصدر نفسه**.

(٢٧) **المصدر نفسه**.

(٢٨) المسيري، من الانتفاضة...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦.

(٢٩) المسيري، الهروب...، **مصدر سبق ذكره**.

(٣٠) **الأسبوع**، (القاهرة)، ١١ / ٣ / ٢٠٠٢.

(٣١) المسيري، من الانتفاضة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٥.

(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٦٦.

(٣٤) محمد عبود، جيش الاستشهاديين يقهر شارون، **العربي**، (القاهرة)، ١١ / ٨ / ٢٠٠٢.

(٣٥) سيد الضبع، انتفاضة الأقصى هل تسقط شارون؟ **الأسبوع**، (القاهرة)، ١١ / ٣ / ٢٠٠٢.

(٣٦) **يديعوت أحرونوت**، ٢٤ / ٧ / ٢٠٠٢، وردت ترجمتها العربية في: **مختارات إسرائيلية**، العدد، ٩٢، أغسطس/ أب ٢٠٠٢، ص ٥٨.

(٣٧) **العربي**، (القاهرة)، ١١ / ٨ / ٢٠٠٢.

(٣٨) **آفاق عربية**، (القاهرة)، ٢٢ / ٨ / ٢٠٠٢.

(٣٩) المسيري، من الانتفاضة ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

الفصل السادس

ضجة في صف العمليات الاستشهادية

أسامة عامر

يبدو أننا في عصر تقلبت فيه المعايير، وغد العسكريون، ومعهم بعض السياسيين، ضد مقاومة المحتل، ربما لأن الأمر يتعلق بـ"مفهوم الوطنية" لدى هؤلاء، وليس بالتقاليد العسكرية.

في أول حديث له مع وسيلة إعلامية صهيونية، دعا وزير الداخلية الجديد، آنذاك، اللواء عبد الرازق اليحيي، الفصائل الفلسطينية إلى وقف العمليات الاستشهادية، والعودة إلى المقاومة "الشرعية ضد الاحتلال" دون استخدام "العنف"، وبموجب المعايير الشرعية الدولية، على حد قوله، وأردف اليحيي، بأن العمليات الاستشهادية تتنافى مع التقاليد الفلسطينية، ومع القانون الدولي، وتضر بمصالح الشعب الفلسطيني، أضاف اليحيي بأنه لا يتعين الرد والانتقام على كل عملية اغتيال تقوم بها إسرائيل، بل يتوجب ضبط النفس، من أجل منح فرصة لاستتباب الهدوء [1].

رد عليه أحد قادة حركة "حماس"، اسماعيل هنية، بأن على السلطة وقادتها

رفض الاجتماعات الأمنية، ولقاء المجرمين الصهاينة، الملوثة أيديهم بدماء الفلسطينيين، بدلاً من المطالبة بوقف العمليات الاستشهادية، وقال "إن حماس سترد على كل مذبحة وعملية اغتيال"، مؤكداً بأن المقاومة ستضرب، في كل مكان من فلسطين. أردف هنية بأن هذا "هو وقت الانتقام من المذابح الصهيونية، وسنقاتل العدو بالعمليات الاستشهادية، رداً على المذابح والمجازر واحتلال أرضنا" (٢).

تصريح وزير الداخلية الفلسطيني، ورد "حماس" على هذا التصريح، يعكس، بوضوح، حالة الجدل الدائر حول العمليات الاستشهادية، والجدوى السياسية من الاستمرار في التشجيع على القيام بها، وهو نقاش مرشح للاتساع، خلال الأسابيع القليلة القادمة، وقد يفجر خلافاً مفتوحاً، ومؤلماً بين السلطة ومختلف الفصائل المتمسكة بهذا الأسلوب في المقاومة. وترى فيه اللغة الوحيدة التي يفهمها العدو الصهيوني.

هذا الجدل الذي اتسم، في أحيان كثيرة، بالحدة، لم يقتصر على الساحة الفلسطينية، حيث تواجه هذه العمليات بردود فعل مختلفة حكومية، عربية وأجنبية، إضافة إلى الجدل في أوساط المثقفين في العالم العربي.

ثمة اتجاه يعتبر هذه العمليات أعمالاً إرهابية، وأن المنظمات التي تقوم بها يجب تفكيكها، وتجريم أنشطتها. وهذا الاتجاه تدافع عنه واشنطن، وتل أبيب، وتستجيب له تحت الضغوط، السلطة الفلسطينية (٣). وهذا الهجاء الأمريكي ليس عبثاً، وإنما هو جزء من الانحياز السافر للهواجس الإسرائيلية، فيما تأكد بأن هذه العمليات هي السلاح الأقوى بيد الفلسطينيين، في ظل خلل ميزان القوى مع الاحتلال، ولأنها العنوان الحقيقي لحرب استنزاف مع العدو (٤).

إلى ذلك يرى هذا الاتجاه في كل عمليات المقاومة، حتى التي تتم في أراضي (١٩٦٧)، أعمالاً إرهابية، فيما لم تطلب السلطة الفلسطينية تركيز النشاط في

---

* قمة شرم الشيخ الثلاثية (١١/ ٥ / ٢٠٠٢) أدانت ما أسمته أعمال عنف فلسطينية تستهدف المدنيين الإسرائيليين الأبرياء، كما أدانت أعمال العنف الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني، ودعت إلى وقف هذه الممارسات.

الضفة والقطاع، بل كانت تلاحق مجاهدي "حماس" و"الجهاد"، عند تنفيذ عمليات في الضفة والقطاع، واستنكار هذه العمليات.

ثمة اتجاه آخر يرى في الأعمال الاستشهادية أعمال عنف، تبنته قمة شرم الشيخ* الثلاثية (مصر، السعودية، سوريا)، وهو رأي الحكومات العربية عموماً [٥] ويمكن أن نضيف لهذا الاتجاه، دول الاتحاد الأوربي وروسيا والصين.

فالحكومات العربية تتعاطى مع العمليات الاستشهادية بما يستجيب مع الضغوط الأمريكية والصهيونية، وليس في إطار اقتناع عربي وفلسطيني، يشكل أرضية وفقاً لمجريات الصراع، وتحولاته، ووفقاً لما تتطلبه المصلحة الوطنية، عند كل منعطف [٦].

أما إذا عرجنا إلى المثقفين في العالم العربي، بمن فيهم الفلسطينيون، نستطيع أن نميز بين ثلاثة اتجاهات، الأول ضد الظاهرة والمقاومة عموماً، والثاني يدعم الظاهرة وبقوة ويراها وسيلة مشروعة وضرورية، والثالث، يقف موقفاً وسطاً، فهو لا يرفض هذه العمليات من حيث المبدأ ويعتبرها مشروعة، لكنه يدعو إلى ضبطها وترشيدها وربطها بالمصلحة التي تحققها.

ففي الاتجاه الأول نرى بأن هناك حفنة ضئيلة منهم أصدرت نداءات، مدعومة باليورو، تدعو إلى وقف هذه العمليات * - وسنأتي للحديث عنها فيما بعد - ، وهناك من أجهد نفسه في تفصيل سلبيات العمليات الاستشهادية،

---

* أنظر بيان من أطلقوا على أنفسهم "المثقفين الفلسطينيين"، والذي وقعه ما يقارب من ٥٠ شخصية، تدعو إلى وقف هذه العمليات، الاستشهادية، وحملوها مسئولية زرع الحقد بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي، حسب إدعائهم، وعلى رأس هؤلاء سري نسيبة، حنان شعراوي، خضر شقيرات، جمال زقوت، هشام عبد الرازق وقد نشر البيان في صحيفة "القدس" الصادرة في فلسطين، كإعلان مدفوع الأجر (١٩ / ٦ / ٢٠٠٢).

** بعض وزراء وأقطاب السلطة الفلسطينية، أمثال ياسر عبد ربه، ونبيل شعث، ومحمود عباس (أبو مازن)، ومحمد رشيد (خالد سلام) بالإضافة إلى أنصار "التطبيع" في العالم العربي.

وتجريدها من أية إيجابية تذكر. فهي "إرهاب أعمى"، وعدمي، إذ إنها بمثابة القتل للقتل، وعنف بائس ضد الآخر، وضد الذات معاً (٧). إلى من وصفها بأنها عمليات تتنافى مع الأخلاق **.

أيضاً، ثمة من اعتبر أن الفلسطينيين يفتقدون استراتيجية سياسية وكفاحية، متفقاً عليها، بدخول "الجبهة الشعبية"، و"كتائب شهداء الأقصى" هذا المجال، بعد أن كانت "حماس" و"الجهاد" تتفردان به، وأن الاستشهاديين "عسكروا الانتفاضة"، وزادوا من عزلة الفلسطينيين (٨).

على الجانب الأخر، ثمة الكثير من الأصوات والأقلام لمثقفين في الوطن العربي، ترى في العمليات الاستشهادية وسيلة للبحث عن الحياة الحقة، وضرورة قتالية في مواجهة التفوق في المعدات للعدو الصهيوني، وتعتبر من الضرورات المرحلية.

فالفسطينيون يستخدمون أجساد فلذات أكبادهم شباباً وشابات، كوسيلة لمواجهة الجيش المحتل، الذي ضمنت له أمريكا، وأوربا، وروسيا، تفوقاً على مجموع جيوش الوطن العربي، وهل لدى الشعب الفلسطيني حل آخر؟! وهل لدى الجيوش المجهزة والمتطورة، في كل عالمنا العربي والإسلامي، مقترحات يقدمونها لهم؟!.

إن "الضرورة القتالية هي وحدها التي ألجأت المناضل الفلسطيني لأن يستخدم جسده أداة تفجير ضرورية، لا يملك غيره، ليرد البغى عن نفسه، وعن عرضه، وعن أرضه، وعن أمته" (٩) فليس من الحكمة المطالبة بوقف العمليات الاستشهادية، ونزع سلاح المقاومة، وإطفاء جذوتها الملتهبة تحت أقدام العدو المتغطرس بترسانته، والمتسلح بالقوانين الدولية المنحازة (١٠). ومن أجل ذلك، لابد من الالتفاف حول الانتفاضة، ومقاومتها المسلحة، التي رفعت شعار "توازن الرعب" مع العدو الصهيوني، حيث استطاع أبطال "كتائب القسام"، بجانب "كتائب شهداء الأقصى"، و"سرايا القدس"، وجميع الفصائل

---

* لطرح مشابه، أنظر، ترشيد الظاهرة في هذا الفصل، ص ١٤٣.

المقاتلة، أن تفرض هذا الشعار وتترجمه، من خلال عملياتها الاستشهادية، إلى واقع عملي، يخيم على ليل العدو، ونهاره [١١].

أما الاتجاه الثالث - أصحاب الموقف الوسط - فتوجه إلى فصائل المقاومة عموماً، و"حماس" خصوصاً، يرجوها وقف هذه العمليات، للمضاعفات السياسية والعسكرية الخطيرة التي تترتب على تلك العمليات، باعتبار أن شرعية المقاومة لا تلغي ضرورة ربطها بدرجة المصلحة التي تحققها *، مع تسليم أصحاب هذا الرأي، بأن المتمسكين بأسلوب العمليات الاستشهادية يملكون أجوبة مغايرة، على ما تم عرضه، مثل اعتقادهم - محقين - بأن عدم توجيه ضربات سريعة، خلال أسابيع بعد كل حملة عسكرية صهيونية، من شأنه أن يشجع حكومة شارون على التمادي في جبروتها، وابتزازها للفلسطينيين، في حين أن سلسلة العمليات داخل العمق الصهيوني ستجعل الصهاينة يدركون بأن الحملات العسكرية لم تحل المشكلة، ولن تقضي على المقاومة [١٢]. وهذا ما أكدته عمليات المقاومة المستمرة التي تخرج من بين أنقاض ما دمرته حملات شارون العسكرية المتوالية، لتوجه له اللطمات القوية، بعد أن استنفدت هيئة اركانه كل الخطط والمسميات *.

بعد هذا العرض لجانب من حالة الجدل بين النخب والمثقفين في عالمنا العربي وللاتجاهات المختلفة، حول العمليات الاستشهادية، وللمواقف الحكومية العربية والأجنبية، ولنقاط عدة وقضايا كثيرة مثارة، تحتاج إلى كثير من التفصيل والرد، وهو ما سنتناوله في الأجزاء المتبقية من هذه الدراسة. على أنه يجدر بنا بداية أن نعرض لفوائد وإيجابيات العمليات الاستشهادية كما يراها ويتفق معها كاتب هذه السطور.

إيجابيات

بداية لن نستطيع إلا أن نقف، إجلالاً، أمام هؤلاء الشباب والشابات، الذين

---

* تعددت أسماء الحملات العسكرية الصهيونية في مواجهة الانتفاضة، فمن "حقل الأشواك"، إلى "الجحيم"، إلى "جهنم المتدحرجة"، إلى "السور الواقي"، إلى "رحلة بالألوان"، إلى "فارس الليل" .... إلخ.

قرروا ولا يزالون، تقديم أرواحهم، فداءً لوطنهم، وهم في عز العطاء.

= حققت العمليات الاستشهادية نتائج عدة، لم يسبق أن تم كسبها، طيلة تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي. وهو أمر أقر به كبار المسئولين الصهاينة، وأكدته مختلف الدراسات، وعمليات سبر الآراء، وتعليقات كبرى الصحف العبرية.

= جعلت الصهاينة، للمرة الأولى في تاريخهم، يفقدون الشعور بالأمن والأمان، في أي مكان من الأرض التي اغتصبوها، بما في ذلك، كبرى مدنهم "تل أبيب"، فالضرب في العمق جعل كل أماكن الوجود الصهيوني محرومة من الأمن، وهذا عدل، طالما أن الفلسطينيين محرومين منه.

= غيرت هذه العمليات مفهوم الحرب، وتجاوزت معضلة اختلال موازين القوى العسكرية، الذي شل العرب، لمدة تجاوزت نصف القرن، فالدول العربية غير قادرة على مواجهة إسرائيل، التي تنفرد بامتلاك أسلحة الدمار الشامل في المنطقة، لذا فسلاح الاستشهاد حول ضعفنا وقلة حيلتنا إلى قوة.

= رجت هذه العمليات، وبقوة، التجمع الصهيوني، فالانتفاضة، مع أهميتها السياسية، وما ألحقته من أضرار باقتصاد العدو، وما سببته من إرهاق لمؤسسته العسكرية، فإنها لم تحدث في التجمع الصهيوني ما أحدثته العمليات الاستشهادية.

= أشركت هذه العمليات العدو الصهيوني في دفع ضريبة الدم، ففي اعتماد الحجارة، وحدها، لمواجهة الدبابات والجنود المسلحين، يقدم الفلسطينيون، وحدهم الضحايا، في معارك غير متوازنة، بينما في الحالة الثانية يشترك الطرفان في دفع هذه الضريبة، فأفضل رد على جرائم العدو، هو ضربه في عمقه، والوصول إليه في مدنه لكي يشرب من نفس الكأس التي أذاقها للشعب الفلسطيني.

= ضربت هذه العمليات المشروع الصهيوني في الصميم، الذي يعتمد على استقدام اليهود من شتى بقاع العالم إلى "أرض الميعاد"، حيث الأمن والأمان.

= زلزلت منظومة العدو الأمنية والحربية، التي تعتمد على نقل المعركة إلى

أرض العدو.

= أوجعت الحكومة الصهيونية وحلفاءها، وأوصلت للجميع رسالة الغضب الفلسطيني، باللغة التي يفهمونها.

قضايا مثارة

ترشيد الظاهرة

الدعوة إلى ترشيد العمليات الاستشهادية، بقياس المصالح والمفاسد من ورائها، تأخذ موقفاً وسطاً بين المنتقدين لها، والذين لا يرون فيها أية إيجابية، وبين المؤيدين لها، في كل مرحلة، وتحت أي ظرف.

في دراسة أجراها مركز "باحث" في بيروت، عن بحث ظاهرة المقاومة الفلسطينية، خلال "انتفاضة الأقصى"، بعد مرور أكثر من عشرين شهراً على اندلاعها، وجهت النقد إلى الفشل في ضبط إيقاع العمليات الاستشهادية، على نحو تحقيق هدفها المنشود، في تحقيق "توازن الرعب" وأضافت "باحث" بأن إيجاد معادلة لتوازن الرعب بين المقاومين والمحتلين، يأتي بنداً دائماً في رأس جدول أعمال الانتفاضة والمقاومة. وفي سياق التجربة، تبدو العمليات الاستشهادية المدخل لإيجاد مثل هذه المعادلة، شريطة أن يتم تنفيذها وفق المفهوم العسكري (اقتصاد القوة)، أي أن يتم ضبطها، وتوقيتها، وأن يتم الربط بين استمرار هذه العمليات، واستمرار الاحتلال، ووقفها مع إزالته [١٣].

مسألة التوقيت

هناك من يعترضون على العمليات الاستشهادية، لحسابات تتعلق بالتوقيت، فلا أحد يعترض على الاستشهاد في سبيل الوطن، لأنه واجب كل مواطن

تخضع بلاده للاحتلال، ولكن المشكلة هي ضد من نقوم بتلك العمليات، وفي أي نطاق جغرافي، وفي أي توقيت نقوم بها (١٤). وأن لا خلاف مع "حماس" وأنصار العمليات الاستشهادية على عدالة المواقف، وشرعية المقاومة للاحتلال، لكن الخلاف الجوهري حول الممكن تحقيقه من الأهداف الوطنية، في هذا الوقت، وهذه المرحلة، كذلك تنفيذ بعض العمليات، خلال فترة زيارة شارون إلى واشنطن، ولقائه بالرئيس الأمريكي بوش، باعتبار أن هذا التوقيت منح كلام شارون عن الإرهاب مصداقية عالية (١٥) وقولهم إن هذه العمليات تحدث عندما تكون هناك بوادر إنسحاب من قبل إسرائيل من المدن الفلسطينية، أو الاقتراب من التوصل إلى تفاهمات واتفاقات بين الجانبين، الفلسطيني والإسرائيلي، فتأتي هذه العمليات، لتوقف كل ذلك.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه، إذا لم يكن هذا هو وقت الرد على مجازر ومذابح، واستغوال العدو الصهيوني، فمتى يكون؟! ثم كم عدد العمليات الاستشهادية التي نفذت، وكان رئيس الوزراء أو أي مسئول إسرائيلي، يقوم بزيارة الولايات المتحدة؟! فمنذ بداية سلسلة عمليات التفجير، عام ١٩٩٣، تم تنفيذ أكثر من ١٤٠ عملية، وقع منها أقل من عشر عمليات، أثناء زيارة لمسئول صهيوني للولايات المتحدة، مما يؤكد أن الأمر لا يخرج عن الصدفة البحتة. كذلك من يقولون بأن عملية نتانيا الضخمة والتي نفذتها "حماس"، عشية انعقاد قمة بيروت، في ٢٨ مارس/ آذار ٢٠٠٢، جاءت لإحراج الأنظمة العربية، ورداً على "المبادرة العربية للسلام"، كلام يجانبه الصواب، لأن مثل هذه العمليات نفذت قبل القمة وبعد القمة، فالذي يتحكم في توقيت العملية - حسب تأكيدات المقاومين والأذرع العسكرية لفصائل المقاومة، خصوصاً "حماس" - هو الواقع، والوضع الميداني للمقاومين، ما لم يكن هناك قرار سياسي من مستواهم السياسي بوقف مثل هذه العمليات، وقيادة "حماس" السياسية، أكدت، أكثر من مرة، أن توقيت العمليات يخضع للظروف الميدانية لجناحها العسكري، وأن تنفيذها يتم في إطار السياسة العامة للحركة، والتي تعلنها على الملأ، باستمرار هذه العمليات للرد على جرائم الاحتلال، فالمقاومة حق مشروع، طالما هناك احتلال، وبالتالي فإن وقتها مناسب، مادام العدو مستمراً في احتلاله الأرض، ويمارس القهر، والإذلال ضد شعبنا، ولم تكن هذه العمليات، يوماً ما، مرتبطة بزيارة هذا المسئول أو ذاك، أو تلك المبادرة،

أو تلك التفاهمات.

أحداث ١١ سبتمبر

في تساوق مع النقطة السابقة (مسألة التوقيت)، يأتي القول بأن هذه العمليات، بعد تفجيرات نيويورك دور واشنطن المرّوعة (١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١)، وضعت القيادة الفلسطينية في موقع بالغ الصعوبة، لنجاح شارون في إيجاد صلة بين هذه المقاومة والإرهاب، الذي ضرب الولايات المتحدة (١٦). وأن حقبة ما بعد سبتمبر/ أيلول لم يعد العالم فيها يتسامح مع العمليات (الانتحارية) ضد المدنيين الإسرائيليين، ويرى فيها إعلاناً للحرب على إسرائيل، ويتفهم ردود فعلها الدموية (١٧). وأن هذه الأحداث مناسبة للمعنيين في الساحة الفلسطينية للوقوف، في شكل جدي، أمام أشكال المقاومة المسلحة، ووضع حد لهذه العمليات (١٨).

ونحن نتساءل هل المجتمع الدولي قبل حقبة ١١ سبتمبر/ أيلول، تَسامَح، وتَساهَل، ووقف مع المظلوم، في أخذ حقه، أم أنه كان يتساهل ويتسامح مع الجلاد، الذي لم يلتزم بأي قرار من قرارات هذا المجتمع الدولي؟! ثم إن الفصائل الفلسطينية استجابت، غير مرة، إلى الضغوطات المختلفة، بعد ١١ سبتمبر/ أيلول، وأوقفت هذه العمليات "حتى لا توفر الذرائع لشارون"، من أجل تنفيذ خياراته الكارثية على الشعب الفلسطيني، إلا أن شارون وعصابته استمرءا إجرامهما ضد الشعب الفلسطيني، في عمليات الاغتيال، والاعتقال، وملاحقة نشطاء المقاومة، من الفصائل كافة. ربما كان أخطرها إرتكاب عصابات الإجرام لمذبحة غزة، واغتيال الشهيد صلاح شحادة (٢٢ / ٧ / ٢٠٠٢)، بعد أن تسربت أنباء عن وثيقة حوار وطني بين السلطة وحركة "فتح" من جهة، و"حماس"، وفصائل المقاومة من جهة أخرى، تقضي بوقف هذه العمليات.

منذ هجمات سبتمبر/ أيلول أعلن عرفات وقف إطلاق النار، ولم تنفذ فصائل المقاومة أية عمليات، لمدة طويلة، فكان أن قام شارون باجتياح الضفة الغربية، واغتيال محمود أبو هنود، أحد القادة الكبار في كتائب القسام، وقبله كان اغتيال عدد كبير من قادة "فتح"، و"حماس" و"الجهاد"، فجاء الرد عنيفاً، في ٢ / ١٢

/ ٢٠٠١، وخلال ١٢ ساعة، فقط، حين قتلت "حماس" حوالي ٣٠ صهيونياً، وجرحت أكثر من مائتين، فبادرت السلطة، خشية الرد الإسرائيلي، إلى إعلان حالة الطوارئ، وحل جميع التشكيلات العسكرية، فيما أعلنت "حماس"، من طرفها، وقف العمليات الاستشهادية [١٩]. غير أن عدوان إسرائيل، استمر، واغتالت، في طولكرم، مسئول "كتائب وشهداء الأقصى"، رائد الكرمي (١٤ / ١ / ٢٠٠٢)، لتندلع موجة أخرى من العمليات الاستشهادية.

هكذا لم تعطِ إسرائيل فرصة لأية فترة من الهدوء. ولعل حصار عرفات الأخير، في رام الله، (١٩ - ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٢)، وللمرة الثانية، على التوالي، يؤكد بأن إدانة عرفات للعمليات، وتجريم من يقومون بها، لم يشفع له عند الإسرائيليين.

إن ثمة دلائل لا تقبل الجدل على أن شارون كان، ولا يزال، عازماً على تحقيق برنامجه الأمني، بشطب أسس المقاومة، فلسطينياً، ولعل أهم تلك الدلائل أن شارون لم يستجب، في كل مرة، لعرض وقف إطلاق النار من طرف السلطة، وقوى المقاومة [٢٠].

نقول في هذا الصدد ما قاله رباح مهنا، عضو المكتب السياسي في الجبهة الشعبية (في غزة) "نحن نلاحظ التغيرات الدولية، واستغوال أمريكا، لكن كل ذلك يجب أن لا يصل إلى تعهير وتلويث، النضال الفلسطيني، كما يفعل البعض [٢١]. فلماذا توجيه اللوم، دوماً، للضحية، دون الجلاد، أم هي قمة الإفلاس السياسي والدعارة الفكرية"؟!.

مقاومة أم إرهاب/ أية أراض

أما القول بأن هذه العمليات تعمل على الخلط بين المقاومة والإرهاب، من قبل شارون والإدارة الأمريكية، وبالتالي أمام العالم/ وكما حدث، سابقاً، مع عمليات خطف الطائرات، واحتجاز الرهائن من قبل المنظمات الفلسطينية [٢٢]، فنعتقد، أولاً، بأن هذه المقارنة ظالمة، لأن خطف الطائرات، واحتجاز الرهائن، في حقبة الستينيات، والسبعينيات، كانت تتم على أراضي دول أخرى، مما كان يسبب الحرج لهذه الدول، وبالتالي كنا نفقد تعاطفها، ونخسره لصالح الصهاينة، عكس حال المقاومة، اليوم، التي استفادت من

دروس الماضي، وركزت عملياتها داخل فلسطين المحتلة فحسب.

أما خلط شارون والإدارة الأمريكية بين الإرهاب والمقاومة، بسبب هذه العمليات - وبالتالي يجب قصرها على مهاجمة الجنود المستوطنين في أراضي ١٩٦٧ - فهم لم يعترفوا بالمقاومة، أساساً، وباحتلالهم للأرض، لذا جميع الأعمال عندهم "إرهاب"، سواءً تمت في أراضي ١٩٦٧، أو أراضي ١٩٤٨. ولا ننسى تصريحات وزير الدفاع الأمريكي، رونالدرامسفيلد، التي اعتبر فيها أن اراضي ١٩٦٧، والمستوطنات التي بنيت فيها، هي أراضي خسرها العرب، أثناء الحرب، ولا يحق لهم المطالبة بها.

كذلك الموقف المخزي والمخجل للأمين العام للأمم المتحدة، كوفي عنان، واستنكاره - خلف أمريكا - لعملية الخليل النوعية (١٤ نوفمبر ٢٠٠٢)، والتي سقط فيها ١٢ ضابطاً، وجندياً صهيونياً، فهي عملية ضد عسكر، وفي أرض ١٩٦٧، وليدلنا السيد عنان وأمريكا على نوع من المقاومة، لا يعتبرونها إرهاباً، حتى نمارسه، حتى يرضوا عنا.

ثم إن وقف العمليات الاستشهادية، داخل أراضي ١٩٤٨ فحسب، كما يطالب البعض، وحصر المقاومة خارج "الخط الأخضر"، وداخل أراضي ١٩٦٧، من شأنه أن يدفع إلى التركيز على الأنواع الأخرى من المقاومة، لاستهدافها وصولاً، الى اعتبار الحجارة تهديداً لفرص السلام [*]. وهو ما حدث بالفعل، عندما اعتبر وزير الداخلية الفلسطيني (سابقاً) عبد الرزاق اليحيي في نفس تصريحاته التي أشرنا إليها في البداية، بأن على الفلسطينيين وقف كل أشكال العنف، بما فيها إلقاء الحجارة، والعودة إلى المقاومة المشروعة! ولم يقل لنا اليحيي المقصود بـ"المقاومة المشروعة"، بعد أن جرّم في تصريحاته، المقاومة المسلحة، وإلقاء الحجارة في أراضي ١٩٦٧.

ثم إن موقف اليحيي ليس جديداً على السلطة الفلسطينية، في تجريمها

---

* تصريحات مختلفة، لأمين سر مجلس وزراء السلطة، أحمد عبد الرحمن، الفضائيات العربية المختلفة، بعد كل عملية استشهادية، وقيام إسرائيل بقصف وتدمير مقرات السلطة الفلسطينية، وحصار عرفات.

للمقاومة، واستنكار عملياتها، حتى في أراضي ١٩٦٧.

تتجلى الازدواجية في خطاب السلطة، في تعاملها مع الانتفاضة، والمقاومة، حين يؤكد أمين سر مجلس وزرائها، أحمد عبد الرحمن * بأن هذه العمليات - حتى في أراضي ١٩٤٨ - مشروعة، وأن الاحتلال وإسرائيل لن ينعما بالسلام على هذه الأرض، داعياً إلى استمرار المقاومة، حتى يرحل الاحتلال عن أرضنا، وبين البيانات الرسمية الصادرة عن قيادة السلطة الفلسطينية والناطقين باسمها.

ثم إنه، وبحسبة بسيطة، لنسبة العمليات التي نفذت منذ بداية "انتفاضة الأقصى" و"الاستقلال وحتى الآن، فإن ما نسبته ٩٦٪ من هذه العمليات التي تمت في أراضي ١٩٦٧، و٤٪، فقط، تمت في أراضي ١٩٤٨، ونسبة القتلى الصهاينة حوالي ٧٠٠ قتيل حتى الآن، نسبتهم الأكبر من الجنود، حوالي ٦٥٪ من هؤلاء القتلى، سقطوا في أراضي ١٩٤٨، وتؤكد هذه الأرقام على مدى أهمية العمليات داخل أراضي ١٩٤٨، ما جعل نسبة القتلى من ١/ ٣ بين الفلسطينيين والصهاينة، وهي بالتالي التي حققت "توازن الرعب" مع العدو الصهيوني.

على أن الأمر المؤكد بأن وقف ضرب العدو في عمقه (فلسطين المحتلة ١٩٤٨) لن يجعله يوقف جرائمه. كما أن تنازل المقاومة عن الجبهة الأهم، والأكثر تأثيراً على الصهاينة، والاكتفاء بالجبهة الأبعد عن عمقه (الأرض المحتلة في الضفة والقطاع)، سوف يفتح الباب لتراجعها عن هذه الجبهة، أيضاً، لأنها في النهاية تهدف إلى ضرب الصهاينة، وهو ما لا يقبلوه، أيضاً، حيث يتعامل كل ساستهم، من اليمين واليسار، على أن أعمال المقاومة في أراضي ١٩٦٧، ومعهم أمريكا، كما ذكرنا في البداية، هو إرهاب، بنفس الدرجة، في أراضي ١٩٤٨، ويؤكد رئيس وزرائهم، أرييل شارون، ذلك، بقوله إن مستوطنة نتساريم في قطاع غزة، هي في نفس المقام لديه مع تل أبيب، أي أن ضربهم في تل أبيب سوف يؤدي إلى النتيجة نفسها!

التجمع الصهيوني

تعتبر الحجة القائلة بمسئولية هذه العمليات عن توحد واصطفاف التجمع

الصهيوني خلف حكومة شارون، ذات البرنامج الأمني، أحد أهم الحجج التي يثيرها البعض.

فشعور التجمع الصهيوني بالخوف، وعدم الأمان، يدفعه للالتفاف، حول أكثر زعاماته دموية، فبعدما كانت شعبية شارون تهبط، بإطراد، ارتفعت، في المرحلة الأخيرة، عندما قرر اللجوء إلى الوسائل الأكثر شراسة (٢٤). في حين أن شعور التجمع الصهيوني بالخوف، وعدم الأمان، هو المطلوب، طالما أن الشعب الفلسطيني نفسه يفتقد هذه الشعور بالأمن، أما الالتفاف حول شارون، وبرنامجه الأمني، فهذه طبيعة كل الشعوب، عندما تتعرض للمخاطر، يكون هناك وحدة مواقف، وهذا يحدث لدى الجانب الفلسطيني، عند تنفيذ المجازر الصهيونية، المتعطش، دوماً، لدماء العرب، فهي تركيبة مؤسسة على مفاهيم العسكرة، والجاهزية للحرب، في مختلف الظروف. وقد تركت آثاراً بالغة لا يمكن أن تتبدل على فهم وسلوكيات الصهاينة، وجعلت منهم مجتمعاً، الأمن غاية مبتغاه والسلامة همه الأكبر، وسط الهواجس الكثيفة التي تنتابهم، منذ تأسيس دولتهم وحتى اليوم، حول رغبة العرب في طردهم والقائهم في البحر، والتي هي بالمناسبة، أكذوبة صهيونية.

لذا يخطئ من يعتقد بأن العمليات الاستشهادية كانت السبب الأساسي والمباشر في توحد التجمع الصهيوني خلف شارون، الذي يعدهم بالأمان، فهذه طبيعتهم، وتلك تركيبتهم، ولن تجد إسرائيلياً واحداً مهما كانت مواقفه - من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، يقبل بأي نوع من أنواع المقاومة المسلحة، أو أي شكل من أشكالها، ولو بلغت حدها الأدنى، ذا الحظر الضئيل والمحدود (٢٥). ومع ذلك، فإن التركيبة الصهيونية ليست عقيدة مطلقة، غير قابلة للاختراق، أو جداراً فولاذياً، يستعصى على التذويب، فالصهاينة، ولشدة هلعهم، وبحثهم عن الأمن، لا يتم، دوماً، الالتفاف حول الزعامة، إذ كثيراً ما يؤدي فقدان الأمن، والاستقرار، والهدوء إلى إسقاط الحكومات الصهيونية، واحتدام الجدل الداخلي في الكيان الصهيوني.

لذلك، فإن التوحد الصهيوني خلف قيادة شارون يمكن أن يتكسر، ويشق طريقه نحو التحلل والذوبان، بمزيد من الضربات الجريئة، والاستمرار في العمليات الاستشهادية النوعية، لا بوقفها والدعوة للتخلي عنها.

يخشى البعض من حدوث مجابهات داخلية بين أبناء الشعب الفلسطيني الواحد، فاعتقال عدد من نشطاء "حماس"، وغيرها من الأعمال التي تتم على فترات، مؤشرات على إمكان حصول مواجهة داخلية - وإن كان يستبعدها دوماً، قادة الفصائل والسلطة، على حد سواء - لكن لا أحد يعلم، وهذا يعني بأن الوحدة الوطنية قد تتعرض لضربة قوية، بسبب الاختلاف حول استراتيجية المقاومة [٢٦]. ولعل هذا ما أدركته فصائل المقاومة الفلسطينية، والسلطة، عبر إجراء عملية مراجعة شاملة، وإعلان وثيقة وبرنامج حوار وطني (أغسطس، آب ٢٠٠٢) - وإن كانت لم تكتب لها النجاح - للخروج برؤية توائم طبيعة المرحلة، من دون إخلال بالثوابت، وبحقوق الشعب الفلسطيني، وللبحث عن الوشائج والقواسم المشتركة بين هذه الفصائل، بما يخدم المصلحة العليا للشعب الفلسطيني. ولهذا السبب، أيضاً، جرت الحوارات بين حركة "فتح" وحركة "حماس"، في القاهرة، (١ - ١٢ / ١١ ٢٠٠٢)، والتي من المتوقع لها أن تستأنف، مجدداً، لنزع فتيل الفتنة، وشبح الاقتتال الداخلي، ولحقن الدماء، والتفرغ لمواجهة العدوان الصهيوني المستمر.

على أنه لا يمكن تحميل العمليات الاستشهادية، وحدها، وزر شبح الحرب الأهلية، والاقتتال الداخلي، إذ إن الساحة الفلسطينية، والعلاقات الفلسطينية - الفلسطينية، تموج، وتمر بالكثير من القضايا، التي تؤسس، وتؤصل لحالات الاحتقان الموجودة بين السلطة وفصائل المقاومة من جهة، وبين الفصائل وبعضها من الجهة الأخرى، وتلكم قضية أخرى.

توفير المبرر

لعل من اخطر القضايا، التي درج المشككون في جدوى العمليات الاستشهادية على طرحها، قضية توفير هذه العمليات المبرر والذرائع لحكومة شارون، للاستمرار في شن حربها المستعرة ضد الفلسطينيين. ولعل القول بأن "الحملات العسكرية الصهيونية الكبرى التي شنت، مؤخراً، ما كانت إلا رداً على العمليات الاستشهادية، التي اتخذت، ذريعة مناسبة لها" [٢٧]، هو القول الأخطر، والأكثر خداعاً، وتضليلاً على الساحة، اليوم، إذ يكفي حصر عدد،

وحجم، ومستوى العمليات العسكرية الصهيونية، الممارسة يومياً، كي نتبين مدى زيف هذه الأكاذيب، والأباطيل التي تستهدف تلويث عقول الفلسطينيين، والعرب والمسلمين، وتشويه صورة المقاومة الناصعة في أنظارهم، وتقليل جدوى النتائج الهامة والخطيرة التي تحققها.

وكان الأجدى، والأجدر بهؤلاء، الحديث عن عمليات القصف، والتجريف، التي طالت قطاع غزة، وسقوط أكثر من ٣٠٠ شهيد فلسطيني، وإصابة ما يقرب من الألف، في الأشهر الأولى لاندلاع الانتفاضة، دون أية عمليات فلسطينية، فضلاً عن عمليات الاغتيال الخطيرة، في أوقات الهدوء، وفترات وقف وإطلاق النار، التي استهدف بعضها قادة ومسئولين سياسيين، والتي هي بمثابة نوع من الأدلة والبراهين على المنحى العسكري المتواصل، صهيونياً، وغير المتصل بالمسار البياني، والفاعلية الميدانية لعمليات الفلسطينيين، حتى اجتثاث المقاومة الفلسطينية، وكسر إرادة الجهاد، والمقاومة، وروح الفداء والصمود في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني، مما يشير بجلاء إلى حقيقة المخطط العسكري الصهيوني، ذي الفصول والمراحل المتعددة، الذي يتواصل، ويأخذ مداه، بمعزل عن أية مقاومة فلسطينية [٢٩]. كذلك حين يفضح المسئولون الصهاينة أنفسهم بأنفسهم، فيؤكدون بأن حملة "السور الواقي"، في مارس/ آذار ٢٠٠٢، قد خطط لها في سياق محاولات ضرب المقاومة الفلسطينية، وتحطيم الكيان الفلسطيني السياسي، وقولهم بأن عملية اجتياح غزة، التي تقررت بعد عملية ريشون لتسيون الاستشهادية (أيار/ مايو ٢٠٠٢)، قد أعدت سلفاً، ولم ترتبط بأي علاقة بالعملية الاستشهادية.

لعل أكثر ما يثير الاستغراب والدهشة قول الكاتب عفيف الأخضر بأن العمليات الانتحارية، قدمت المتكأ الأمني لتقطيع أوصال الضفة الغربية إلى ٨ كانتونات، وغزة إلى ٤، لطرد المستثمرين، وخنق الاقتصاد، ووأد الدولة الفلسطينية المتصلة، جغرافياً، في المهد [٢٩]. كلام شديد الغرابة، فأين هي الدولة الفلسطينية المتصلة جغرافياً، والتي جاءت العمليات الاستشهادية لتقطع أوصالها؟! ثم هل تقسيم الضفة والقطاع إلى كانتونات، تم بعد ظاهرة العمليات الاستشهادية، أم هو وليد اتفاقيات أوسلو البغيضية؟! ثم أين هم المستثمرون، وأين هو الاقتصاد الذي تم خنقه؟ ومن الذي خنقه؟! أليس الاحتلال؟! نحن لا

ننتظر إجابات من الأخضر، الذي يبدو أنه يعيش في كوكب آخر.

يبلغ الشطط بالأخضر مبلغه، حينما يدعي بأن هذه العمليات تقدم خدمة جليلة لشارون، لشن حربه، وعمله على تيئيس الشعب الفلسطيني من المستقبل، وتعميق وعي الهزيمة لديه. بينما إذا كان شارون يحاول تعميق وعي الهزيمة لدى الشعب الفلسطيني، بجرائمه ومذابحه، وحصاره، فإن هذه العمليات بمثابة البلسم الشافي، التي تجدد وتحيي الأمل لدى هذا الشعب، بأن ليل الاحتلال سينجلي.

ثمة محاولة المثبطين والمنهزمين في قيادة السلطة الفلسطينية، وبعض العرب في مواقع المسئولية، ومن على شاكلتهم، المتاجرة بالألم والجرح الفلسطيني، والتركيز عليه، ومحاولة تمرير فكرة أن هذه الآلام تنسى مقدار الألم، والرعب، وحجم الخسائر التي حققتها العمليات الاستشهادية في الكيان الصهيوني، والتي لم يشهد لها مثيلاً، منذ قيامها، حسب اعترافات قادته.

السياسي والعسكري

إن ترديد البعض لعبارات ومفاهيم تمويهية، مثل "الواقعية السياسية"، و"المقاومة السلمية الشعبية" أجدى وأنفع، لإحراج إسرائيل أمام العالم، وحتى لا يتم تعطيل الحملة الدولية الفلسطينية والعربية الهادفة، إلى فضح سلوك الاحتلال، كما يزعمون، وكسب الرأي العام العالمي، لهي من قبيل الدعارة الفكرية، وهي، في حقيقتها، ليست سوى التجسيد الأمني للفكر التطبيعي، للمحافظة على مصالحهم، ومصالح العدو الصهيوني.

فالأخضر، والمتخصص في إهانة المقاومة عموماً، وحركة "حماس" خصوصاً، يدعو إلى الانتقال من العمل العسكري، "الذي قاد إلى الكارثة" - وهو هنا لم يقصر المطالبة على العمليات الاستشهادية بل تعداها إلى المقاومة المسلحة في أراضي ١٩٦٧ - إلى العمل السياسي الصبور والواقعي، فالواقعية السياسية تتطلب من "حماس" و"الجهاد"، و"كتائب الأقصى" التحول، دون إبطاء، إلى تنظيمات سياسية، بلا ميليشيات أو انتحاريين - وكأننا تحررنا من الاحتلال، وأصبح لدينا دولة المؤسسات، والمجتمع المدني، والحياة النيابية، فوجب التحول إلى أحزاب سياسية، تتطلع للوصول إلى السلطة

- فالذي تمارسه "حماس" من عمليات ما هو إلا "توريط للسلطة الفلسطينية"، وعلى الفلسطينيين خوض الحرب الإعلامية، بدلاً من العمليات "الانتحارية" والشعارات العنترية، والاستراتيجيات الثأرية، التي إرتدت في نهاية المطاف، إلى نحر الشعب الفلسطيني (٣٠). وفي مقال آخر، يتهم الأخضر "حماس" في وعيها السياسي، ويقول أن المعارضة الراديكالية هي المسئولة عن الزلزال الفلسطيني، مازالت لم تع، بعد، أن تغيير المعطيات السياسية يفرض عليها تغيير قناعاتها، وممارساتها القديمة، فالمراقب السياسي يلاحظ عند قراءة خطاب "حماس" عن العمليات الاستشهادية، يتأكد من ذلك، مما جعل صنعها لقرارها متناقضاً مع منطلق صنع القرار السياسي المعاصر، ويردد الأخضر ساخراً من "حماس" وخطابها، مثلاً "سلاح العمليات هو ورقتنا الرابحة التي حولت ضعفنا إلى قوة"، و"إسرائيل عندها الأباتشي وإف ١٦، ونحن عندنا الاستشهاديين" نزع السلطة لهذا السلاح يعتبر أكبر خدعة للاحتلال، الذي يعيش كابوساً مزعجاً من هذه العمليات" (٣١).

لايزال الأخضر يرفع صوته على الشعب المجاهد، ومقاوميه الأحرار، فنسي، وهو يطالب الشعب الفلسطيني بخوض الحرب الإعلامية والمقاومة السلمية - وكأنه يريد أن يذكرنا بما فعله نهرو - الفوارق العديدة والكبيرة بين الاستعمار البريطاني لقارة واسعة الأرجاء، في ظروف معينة، وبين الكيان الصهيوني الطامع، في الأرض ذاتها، وسياسة الإبادة التي يمارسها جيش أبغض احتلال عرفه التاريخ، كما يصفه الكاتب المصري المرموق، د. عبد الله الأشعل.

المدنيون

من المغالطات والقضايا التي يثيرها، ويرددها "اللوبي" المنتشر في العالم العربي في نقدهم للظاهرة الاستشهادية، المسألة الأخلاقية في قتل المدنيين الصهاينة، فيعمدون أنفسهم مبشرين لقيم الاستنارة، والرحمة، واستعادة العافية الأخلاقية، والجوهر الإنساني.

نحن لا نقول ذلك لأننا غير إنسانيين، وهم إنسانيون جداً، بل لأن هذه قضية حق يراد بها باطل، ومتهاوية حتى النخاع.

فبعيداً عن مقولة "إن التجمع الصهيوني تجمع عسكري من الطراز الأول" وأن لكل دولة، ولكل شعب جيشاً يحميه، أما إسرائيل فهي "جيش له شعب ودولة"، "إذ يكفي اتصال هاتفي سريع من قبل الجهات الأمنية المختصة، كي ينتقل (الإسرائيلي) من حالته المزيّفة المضلّلة إلى حالته الواضحة الحقيقية، وينزع رداءه المدني المؤقت، ليتسربل برداءه العسكري (الأصيل)، وينطلق في عمق الأراضي الفلسطينية، قتلاً، وتدميراً، وعبثاً، وإفساداً، وسفكاً للدماء" (٣٢) وبعيداً عن القول بأنهم هم الذين يعرضون أنفسهم للقتل بسبب تركهم دولهم الأصلية، والقدوم إلى أرض مُغتصبة محتلة بعيداً عن كل ما سبق، نقول إن المقاومة الفلسطينية ضد قتل الأطفال، والنساء، والأبرياء، عمداً، والذين يسقطون من الأطفال، والنساء، في بعض عمليات التفجير العشوائية، يتحمل وزرهم ذووهم، الذين صوتوا لآرئيل شارون، كما يتحمل وزرهم المجتمع الدولي، وخصوصاً العقل الأمريكي والأوربي، المتفق على عدم إعطاء الفلسطينيين حقوقهم، ومن ضمنها حق التسلح.

فبإقفال الأبواب أمام الفلسطينيين، وفقدانهم للعدل، وكيل الأعداء بمكيالين، لا يتركون من خيار للفلسطينيين سوى عمليات التفجير.

رغم ذلك، يلاحظ المراقب بأن عمليات التفجير تحدث ليلاً، في وقت يسعى فيه المقاومون، ما استطاعوا، تجنب قتل الأطفال، أو في ساعات الصباح، التي يكون الأطفال فيها في المدارس.

وليس وقوع طفل قتيل، هنا أو هناك، على الرغم من بشاعته، سوى خطأ قدري، لم يتمكن المجاهدون من تفاديه (٣٣). وجدير هنا أن نذكر حديث للشهيد

* بلال شحادة، هو ابن أخ الشهيد القائد العام للكتائب القسام، صلاح شحادة.

* * هذه العملية تم التكتم على نتائجها من قبل إسرائيل. أما بيان "كتائب القسام" فقال إن مجموعات الرصد التابعة للكتائب، شاهدت المروحيات العسكرية، المختصة بنقل القتلى والمصابين، تحلق وتهبط، مراراً، في مكان العملية، مما يؤكد وقوع قتلى وإصابات (بيان كتائب القسام، ١٢ / ٣ / ٢٠٠٢) وكانت قوات الاحتلال، قد اقتحمت، ليلة تنفيذ العملية مخيم جباليا، مسقط رأس الشهيد بلال، وارتكبت مجزرة، راح ضحيتها ١٨ فرداً، في انتقام واضح من العملية.

صلاح شحادة، القائد العام "لكتائب القسام"، حيث قال، في إحدى حواراته [٣٤]: "إننا لا نستهدف الأطفال، ولا النساء، ولا الأبرياء، فكثير من الأهداف سهلة أمامنا ومفتوحة، ولكننا نحجم عن استهدافها، مثل المستشفيات والمدارس". وذكر أنه في واحدة من العمليات، وهي عملية الشهيدين بلال شحادة *، ومحمد حلِس، عندما قاما باقتحام مستوطنة نتساريم، قابلتهما امرأة وطفلتها الصغيرة، في إحدى غرف المستوطنة، وقد كانا على اتصال بمجموعة الرصد، فتركاها لحال سبيلها،، ثم واصلا عملية اقتحام المستوطنة، واشتبكا مع جنود العدو، قبل أن يستشهدا **.

"حماس" استهدفت وللمرة الاولى، الجامعات الصهيونية، عندما قامت إحدى مجموعاتها بتنفيذ العملية النوعية، عبر تفجير حقيبة عن بعد (٣١/ ٧ / ٢٠٠٢) في الجامعة العبرية بالقدس، وكان ذلك بعد عملية اغتيال شحادة، بأسبوع واحد فقط، حيث كانت قد أعلنت، بعد استهداف مؤسس جناحها العسكري، وقتله، في جريمة بشعة، في مجزرة الدرج* بغزة، أن لا محرمات في هذه الحرب، بعد اليوم، وطالبت من جميع خلاياها وجناحها العسكري استهداف كل مغتصب صهيوني، وكل منشأة صهيونية على أرض فلسطين، وقد أوفت "حماس" بالوعد، وكان استهداف الجامعة العبرية، لأول مرة.

الجدير ذكره أن سلسلة عمليات التفجير كانت قد بدأت داخل الكيان الصهيوني، بعد تنفيذ مجزرة الحرم الإبراهيمي، في ٢٥ / ٢ / ١٩٩٤، ضد المصلين الأبرياء، حيث تعهدت "حماس" بتنفيذ خطة حماسية في قلب مدن الكيان، للرد على هذه المذبحة، وذكر بيان "كتائب القسام"، الصادر بعد تنفيذ المجزرة، أنه، "من اليوم فصاعداً، سوف يتم استهداف ما يسمى بالمدنيين الصهاينة، بعد أن كنا نستهدف، فيما سبق، جنود الاحتلال، وقطعان المستوطنين المدججين بالسلاح، وليعلم الصهاينة أن العين بالعين، والسن بالسن" [٣٥]، أي أن إسرائيل هي التي فتحت أبواب جهنم، كل مرة، ثم رفعت من وتيرة التصعيد.

** مجزرة الدرج بغزة، (٢٣/ ٧/ ٢٠٠٢ والتي استهدفت الشهيد شحادة سقط فيها (٢٠) من المدنيين الأبرياء، نصفهم من الأطفال، وتم إصابة العشرات، واستخدمت فيها قنبلة تزن طناً، تستخدم في تفتيت صخور الجبال.

على الجانب المقابل فإن أكثر من ٥٪ من شهداء "انتفاضة الأقصى والاستقلال" أطفال، ونسبة كبيرة منهم، سقطت برصاص أصاب الجزء العلوي من أجسادهم، أي برصاص القنّاصة، مما يلقي بظلال ثقيلة، على كل المتقولين بإنسانية "الإسرائيليين"!

لو تجاوزنا كل التفسير السابق، فإن ما يسمى "إسرائيل" أخذت طريقها للوجود، من خلال عمليات التفجير، والقتل الجماعي، الذي لم يفرّق بين الطفل، والمسن.

حتى الساعة يرفض هذا الكيان الاعتراف بمسئوليته الأخلاقية عن تلك الجرائم، والاعتذار عنها، والتعويض للمتضررين منها، بل يستمر في ارتكابها، في شكل منهجي واضح، فنحن، إذن أمام عقل كلي، يؤمن بالجريمة، والقتل وسيلة للاستمرار، وللوجود، لا بالتعايش (٣٦).

الراي العام العالمي وانصار السلام

من الأمور التي يثيرها المندوبون بالعمليات الاستشهادية، ويحذرون منها، مسألة "كسب الرأي العام العالمي"، وتأثير هذه العمليات على أصدقاء وأنصار السلام في التجمع الصهيوني، وبالتالي فقدان الضغوط على حكومة إسرائيل، وفقدان الموقف الدولي، المساند للشعب الفلسطيني *.

هذه الحكاية لم تعد مقنعة، بأية حال، خاصة بعد مذبحة مخيم جنين، والالتفاف على تقرير الأمم المتحدة الخاص بالمجزرة، وتبرئة إسرائيل بعد كل الشواهد الحية التي شهدها العالم، وتناقلتها شاشات التلفزيون، لتثور آلاف التساؤلات الجدية، حول دور الرأي العام العالمي، حيال العدوان الصهيوني، وقمعه اللاإنساني بحق الشعب الفلسطيني، وسر عجزه عن فرض قرارات الشرعية الدولية الكثيرة التي أدانت ممارسات الاحتلال، منذ عشرات السنين، وسر ثورته حيال مشاهد القتلى الصهاينة، فيما يسقط الفلسطينيون شهداء بالمئات،

* كلمات وتصريحات يكتبها ويرددها، أقطاب "لوبي التطبيع" مع إسرائيل، المنتشر في أرجاء من الوطن العربي، في معظم وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

دون إدانة أو ضجيج (٣٧).

فالوضع الدولي لم يقدم شيئاً للفلسطينيين. أما الموقف الأمريكي، فبات مفضوحاً، في تحيزه. ثم أليس هناك ضغوط على الشعب الفلسطيني من المجتمع الدولي، لا من أجل وقف المقاومة المسلحة في أراضي ١٩٦٧ وحسب، ناهيك عن المقاومة في أرض ١٩٤٨، بل أيضاً وقف الانتفاضة الشعبية؟!

ثم أننا لم نسمع عن شعب استعاد أرضه، وحريته، واستقلاله، بسلاح الرأي العام العالمي، الذي يسيطر عليه أعداؤه، فإذا كانت كل هذه المجازر والمذابح التي ترتكب بحق البشر، والحجر، والشجر، والثمر الفلسطيني، لم تحرك ساكناً في هذا الرأي العام، فما الذي سيحركه، إن لم تكن مثل هذه العمليات؟!

نحن لا ننكر مدي أهمية الرأي العام العالمي، وضرورة السعي لكسبه وضمان تأييده، ولكن في سياقه الطبيعي، دون أن يعني ذلك تنصيبه قاضياً على مسيرة مقاومة الفلسطينيين، أو محدداً لوجهتهم، وسياساتهم، غير أن الإشكالية التي تقف حجر عثرة في وجه تحقيق هذا الهدف، أن الرأي العام العالمي يقع تحت تأثيرات إعلامية خطيرة، يقودها اللوبي الصهيوني، الذي يملك مؤسسات إعلامية كبرى، ويؤثر على مؤسسات وشركات ضخمة أخرى، تملك وسائل التوجيه، على مستوى العالم قاطبة، فقضية قتل ما يسمى "بالمدنيين الإسرائيليين" دعاية، يتم التركيز عليها من قبل اللوبي الصهيوني، وإعلامه، في حملة للتشويه، والتشكيك، والخلط.

إن هذا الأمر مقصود، حتى من المنظمات الدولية، التي تدعي مناصرة حقوق الفلسطينيين، ثم تتعامى عن الحقيقة، وترى بعيون صهيو- أمريكية.

فشبكة علاقة هذه المنظمات والهيئات وثيقة الصلة بإسرائيل، وهي غير مقتنعة بأن الإسرائيليين مغتصبون لأرض فلسطين، ومن ثم لا تعتبرهم اهدافاً عسكرية مشروعة.

فضلاً عن التوجيه الإعلامي غير المتوازن، الذي تمارسه كثير من دول العالم حيال القضية الفسطينية، والواقع تحت ضغط الإبتزاز الصهيوني، مما يجعل التعويل على أي تعاطف دولي كامل أمراً مشكوكاً فيه، وغير قابل

للتحقيق.

وإلى ذلك أين كان الرأي العام العالمي؟ وماذا فعل، عندما كنا في انتفاضة ١٩٨٧ المجيدة الأولى، بطابعها الشعبي، حيث لم تكن مثل هذه العمليات موجودة، ولم يكن هذا التكتيك، في حين كانت الآلة العسكرية الصهيونية تعمل قتلاً وتشريداً في الشعب الفلسطيني، الذي انتظر العالم، لأكثر من خمسين عاماً، ليخلصه من نير وذل وقهر الاحتلال، لكنه لم يفعل! وعندما ترجم شعبنا الفلسطيني إرادته الصلبة، لأخذ حقه بيده، وعبر تلك العمليات، وبعد أن استنفد كل الوسائل، رأينا بين ظهرانينا من يعتبر ذلك إرهاباً، وإساءة إلى صورتنا أمام الرأي العام العالمي!

ليس صحيحاً أن العمليات الاستشهادية قد بررت التعاطف الدولي، أو منعت الإسناد العالمي للقضية الفلسطينية، بعد أن تجاوز عمرها الأربعة وخمسين عاماً، لم تعرف العمليات الاستشهادية، إلا في السنوات الأخيرة، فيما بقي العالم بأسره صامتاً إزاء المعاناة الفلسطينية المتصاعدة، أكثر من ثلاثة وأربعين عاماً، لم تحدث فيها عملية استشهادية واحدة، دون أن يحرك ساكناً لنصرة وإنقاذ الفلسطينيين.

تبقى قضية أخيرة في هذه النقطة مؤداها أن ثمة أصواتاً في الغرب تتفهم هذه العمليات، ودوافعها، وتحمّل الإحتلال، وإسرائيل المسئولية.

فهناك تصريح السيدة شيري بلير، زوجة رئيس وزراء بريطانيا - وإن كانت قد تراجعت عن هذه التصريحات، تحت ضغوط الجماعات الصهيونية - وهي المحامية المعروفة باسم مس بوث، قالت إن هذه العمليات هي نتيجة فقدان الأمل في تقديم حل للقضية الفلسسطينية، ولم تستنكر هذه العمليات، بل رأت بأن استمرار الاحتلال هو السبب [٣٨]. كذلك تصريحات مؤسس شبكة سي. إن. إن الأمريكية، تيدتيرنر الذي قال: "الفلسطينيون يقاتلون بكل ما لديهم، أي بقنابل (الانتحاريين)، والإسرائيليون يستخدمون أقوى الأسلحة، إذن من هم الإرهابيون؟! يمكنني الزعم بأن كلا الجانبين متورط في الإرهاب" [٣٩].

أما "أنصار السلام في إسرائيل" فنحن نتساءل هل استطاع يوسي سريد وأوري أفنيري، ولطيف دوري، وسواهم، من "معسكر السلام" الصهيوني،

منع دبابات الحقد الصهيوني من التسبب في أبشع المجازر المتواصلة ضد الشعب الفلسطيني.

ثم إن هؤلاء، عندما يتظاهرون، ويرفعون أصواتهم في وجه حكومتهم، الموغلة في دمنا، لا يفعلون ذلك حباً في سواد عيون الشعب الفلسطيني، وإنما خوفاً على وجود إسرائيل، ومصيرها من جهة، ونكاية في حكومة شارون، ومن معه من جهة أخرى.

حتى لا تكون ذاكرتنا ضعيفة، أو نتهم بالنسيان، علينا بأن نتذكر بأن هؤلاء باركوا قصف الطائرات في بداية "انتفاضة الأقصى والاستقلال"، عندما كان باراك وحزب العمل لا يزالون في الحكم، ورفض أولئك الأنصار التظاهر، على اعتبار أن الفلسطينيين لا يريدون سلاماً، وضيّعوا فرصة تحقيقه، بعد رفضهم ما عرضه عليهم باراك، في كامب ديفيد الثانية، فهم غير جادين في طلب السلام، بل يريدون تهديد أمن إسرائيل!

أيضاً، كل هؤلاء لم يبرزوا كقوة داخل إسرائيل، تقنع الفلسطينيين، وتظهر لهم، بالملموس، بأن حقوقهم كاملة غير منقوصة، يمكن أن تعود إليهم، من غير استخدام الكفاح المسلح، وأشكاله المشروعة، والمتعددة.

بيان نسيبه وجماعته

في يوم الأربعاء ١٩/ ٦/ ٢٠٠٢ نُشر في صحيفة "القدس" المقدسية بيان على صفحة كاملة، وفيه نداء ممن نحسبهم من أبناء شعبنا إلى أولئك الذين يقفون من وراء العمليات الاستشهادية، التي تمس بالمدنيين الإسرائيليين بأن يتوقفوا عن تنفيذ تلك الهجمات. بسبب الأضرار التي تتسبب فيها هذه الأعمال، مثل توفير الذريعة لحكومة إسرائيل، من أجل تصعيد عدوانها ضد الشعب الفلسطيني، والإضرار بهيبة السلطة الفلسطينية، وتشويه صورة النضال الوطني الفلسطيني أمام الرأي العام العالمي.

الموقعون على البيان الذين يتباكون على الضحايا من المدنيين الإسرائيليين، الذين يتساقطون بفعل العمليات الاستشهادية.

وقد حفلت تصريحاتهم لتبرير فعلتهم بمهاجمة أبطال العمليات الاستشهادية،

بذريعة أن هذه العمليات تكرس الحقد بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي!

مجرد ملاحظات

- عند النظر إلى أسماء الموقعين نلحظ أن هناك تبايناً في مواقف كل منهم بالنسبة لقضية المقاومة عموماً، فمنهم من هو ضد العمليات الاستشهادية داخل أراضي ١٩٤٨، ومنهم من هو ضد المقاومة والانتفاضة عموماً، ويدعو إلى جعلها انتفاضة سلمية، وعصيان مدني، والدعوة إلى المسيرات التي يتخللها الإنبطاح على الطريق في وجه الدبابات تارة، والرقص أمام هذه الدبابات تارةً أخرى، فيما يتوزع الآخرون على ساسة يحملون وفاءً مزمناً للاحتلال ويتاجرون بقضايا الوطن خدمة له، وأرادوا تقديم عربون صداقة للمرحلة المقبلة.

- يرى المتصفح لأسماء الموقعين العجب العجاب، إذ إن هناك قلة من الشخصيات الوطنية المعروفة، تم الزج بها للتوقيع على البيان، لكن الأغرب أنك ستجد أسماء وهمية مثل د/ سعدية طحلة، وأسماء بعض المخبولين المعروفين "بشير عمار" في غزة [٤٠] إلى جانب بعض الأسماء المعروفة بتفريطها، وخياناتها، وارتباطاتها المشبوهة، مما يفقد الشرعية لهذا النداء.

- في هذا النداء لم يذكروا الاحتلال ولو بكلمة، وحملوا الضحية المسئولية، عكس بيانات سابقة كانت تدعو إلى وقف ما يسمى بالعنف وعلى الجانبين.

- النداء مدفوع الأجر مسبقاً، حيث تم تمويله من قبل الاتحاد الأوربي محسوباً من المساعدات المقدمة للشعب الفلسطيني، حسب ما ذكر في الصفحة نفسها، من يومية "القدس".

- آخر البيان ذُيل بجملة من يرغب إضافة إسمه مراسلتنا على العنوان "ونشروا عنواناً" وكأنهم يستجدون التواقيع، وكان حرياً بهم أن يضعوا حملة وهناك مكافأة مجزية إلى جانب جملتهم السابقة، والمفارقة العجيبة، أنه حدث العكس، حيث قام بعض الموقعين على البيان بالتوقيع على بيان آخر، عدلوا فيه ما تلافوه وتناسوه في البيان السابق من ذكر للاحتلال وإجراءاته القمعية بحق الشعب الفلسطيني، وذلك بعد أن أحسوا بمدى عزلتهم [٤١].

- الحديث عن تأثيرات سلبية لهذه العمليات على قضايانا الوطنية، يبدو نفاقاً مفضوحاً، فأين كانت تلك الإيجابيات التي يمكن تحقيقها، طوال الفترات الزمنية التي لم يستخدم فيها السلاح؟!

وهل هناك من يمتلك يقيناً بأن حقوقنا سنستردها، وأن عدونا سيوقف عدوانه علينا، إذا ما توقفنا عن الدعوة للمقاومة وللعمليات الاستشهادية.

- أما الحديث عن هيبة السلطة، فهم كمن يضع رأسه في الرمال، كالنعامة، فهم يتجاهلون حقيقة أن إسرائيل لم تترك للسلطة هيبة تذكر، من خلال تدميرها مقراتها، ومؤسساتها وأجهزتها الأمنية، وحصارها رئيس السلطة، ومنعه وكل رجاله من التحرك، إلا بإذن منها.

ثم لماذا يتذكر هؤلاء هيبة السلطة، عندما تقوم المقاومة بالرد على العدو الصهيوني، والدفاع عن شعبنا، والثأر لشهدائه، ولا يتذكرون هذه الهيبة، عندما تقف السلطة عاجزة حتى عن الدفاع عن نفسها [٤٢].

- أما الخطيئة الكبرى والتي لا تغتفر، فحينما أُلبست العمليات الاستشهادية لبوس الجرائم المدانة، والأعمال المشينة، وألصقت بها من المساوئ والاتهامات بما لا يتصوره عقل، أو يقبله منطق، بتحميلها مسئولية تكريس البغض، والحقد، والكراهية بين الشعبين، الفلسطيني و"الإسرائيلي". فلم يكن أي فلسطيني، في أي يوم من الأيام، يتوقع أن تنعكس الصورة، وينقلب المنطق، وتختل المفاهيم، كما في هذه الحالة، وان يحصل الاحتلال على صك براءة لقاء جرائمه الفادحة.

من المحزن حقاً أن يتهم هؤلاء العمليات الاستشهادية بإثارة الحقد والكراهية بين الشعبين، بينما هذه العمليات لم تنطلق - أصلاً - إلا ردعاً للمحتل وكسراً لحدة عدوانه [٤٣].

- لعل أخطر السقطات التي انزلق إليها أصحاب النداء، ما كان من تزامن نشره وبإطلاقه بعد عملية "السور الواقي" التي صبت حممها وجام غضبها وحقدها لتطال مختلف مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية، والتي كانت أقوى ما ذهب إليه العدو الصهيوني في الجانب العسكري لمواجهة العمليات الاستشهادية،

بهدف تحجيمها من جانب وإعادة الثقة، ورفع الروح المعنوية للجيش وللتجمع الصهيونيين، اللذين عاشا أسوأ حالاتهما، منذ قيام الكيان الصهيوني، حيث تكللت حالة الانهيار بعملية "نتانيا" الاستشهادية الكبيرة، التي نفذها الشهيد البطل عبد الباسط عودة من "حماس" (٢٨/ ٣/ ٢٠٠٢) والتي أسفرت عن سقوط ٢٩ قتيلاً صهيونياً، وأكثر من ١٠٠ جريح، معظمهم من الجنود، عشية عملية "السور الواقي" وبدا وكأن المقاومة تخرج من بين الأنقاض، ومن بين القتل والدمار والخراب الصهيوني الزاحف لخنق كل أخضير، وبدت أنها قادرة على أن تتجدد، وأن تتمدد، وأن تتوعد في آن واحد.

فجاء هذا النداء بالغ السوء في توقيته، وبدأ أشبه ما يكون بالجائزة "الكريمة" والمكافأة "الأصيلة" للهجمة الصهيونية الجديدة، والانتشال من الحالة السوداوية التي يعيشها الكيان، أو أنه الإنهزام النفسي والاستسلام الداخلي والإفلاس الفكري لهؤلاء، أمام سطوة وبطش الاحتلال.

- يعلم العدو الصهيوني، علم اليقين، أن استئناف العمليات الاستشهادية، بعد عملية السور الواقي، سوف تكون له نتائج كارثية على تجمعه، وهو ما حذر منه القادة العسكريون في جيش الكيان مراراً وتكراراً، لذلك كان لابد من القيام بهذا الجهد الكبير الذي تقوده الولايات المتحدة ويموله الاتحاد الأوربي، لوقف هذه العمليات.

هكذا يبدو بأن الرهان لدى الكيان الصهيوني ومن خلفه أمريكا، هو على اختراق حالة الالتفاف الجماهيري المحلية والعربية والإسلامية، من حول العمليات الاستشهادية من خلال أدواته المنتشرة في فلسطين وفي البلاد العربية، وتركيز الضغط، في حملة إعلامية عالمية على المقاومة والعمليات الاستشهادية، بعد الصمود الأسطوري للمقاومة الفلسطينية، بعد كل حملات شارون العسكرية.

ردود أفعال

ردود الأفعال على مستوى قادة فصائل المقاومة وعلى مستوى المثقفين المؤيدين للعمليات الاستشهادية، وعلى المستوى الشعبي، كانت قوية وحادة، تليق بالرد على مثل هذا البيان.

الكاتب الفلسطيني المعروف عادل أبو هاشم، والمقيم في الرياض، رأى أن هناك نفراً من المثقفين والكتاب الفلسطينيين وعلى رأسهم سري نسيبه، وحنان عشراوي، وبعض البسطاء من أبناء الشعب الفسطيني لا يزالون يبحثون عن مغنم، مما تبقى من "كعكعة أوسلو".

هؤلاء النفر قد عميت قلوبهم وفسدت ضمائرهم في التسابق على تشويه تاريخ نضال وجهاد الشعب الفلسطيني، مروراً بتحريم * العمليات الاستشهادية.

وتناسى الموقعون على البيان بأن الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية هو السبب وهو أساس الداء، ومصدر البلاء. هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم "مثقفي الشعب الفلسطيني" هم كالمغردين خارج السرب، ويعد نشرهم مثل هذه الادعاءات والأباطيل، في هذا الوقت بالذات، خادماً للعدو الصهيوني الذي يشن حرب إبادة على الشعب الفلسطيني.

إن كتابات من هذا النوع، هي كالسموم القاتلة، وتهدف إلى إثارة الفتن، وإشاعة الروح الانهزامية والاستسلام، وتشجيع العدو على مواصلة عدوانه.

وتساءل الكاتب نفسه "هل سنرى قريباً، بيانات في الصحف من هؤلاء المثقفين، تطالب بالتخلي عن المسجد الأقصى، وقضية اللاجئين، والمياه، والسيادة، والحدود لقد سبق لسري نسيبه أن دعي إلى التخلي عن "حق العودة" للاجئين، قبل عدة شهور، وبعد أن تسلم "ملف القدس" في (أكتوبر، تشرين الأول ٢٠٠١) بعد أشهر من وفاة فيصل الحسيني، ألقى خطاباً في الجامعة العبرية يقول فيه "لن يعم السلام ولن تقوم دولة فلسطينية إلا إذا تخلينا عن مطلب العودة إلى الديار، وأن الانتفاضة الملطخة بالدماء هي حالة من التشنج وليست ثورة شعبية!! وسبق وأن طالب من الفلسطينيين عام (١٩٨٥) بالتوجه بطلب حمل الجنسية الإسرائيلية، وبالتالي، الإندماج أو الذوبان في المجتمع الإسرائيلي.

---

* لقد وعد أحدهم بالعثور على شخصية دينية بارزة، تفتي بتحريم استمرار الانتفاضة والعمليات الاستشهادية.

وفي عام ١٩٨٦ أثار غضب الفلسطينيين حين دعاهم إلى المشاركة في انتخاب رئيس بلدية القدس التي تعد من الناحية القانونية واقعة تحت الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٦٧، أي أنه يعترف بشرعية الاحتلال، في القدس الشرقية، ويسلم بتهويدها، والتخلي عنها، وإبقاءها تحت السيطرة الإسرائيلية، وكل ذلك من "أجل عيون السلام"! (٤٤)

كاتب فلسطيني آخر، اعتبر أنه لم يعد ثمة وجود يذكر لهؤلاء الموقعين في الأحداث الجارية، سوى تنفيذ الأوامر الصهيونية، المتجلية في إدانة العمليات الاستشهادية، هذه المدرسة لم تستح من الشعب المجاهد قاهر آل صهيون، ويكون الكاتب أكثر حدة، عندما يقول، لا تزال هذه الفئة متمادية في وقاحتها السياسية، لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء بكثير... وتتآمر ضد المقاومين، وتزرع الفتنة وسط الشعب المجاهد فالصبر على خيانتها لم يعد يحتمل (٤٥) فالذين يتعاونون مع الاحتلال بحجة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حقوقه الشعب الفلسطيني، فإنهم ليسوا خارجين عن تمثيل الشعب فقط، بل إن الحكم عليهم هو الحكم ذاته على الاحتلال، وموقف المقاومة هو موقفها ذاته من الاحتلال (٤٦).

د. عبد العزيز الرنتيسي، أحد قادة "حماس". إعتبر هذا البيان إعلان حرب على المقاومة، وقال: "اعلم كم كانت سعادة الغرب، عندما وجد من بين الفلسطينيين من يقبل بالتنازل عن فلسطين، خدمةً لما يُسمى، زوراً وبهتاناً، بالسلام العادل. لم تيأس أوربا، حتى يومنا هذا، من صناعة تيار يطالب بوقف المقاومة، حتى يعطي إسرائيل فرصة لإقامة (السلام العادل) على النمط والمقاس الشاروني.

ولذلك فلا غرابة أن يدفع الغرب وأوربا فاتورة حساب هذا النداء، وأردف الرنتيسي: أنا لا أريد أن أبحث في تحديد المعالم البارزة لكل من الموقعين على البيان، لكني أقول إن شعبنا قادر على فهم الأبعاد من وراء هذا النداء، الذي يحمِّل العمليات الاستشهادية زرع الحقد بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي.

لماذا لم يوجه أصحاب النداء سهامهم إلى المتسبب الحقيقي للكراهية والأحقاد؟! لم يسع هؤلاء الموقعين على البيان، أن يمسكوا العصا من المنتصف، كما فعل مؤسس شبكة سي إن إن "تيدتيرنر" الذي تفهم ما يقوم به

الفلسطينيون، في مواجهة الآلة العسكرية والصهيونية الطاحنة؟! لماذا تريدون من الشعب الفلسطيني أن يستسلم للإرهاب، والابتزاز الصهيوني؟ الذي كان كل هدفه، خلال حقبة أوسلو، خلق جيش لحد من السلطة، وذلك باعتراف السلطة نفسها.

فإذا كان لديكم استعداد للتنازل عن أرض فلسطين، وبيع دماء الشهداء، فالشعب الفلسطيني يرفض بيع الأرض، ويأبى إلا أن ينتقم وينتصر للشهداء، ولو بعد حين [٤٧].

حاتم عبد القادر أحد قياديي "فتح" في مدينة القدس، وعضو المجلس التشريعي، قال: "هؤلاء سياسيون مغرضون". وكانت إحدى مؤاخذاته على البيان، أنه مدفوع الأجر أوروبياً.

وأضاف عبد القادر: "هذه العمليات الاستشهادية التي يرفضها موقعو البيان، هي رد على الممارسات الإسرائيلية ضد المدنيين الفلسطينيين، فالذي تقاطع في عمل الفصائل الفلسطينية المقاومة، هو الإرهاب والعنف الإسرائيلي، وأردف عبد القادر: الفصائل وعدد كبير من شعبنا غير مقتنع بوقف هذه العمليات داخل (١٩٤٨)، بسبب زيادة استهداف المدنيين الفلسطينيين، فلماذا تكون نابلس، ورام الله، وجنين، وغزة، تحت ضرباتهم ولا تكون يافا، وتل أبيب؟!

وأردف عبد القادر: الشعب الفلسطيني خياراته محدودة، والعدوان الإسرائيلي مستمر، والتطهير العرقي مستمر، ولذا من الصعب جداً وقف هذه العمليات. وأحمد الله أن شعبنا وصل هذه المرتبة، التي لم تصلها غالبية شعوب العالم، وهي ظاهرة الاستشهاد، وهي ظاهرة نبيلة، ومعظم شعبنا الفلسطيني، وحسب استطلاعات الرأي، مؤيد، وبأغلبية كبيرة، للعمليات داخل "الخط الأخضر"[٤٨].

المحاضر في معهد البولتكنيك في الخليل، والناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، عبد العليم دعنا، قال: "هذه البيانات مشبوهة ولا تخدم القضية، وإثارتها، في هذا الوقت بالذات، لا تخدم إلا الاحتلال الصهيوني". أما أمين سر مرجعية حركة فتح في الضفة الغربية حسين الشيخ، فاعتبر أن أصحاب هذا النداء، نظروا بعين واحدة، ولم ينظروا بالعين الأخرى، لما

يتعرض له الشعب الفلسطيني، مضيفاً، إن معاناة الشعب الفلسطيني كانت الغائب عن نداء هؤلاء (٤٩).

الأجنحة العسكرية الفلسطينية، التي أعلنت عن استمرارها في المقاومة والعمليات الفدائية، رأت أن الموقعين على هذا البيان يرتبطون بعلاقات مشبوهة مع إسرائيل والولايات المتحدة.

فعبر موقعها الإلكتروني، كتائب الشهيد عز الدين القسام، قالت في أحد تقاريرها (٥٠): "هذه الفئة الضالة، التي تمثل بعض الشخصيات السياسية، لم يهن عليها أن ترى الاحتلال يشرب من الكأس الذي يذيقه للشعب الفلسطيني، فأخذت على عاتقها محاولة تخليص الاحتلال من هذا المد المقاوم، المتمثل في العمليات الاستشهادية، السلاح الفلسطيني الرادع في وجه آلة الحرب والدمار الصهيونية".

وأضافت في تقرير آخر (٥١)

"لماذا يتهافت المتهافتون ضد العمليات الاستشهادية ... كفاح البنادق هو كفاح يختلف عن كفاح الفنادق، وعليه فإن الطلاق هو المصير بين هذين النوعين من الكفاح، هؤلاء الذين ينظرون للنضال على أنه ثروة وتفنن في سحب المال والامتيازات، وإبداع سرقة الأموال العامة، وإقامة الصداقات مع الصهاينة، فمن شركه مع هذا الصهيوني، إلى معهد للسلام مع آخر، إلى صداقات مع رجال الموساد الحاليين والسابقين، فكيف لهذه الفئة أن تؤيد هذا النوع من المقاومة، وهي ترى في العمليات الاستشهادية سلاحاً يهدد مصالحها الذاتية بالدرجة الأولى وأضافت "كتائب القسام" في تقريرها:

"هل يجرؤ هؤلاء على طرح موضوع العمليات الاستشهادية على استفتاء شعبي ويقبلون بقرار الشعب في هذا الأمر (نتائج الاستطلاع بينة وليست بحاجة إلى إعادة ذكرها) إن القول الفصل في هذا المقام هو قول أمين عام حزب الله الشيخ حسن نصر الله، "لولا أن هذه العمليات تصيب الصهاينة في المقتل لما تهافت عليها كل هؤلاء لإيقافها".

النسبة الأكبر من المواطنين الفلسطينيين والعرب، عبرت عن استهجانها

واستنكارها لهذا النداء، وتلك الدعوات لوقف العمليات الاستشهادية. ففي استطلاع أجراه موقع "الجزيرة نت" على الشبكة الإلكترونية، أعطى ٩٠٪ من المستفتين صوتهم لهذه العمليات. إذ يرون أن وقف العمليات الاستشهادية لن يؤدي إلى انسحاب من الأراضي المحتلة، ولن يوقف الاعتداءات على الشعب الفلسطيني.

وفي استطلاع آخر لصحيفة يديعوت أحرنوت (٢١/ ٦/ ٢٠٠٢) قالت بأن نسبة ٧٨٪ من الفلسطينيين يرون بأن العمليات تساعد الفلسطينيين، وقالوا أن النداء لا أهمية له.

الكاتب السياسي الليبرالي الصهيوني داني روبنشاتين، إعتبر أن حملة جمع التواقيع المناهضة للعمليات (الانتحارية) لا تلقى صدى كافياً بين الفلسطينيين، وقال: "وجهت في جنبات الشارع الفلسطيني انتقادات وشتائم، حيث وصفوهم بالانهزاميين". وأردف: السبب من وراء ذلك معروف. الأغلبية الكبيرة من الجمهور الفلسطيني ترى في هذه العمليات وسيلة كفاحية، تضعهم وللمرة الأولى، في موقع متوازن في مواجهة الوسائل القتالية العسكرية المتطورة [٥٢].

أما قمة الإشمئزاز والرفض للنداء والموقعين عليه نلمسها في رأي أحد المواطنين الفلسطينيين الذي قال"إقرأ لي احد الأسماء ربما نجد أحدهم من عائلتنا فنتبرأ منه! أردف: "لو كان هؤلاء ينتمون لفلسطين وللشعب الفلسطيني لخجلوا من أنفسهم بأن يطالبونا بالاستسلام لسكين الجزار". مواطن آخر أضاف: "هؤلاء هم الذين تضررت مصالحهم" الشخصية، بفعل الانتفاضة، وتأثرت تصاريح الـ VIP *، التي كانت تسهل لهم الوصول إلى تل أبيب، أويبنا، وأضاف هؤلاء لا يشعرون، بما نعاني نحن عموم الشعب الفلسطيني، بما يفعله الاحتلال، فهم لم تداهم بيوتهم، ولم يعتقل أبناؤهم، ولم يستشهد أطفالهم، ونساؤهم، وزوجاتهم، فغالبية أبنائهم يقيمون في أوربا، أو إحدى الدول الأخرى للترفيه، خشية أن يصابوا بأذى، ثم يدعون انهم يمثلون ضمير

* هذه البطاقات أو التصاريح، منحت بموجب اتفاق أوسلو، لشخصيات السلطة الفلسطينية والشخصيات المهمة الأخرى، لسهولة التنقل بين المدن الفلسطينية، وبينها وبين داخل ما يسمى (إسرائيل).

الشعب، ملعون هذا الضمير إذا كانت هذه الحفنة تمثله". [٥٣] في الإطار نفسه، وجه أحد المشاركين في الحوار الذي تم على موقع "إسلام أون لاين" [٥٤] سؤالاً إلى جمال زقوت، أحد الموقعين على البيان: "تخيل أن أمك وأباك جالسان، في بيتهما، في سرور وراحة، ودخل عليهما رجل غليظ، فأخذ يقتل ويمثل بهما، حتى ماتا - أسأل الله لهما الصحة والعافية - ثم أتيت أنت، ورأيت ما حدث، ثم جئ لك بورقة كتب عليها (إخرس! وإجلس حيث أنت ولا تتحرك بأي فعل) فهل ستبقى على قيد الحياة، أم ستموت من القهر؟!".

مواطن آخر رأى في هذا النداء شكلاً من أشكال الخيانة والتفريط في تضحيات عمدت بالدم، ولا يحق لهؤلاء، الذين رهنوا حياتهم للغرب ومصالحهم الشخصية، أن يحاكموا المقاومة.

مواطن فلسطيني ديمقراطي جداً قال: "رغم أننا نحترم كافة الآراء، إلا أن مثل هذه البيانات وبهذه الطريقة تسئ إلى جهاد الشعب الفلسطيني". مشيراً إلى أنه يحترم بعض الشخصيات الوطنية الموقعة على البيان، إلا أنه لا يمكن أن يوافقها الرأي، وعبر عن استيائه، لأن عدداً كبيراً من الموقعين هم شخصيات غير وطنية، ومتسلقة، وانتهازية، ودورهم مجرد بوق للطروحات الانهزامية المثبطة فهم يتعايشون من ذلك.

مواطن آخر أراد أن يعكس حالة أو نبض كل الشارع الفلسطيني قال: "لو نزلت إلى الشارع فسوف أحصل على عريضة موقعة من مليون فلسطيني، يؤيدون ويباركون، بل ومستعدون لأن يشاركوا في هذه العمليات [٥٥].

ونحن نردد بدورنا ما قاله د. عبد العزيز الرنتسي: "ألم يسع هؤلاء الموقعين على البيان إلى الإمساك بالعصا من الوسط؟! ألم يسمعوا كلام توماس فريدمان، المقرب من البيت الأبيض، ودوائر حزب الليكود الصهيوني في أن، الذي قال: أدت هذه الانفجارات "الانتحارية" خلال شهرين متواصلين إلى قلب البلاد (يقصد الكيان الصهيوني) رأساً على عقب، وأفقدت إسرائيل الشعور بالأمن، أكثر من جيش عربي، خلال الخمسين سنة الماضية، وجعلت الإسرائيليين أكثر استعداداً، من أي وقت مضى للتخلي عن الأراضي الفلسطينية [٥٦].

ألم يسمعوا قول رئيس التجمع الوطني الديمقراطي في فلسطين ٤٨ والعضو

العربي في الكنيست الإسرائيلي، د/ عزمي بشارة، "نحن نؤيد النضال الفلسطيني، وحتى بعض العمليات التي تمس بعض المدنيين الإسرائيليين، والتي لنا اعتراضات عليها. لكن يجب أن لا نتعامل مع هذه العمليات كإرهاب، لأنها جاءت في سياق دفاع الشعب الفلسطيني عن نفسه ضد إرهاب الدولة الصهيوني المدعوم من أمريكا" (٥٧).

لقد كان أوري أفنيري، أحد أقطاب "حركة السلام الآن في إسرائيل" وصديق هؤلاء الموقعين على البيان، أكثر اتزاناً منهم، حيث إنه ينتقد سياسات حكومة إسرائيل، التي لا تولد سوى الحقد البغيض، وتضرم نار الغضب في الصدور. أفنيري يبين وبكل وضوح، من هو المتسبب الحقيقي في هذا الحقد، ونحن وإن كنا نعتقد بأن أفنيري، عندما يقول ذلك، لا يقوله من زاوية إنصاف الشعب الفلسطيني، بقدر الخشية على مستقبل هذا الكيان.

لكن في صُفرة هذا الزمن العقيم والذي أصبح الجهاد فيه جريمة، والاستشهاديون إرهابيين، ومجرم الحرب "رابين" شهيداً للسلام، وحين يبدو الحديث عن المجازر والهمجية الصهيونية من الأمور التي تؤدي إلى ارتكاب المعصية، لم يكن مستغرباً أ ن يخرج مثل هؤلاء المثقفين ثقافة دحر الأمة وإذلالها، المفتقرين للوعي والإدراك السياسي برغم قدرتهم على الرطانة باللغة الإنجليزية فثقافتهم وعلمهم لم تحفزهم لتحقيق انجازات حقيقية لشعبهم التي يرزح تحت نير الاحتلال.

هؤلاء ينكرون كامل حقوق شعب فلسطين، في حالة السلم والحرب في آن.

لقد قرأ كل من كتب ووقع النداء، من قبل، تصريحات الصهاينة التي يصرخون بها صباح مساء، لكن الموقعين حريصون على وجود هذا الكيان الغاصب، لذا سارعوا إلى كتابة ذلك النداء، مرتكزاً على تواقيع أشخاص مسجلين في الهوية بأنهم فلسطينيون، والفلسطينيون من ذلك براء.

هوامش الفصل السادس

(١) **يديعوت أحرنوت**، ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٢.

(٢) **المركز الفلسطيني للإعلام** (صفحة الكترونية)، wwwpalestine-info-info، أرشيف الأخبار، ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٢.

(٣) عبد الله الأشعل، المقاومة السلمية، هل تصلح في فلسطين؟ **الحياة**، (لندن) ١/ ٦/ ٢٠٠٢.

(٤) ياسر الزعاترة، الجدل الفلسطيني بعد عملية السور الواقي، **الحياة**، (لندن) ١٨/ ٥/ ٢٠٠٢.

(٥) الأشعل، **مرجع سبق ذكره**.

(٦) خالد الدخيل، العمليات الاستشهادية والمأزق الفلسطيني ومأزق السلام، **الحياة**، (لندن) ١/٥/ ٢٠٠٢.

(٧) العفيف الأخضر، المطلوب قرار سياسي في مستوى الحدث، **الحياة** (لندن) ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٢.

(٨) ماجد الكيالي، الاستشهاديون عسكروا الانتفاضة وزادو من عزلة الفلسطينيين، **الحياة**، (لندن) ١/٥/ ٢٠٠٢.

(٩) عبد الستار المليجي، جدوى العمليات الاستشهادية، **(صفحة الكترونية)**، (٢٤ / ٥ / ٢٠٠٢) www.alarabnews.com،

(١٠) رياض الحسيني، العمليات الاستشهادية بين التنظير العربي والإجرام الصهيوني **(صفحة الكترونية)**، www.zaqarah.٤t.com، د. ت.

(١١) عادل أبو هاشم، العمليات الاستشهادية طريقنا إلى النصر (**صفحة الكترونية**) ٣٠ / ٨ / ٢٠٠٢ www.arabic mediantarnet work.htm.

(١٢) صلاح الدين الجاروشي، العمليات الاستشهادية بين شرعية المقاومة ومقتضيات المصلحة الوطنية، **الحياة** (لندن) ١٦/ ٥ / ٢٠٠٢.

(١٣) إنجازات وسلبيات الانتفاضة والمقاومة في ٢٠ شهراً، مركز **باحث**، (بيروت) ٤/ ١٠ / ٢٠٠٢.

(١٤) صلاح عيسى، هوامش على سياسة الاستشهاد، **القاهرة** (القاهرة) ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٢.

(١٥) العمليات الاستشهادية ضد المدنيين تلحق ضرراً كبيراً بالفسطينيين، **الحياة**، (لندن) ٧/ ٥/ ٢٠٠٢.

(١٦) وحيد عبد المجيد، تفاهم فلسطيني مطلوب على السير في طريقين، **الحياة** (لندن) ١٩/ ٤/ ٢٠٠٢.

(١٧) العفيف الأخضر، العمليات الانتحارية مجازفة بمستقبل الشعب الفلسطيني، **الحياة**، (لندن) ١٩/ ٤/ ٢٠٠٢.

(١٨) الكيالي، **مرجع سبق ذكره**.

(١٩) ياسر الزعاترة، الجدل الفلسطيني بعد عملية السور الواقي، **الحياة**، (لندن) ١٨/ ٥/ ٢٠٠٢.

(٢٠) **نفسه**.

(٢١) رباح مهنا، قرار وقف العمليات داخل الخط الأخضر، **إسلام أون لاين** (صفحة الكترونية) www.isiam online.net، أرشيف الحوارات الحية، ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٢.

(٢٢) عيسى، **مرجع سبق ذكره**.

(٢٣) الزعاترة، **مرجع سبق ذكره**.

(٢٤) الجاروشي، **مرجع سبق ذكره**.

(٢٥) مؤمن بسيسو، نقاش صريح لمنتقدي العمليات الاستشهادية، **مركز الإعلام الفلسطيني** (صفحة الكترونية) www.palestine-info-info، أرشيف المقالات.

(٢٦) الجاورشي، **مرجع سبق ذكره**.

(٢٧) أنظر مثلاً صلاح عيسى، **مرجع سبق ذكره**، كذلك مقالات متفرقة ومتعددة لعفيف الأخضر في جريدة **الحياة** (لندن)، وترديد كثير من التصريحات بهذا المعنى من قبل

أقطاب ووزراء سلطة أوسلو.

(٢٨) بسيسو، **مرجع سبق ذكره.**

(٢٩) الأخضر، المطلوب قرار سياسي في مستوى الحدث، **مرجع سبق ذكره.**

(٣٠) **نفسه.**

(٣١) الأخضر، العمليات الانتحارية مجازفة بمستقبل الشعب الفلسطيني، **مرجع سبق ذكره.**

(٣٢) بسيسو، **مرجع سبق ذكره.**

(٣٣) حسام مطلق، عمليات ليلية أو صباحية تتجنب الأطفال وأخطاء قدرية هنا وهناك، **الحياة**، (لندن)، ١٩/ ٤/ ٢٠٠٢.

(٣٤) قائد القساميين يتكلم، مقابلة صحفية مع القائد العام "لكتائب القسام" صلاح شحادة أجراها موقع **إسلام أون لاين**. نت ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٢.

(٣٥) أنظر **بيان كتائب القسام** بعد تنفيذ مجزرة الحرم الإبراهيمي (٢٥/ ٢/ ١٩٩٤).

(٣٦) مطلق، **مرجع سبق ذكره.**

(٣٧) بسيسو، **مرجع سبق ذكره.**

(٣٨) **وكالات الأنباء.**

(٣٩) **نفسه.**

(٤٠) **المركز الفلسطيني للإعلام** (أرشيف الأخبار)، مرجع سبق ذكره.

(٤١) أنظر نموذج لهذا البيان المعدل، **الأيام** (رام الله) ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٢.

(٤٢) عزت الرشق، العمليات الاستشهادية بين شرعية المقاومة ومتقضيات المصلحة الوطنية العليا، **القدس** (القاهرة)، عدد ٤٢، يونية/ حزيران ٢٠٠٢ ص ٢٢.

(٤٣) بسيسو، **مرجع سبق ذكره.**

(٤٤) عادل أبو هاشم، الدم الفلسطيني ومثقفو السلام، **(صفحة الكترونية)**، www.arabmail.com، د. ت.

(٤٥) أيمن الهلالي، العمليات الاستشهادية طريقنا إلى النصر، **(صفحة الكترونية)**، www.aloswa.ovg د. ت.

(٤٦) أبو هاشم، الدم الفلسطيني ومثقفو الاستسلام، **مرجع سبق ذكره.**

(٤٧) عبد العزيز الرنتيسي، العمليات الاستشهادية هي الحل،(**صفحة الكترونية**)، (٢٤/ ٦/ ٢٠٠٢)، www.kataebg.com.

(٤٨) من رفض الاستشهاد إلى رفض خطاب بوش، (**صفحة الكترونية**) www.islamonline.net، أرشيف الحوارات الحية، ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٢.

(٤٩) نداء وقف العمليات الاستشهادية مدسوس والتوقيع عليه خيانة، **أرشيف تقارير كتائب القسام**، و(صفحة الكترونية) (٢٤/ ٦ / ٢٠٠٢) www.kataba.com.

(٥٠) **نفسه**.

(٥١) المقاومة الفلسطينية عرجاء، دون العمليات الاستشهادية، أرشيف **تقارير كتائب القسام**، د. ت.

(٥٢) داني روبنشتاين، حملة جمع التواقيع المناهضة للعمليات (الانتحارية) لا تلقى صدى كافياً بين الفلسطينيين، **هآرتس** (٢٤/ ٦/ ٢٠٠٢).

(٥٣) نداء وقف العمليات الاستشهادية مدسوس، ...، **مرجع سبق ذكره**.

(٥٤) من رفض الاستشهاد إلى رفض خطاب بوش، **مرجع سبق ذكره**.

(٥٥) نداء وقف العمليات الاستشهادية مدسوس ...، **مرجع سبق ذكره**.

(٥٦) المركز الفلسطيني للإعلام (أرشيف الأخبار)، **مرجع سبق ذكره**.

(٥٧) قرار وقف العمليات داخل الخط الأخضر، **مرجع سبق ذكره**.

الفصل السابع

الأصداء في الصحف الإسرائيلية

ريدا خضر البرعي

هذه هي حياتنا في الفترة الأخيرة

من الجائز أنها أفضل

ومن الجائز أن تقع كارثة

مساء الخير أيها اليأس

طابت ليلتك أيها الأمل

هذه الكلمات من أُغنية إسرائيلية، تُعبر عن الحياة في ظل الانتفاضة، والعمليات الاستشهادية، حيث أصبحت العمليات الاستشهادية معلماً سائداً في الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأصبح الإستشهاديون رمزاً مميزاً لهذا الصراع، مُستخدمين هذا النوع من النضال، سلاحاً في يد الطرف الأضعف عسكرياً، ورداً حاسماً لمعضلة القوة العسكرية الإسرائيلية.

فمنذ بدء المواجهات، في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠، وحتى مطلع مارس/ آذار ٢٠٠٢ نجح خمسة وخمسون استشهادياً في تفجير أنفسهم، وألقي القبض على أحد عشر آخرين، محتجزين في إسرائيل، كما أن ٤٩٪ من القتلى الإسرائيليين

في الانتفاضة، لاقوا حتفهم في عمليات استشهادية، داخل إسرائيل، في حدود "الخط الأخضر"، منهم ١٧٪ في القدس، وأكثر من ٧٠٪ من الجرحى أصيبوا داخل أراضي (إسرائيل)، حسب المصادر الإسرائيلية (١).

الواقع أن هذا رقم قياسي وكبير، خاصة مع القوة الأمنية والعسكرية التي تتمتع بها دولة إسرائيل، ولا تقارن، بأي حال من الأحوال، بقوة الشعب الفلسطيني، يُعد التصدي للعمليات الإستشهادية حرباً يقودها الإسرائيليون خارج حدودهم، بل لقد وصلت إلى العمق الإسرائيلي، وأصبحت تهدد أمنهم الشخصي، وهم يدركون بأنه ما من حل لوقف هذه العمليات، بل إنهم يطلقون على الانتفاضة والعمليات الاستشهادية "حرب الاستنزاف الثالثة"، بعد حرب مصر (١٩٦٩)، والتي استمرت أكثر من عام، وحطمت الروح المعنوية الإسرائيلية، وحرب الاستنزاف الثانية، وهي حرب حزب الله ضد الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، والتي أدت إلى انسحاب إسرائيل من لبنان، من دون أي شروط، "هذا ليس اعتداء، هذه ليست انتفاضة، إنها حرب استنزاف تشنها السلطة الفلسطينية ضد إسرائيل ... تبنى الفلسطينيون نظرية جيش الدفاع، بنقل الحرب إلى أرض العدو، وفجأة يتصدر الأمن الشخصي جدول الأعمال القومي، لقد أصبح الأداء اليومي من زيارة للمول التجاري والسينما، وحتى الانتقال على الطرق المختلفة، مشكلة كبيرة، هدف عرفات هو استنزافنا، حتى نخرج من كل المناطق، مثلما خرجنا من مصر، ولبنان، عندما يسمع المقترحات المفيدة بالفصل من جانب واحد، على غرار ما حدث في لبنان، فإنه يستمد الشجاعة على المواصلة" (٢).

استطاعت العمليات الاستشهادية تحقيق أهدافها، فإسرائيل لم تتعرض، طوال تاريخها في المنطقة، لمثل هذه الهجمات، فمنذ اندلاع الانتفاضة الثانية في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠، انفجرت عشرات الأجساد، والقنابل البشرية وتسببت في انهيار الجمهور الإسرائيلي. ويقول ضابط كبير بالجيش الإسرائيلي *:

"إن الفلسطينيين باتوا يدركون بأن الهجمات سلاح استراتيجي، يحقق التوازن مع التفوق التقني، والسيادة العسكرية الإسرائيلية. إن الفلسطينيين

---

* جال لوفت

قرروا استخدام هذا السلاح، بطريقة منظمة، وفي إطار السلاح السياسي، وهو ما حقق لهم ما لم يحققه أي سلاح آخر، فقد منحهم القدرة على إنزال خسائر بالغة، وغير مسبوقة بإسرائيل، وقرّب لهم حلم تحقيق التعادل الاستراتيجي ويعترف الضابط، أيضاً، بأن الهجمات التي تشنها (الجهاد) و(حماس) حققت نتائج ملموسة، فقد نفذت أكثر من ٣٥٠ عملية داخل إسرائيل، فيما شنت المنظمات الفلسطينية الأخرى نحو ٨٠٠٠ هجوم مُسلح في الضفة الغربية وغزة، وكانت أكثرها إيلاماً تلك (الهجمات الانتحارية) بلغت ٣٩ عملية، وأودت بحياة ٧٠ إسرائيلياً، وجرحت أكثر من ألف" [٣].

هذه العمليات الاستشهادية، مع أنها، في نظر البعض، لم تحقق الكثير، وتعالت الأصوات في العالم العربي، تتساءل عن جدواها، وعن المكاسب التي حققتها، فإنها تؤكد حقيقة أنها قادرة على توجيه ضربات موجعة لإسرائيل، رغم حرب الإبادة التي يشنها شارون على الشعب الفلسطيني، ليحقق مقولة "أرض بلا شعب"، وذلك باستخدام كل ما تزخر به ترسانة السلاح الإسرائيلية، من أسلحة أمريكية، ولم يزل الأمن حلماً بعيد المنال. إن الإسرائيليين أيضاً، يعانون، وأعظم النتائج التي تم تحقيقها ليس إلحاق الخسائر البشرية بالعدو فحسب، وإنما انهيار الاقتصاد الإسرائيلي، ورفض الخدمة بالجيش، والحديث عن إخلاء المستوطنات. ويرى "اليسار" الإسرائيلي عدم جدوى استخدام القوة العسكرية ضد الفلسطينيين، وأن الحل الأمثل لوقف تلك العمليات هو الحل السياسي. وهذه إحدى صحف إسرائيل تتساءل: "هل بإمكانكم أن تأتوا بمثال واحد من التاريخ نجح فيه شعب في السيطرة على شعب آخر، لفترة طويلة؟ هل تعرفون مكاناً يعيش فيه بشر من دون حقوق إنسان مثل الفلسطينيين؟! [٤].

في السياق نفسه يقول د. بونداك، من مهندسي "إتفاق أوسلو"، وهو مدير عام مركز بيريس للسلام: "يجب العودة للمفاوضات السياسية بين الجانبين، الإسرائيلي والفلسطيني، وتبني المبادرة السعودية ... يجب أن يعلن الطرفان عن بذل جهد مشترك، لإيجاد حل عادل لقضية اللاجئين، من خلال إيجاد ضمانات لأمن إسرائيل، بصورة شاملة، ومفاوضات، حيث أن العملية، والرد على العملية، وعمليات الانتقام، كل ذلك يزيد من عدد الضحايا" [٥].

بيد أن "اليمين"، الذي يؤيد شارون في سياسة العنف، له وجهة نظر أُخرى

فهم يرون بأن استعمال القوة الطريقة الوحيدة لوقف العمليات. وهذا أحد كتّاب "اليمين" الإسرائيلي يؤكد بأن "السبيل الوحيد لمنع العمليات ... هو ضرب أجهزة الأمن الفلسطينية، وضرب تيار الأموال التي تحرك عجلاتها، ومواصلة الضغط المباشر على قادتها، كما أن المجتمع الفلسطيني بات يرسل النساء في عمليات إنتحارية، وينتج من خمسة إلى ستة انتحاريين، في اليوم" (٦).

لكن الأدلة تترادف، كل يوم عن أن تلك نظرة سقيمة، وقصيرة المدى، وعديمة الجدوى، فقد بات الإسرائيليون، يدركون بأنهم لا يملكون سلاحاً مضاداً لسلاح العمليات الاستشهادية. وقد فشلت حكومة شارون في منع هذه العمليات، بل إنها عملت على زيادتها، فحكومة شارون لم تدخّر جهداً في مواجهة الفلسطينيين، فلجأت إلى كل الوسائل العسكرية، مستخدمة طائرات الأباتشي العمودية، وطائرات الإف ١٦، والدبابة مركافاة، والتصفية الجسدية، وضرب الحصار على الأراضي الفلسطينية.

زعزت العمليات الاستشهادية ثقة الإسرائيليين في حكومة شارون كما جاء على لسان أليعازر آرييه "الملاحظ أن الحكومة، منذ وصولها إلى السلطة، لم تفِ بوعودها التي قطعتها على نفسها، أمام الشعب، سواء بتحقيق السلام، أم الأمن، وأصبحت لا تمتلك أي استراتيجية واضحة لتحقيق أي هدف، باستثناء قتل الفلسطينيين، والتسبب في استشهاد العشرات من أبنائنا كل يوم" (٧).

الأمن الذي وعد شارون بتحقيقه للإسرائيليين والذي جاء بشارون إلى سدة الحكم، لم يستطع تحقيقه أمام صمود الفلسطينيين، وقد فقد شارون مصداقيته، التي منحها له ناخبوه عند انتخابهم له، بسبب عدم سعيه لبذل أي جهد يحقق حلاً سياسياً. وهذا كاتب سياسي إسرائيلي، يشير، بغضب، إلى أن "الجواب الوحيد الذي تستطيع الحكومة تقديمه للشعب المعذب، الغاضب، الذي يفقد بسرعة أمنه الشخصي، هو أنه لا يوجد لها الجواب، ... الحكومة غير قادرة على أن تقدم للشعب، الذي تقوده، الحد الأدنى من الأمن الاقتصادي، الحكومة التي وعدت، مع تأسيسها قبل سنة، بوقف العنف، لكنها عززته، فلتذهب إلى البيت، الحكومة التي وعدت، قبل سنة، بتقريب السلام، وأبعدته أجيالاً، فلتذهب إلى البيت" (٨).

في السياق نفسه، تتهم افتتاحية يومية إسرائيلية شارون بأنه لم ينتج فكرة سياسية واحدة، يمكن أن تقوده إلى حل للوضع القائم بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأنه يخدع شعبه، ويرسم صورة زائفة عن الحرب التي يخوضها ضد الفلسطينيين، وأنه لا بديل عن الحرب، وهي الحل الوحيد لبقاء إسرائيل "الخطر ليس في وجود إسرائيل، لكنه في وجود المستوطنات، التي شجعها شارون، وساعد على نموها، لعدة عقود، فهذا الصراع ... ليس له، ولا يمكن أن يكون له حل عسكري ... فالحل السياسي القائم على إنهاء الاحتلال، وتأسيس دولة فلسطينية بجوار إسرائيل سوف يكون كافياً" [٩].

فلسطينيو ٤٨ والعمليات الإستشهادية

يعتقد الإسرائيليون بأن ميزان الكراهية والتحريض قد تصاعد ضدهم، منذ اندلاع الانتفاضة، حتى شمل فلسطينيي ٤٨، الذين أعلنوا دعمهم للانتفاضة، والعمليات الاستشهادية، وشاركوا في الاحتجاجات ضد سلطات الاحتلال، التي باتت تصفهم بالخونة. "وامتدت المأساة لتشمل (عرب إسرائيل) حيث أعلن العديد منهم تضامنهم مع الفلسطينيين، ودعمهم لهم في حربهم ضد إسرائيل ... فعزمي بشارة يصف العمليات الإرهابية (الاستشهادية) بأنها مقاومة مشروعة ... وهم يرددون تلك التصريحات، دون مراعاة لأفضالنا عليهم، ودون احترام للجنسية الإسرائيلية التي يحملونها، لنصبح جمعياً في إسرائيل ... بين مطرقة إرهاب الفلسطينيين في الخارج وسندان ثورة العرب الخونة في الداخل" [١٠].

بينما حذر كاتب إسرائيلي آخر من هذه الظاهرة "خلفت الإضطرابات داخل الخط الأخضر، والتي تورط فيها عرب ويهود، شرخاً معنوياً، أضر بتماسك ... المجتمع الإسرائيلي" [١١].

ترى إسرائيل بأن العمليات الاستشهادية تحظى بدعم السلطة الفلسطينية، وأن "كتائب شهداء الأقصى"، الجناح العسكري لحركة "فتح"، قد إنضمت لكل من حركتي حماس والجهاد الإسلامي، "لقد احتلت (كتائب شهداء الأقصى) في الشهور الأخيرة، مركز الصدارة في (الإرهاب) الفلسطيني. وهم، مثل زملائهم في حماس، يستخدمون كل الوسائل والسُبل لاغتيال وقتل الإسرائيليين. ويعتمد أسلوبهم على إطلاق النار، من سيارة مسرعة، كمين

على جانب الطريق، عمليات قناصة، (انتحاريين) مزودين بعبوات ناسفة، ورشاشات كلا شينكوف، وقنابل يدوية" [١٢].

إلى ذلك تتهم إسرائيل الرئيس عرفات بأن العمليات الاستشهادية هي ثمرة أوامره، وتحريضه. وأنه، في اختياره هذا المسار، فإنه يهدم ما تبقى له من الثقة، كشريك في عملية السلام. وأن تصفية قائد "كتائب شهداء الأقصى" رائد الكرمي في طولكرم، فتح الباب أمام إرسال الاستشهاديين من حركة "فتح" إلى داخل "الخط الأخضر" بالرغم من أن الاستراتيجية الأساسية لفتح لا تؤيد تنفيذ عمليات فدائية داخل "الخط الأخضر".

"إن عرفات هو الذي جلب إسرائيل إلى النقطة التي لم تعد معها قادرة على عدم الرد، دون التعلل الداخلي، والفوضى السياسية. لقد وصل شارون إلى السلطة، بفضل عنف عرفات. وهو الآن يجد نفسه مرة أخرى، مثلما هو طول حياته السياسية، في مفترق التورطات. مفترق العمليات المتدحرجة، التي لا تنتهي بالخير" [١٣].

بعد احداث ١١ سبتمبر

استغلت إسرائيل أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وجعلت منها جزءاً من الواقع القائم في إسرائيل، خاصة وأن العالم سينظر إلى الانتفاضة بتفهم أقل بكثير من قبل، بينما سينظر إلى إسرائيل على أنها دولة تقف في وجه الإرهاب! "العالم كله يعلم، الآن، خطورة الإرهاب الفلسطيني، الذي نكتوي به، والذي لا يختلف، في شيء، عن الإرهاب الأفغاني، الذي اكتوت به الولايات المتحدة، في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وإسرائيل كانت ولا تزال تحارب الأصوليين الإسلاميين في فلسطين، وتشن حرباً ضارية عليهم، لا تختلف عن الحرب التي دارت في أفغانستان، وتم خلالها تصفية حركة طالبان، ومنظمة القاعدة" [١٤].

الأشهر القليلة التي تلت الهجوم على مركز التجارة العالمي، والبنتاجون، تمتعت السياسة الإسرائيلية بتفهم أمريكي، وتلقت إسرائيل شكلاً من أشكال الضمان الواسع غير الرسمي من الولايات المتحدة، ضد السلطة الفلسطينية. ويرى الإسرائيليون بأن أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أتاحت لهم

فرصة، لن تتكرر، للتخلص من المناضلين الفلسطينيين. وهذه كاتبة إسرائيلية ترى بأن "العمليات الإرهابية التفجيرية، التي وقعت في الولايات المتحدة .. والعمليات الإرهابية، التي تحدث في إسرائيل، تدفعنا لطرح العديد من الأفكار .. أهمها التخلص من الأفعى الكبيرة، التي تسمى (الحركة الإسلامية) والسئ أن تلك الحركة بدأت التدخل في جميع أنحاء البلاد، بصورة تشبه الورم (السرطان الخبيث)" (١٥).

تعتقد إسرائيل بأن التحول في الرأي العام العالمي، سيسمح بالعمل، دون رادع، ضد العمليات الإستشهادية، وأنه ما من فرق بين الهجمات على مبنى التجارة العالمي، وبين العمليات الاستشهادية الفلسطينية، وأن ما قامت به الولايات المتحدة، بتدمير أفغانستان، بسبب تنظيم "القاعدة"، يمكن أن تقوم به إسرائيل في فلسطين وضد الدول التي تدعي إسرائيل بأنها ترعى "الإرهاب"، الأمر الذي يؤكده خبير استراتيجي مرموق، حيث "لا يوجد فارق بين أفغانستان، التي تعطي الرعاية لبن لادن، وبين سوريا التي تعطي الرعاية للجهاد الإسلامي، الذي قام بتنفيذ عشرات الهجمات الانتحارية" (١٦).

تعتبر إسرائيل أن أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر هي فرصة ذهبية، على شارون استغلالها، أفضل استغلال. حيث "يجب أن تستغل الفرصة الحالية، لمحاصرة الانتفاضة، وجميع أعدائنا في الشرق الأوسط، والقضاء على أي مظهر رافض لوجودنا، وتخطي تلك المنظمات، للوصول إلى الدول الداعمة لها، وعلى رأسها سوريا وإيران، التي تدعم الجماعات المناهضة لإسرائيل، بالتعاون مع سوريا" (١٧).

السور الواقي

في إطار سياسة شارون لإخماد الانتفاضة، وتحقيق الأمن لإسرائيل، والقضاء على العمليات الاستشهادية، نفذت القوات الإسرائيلية عملية، أطلق عليها شارون "السور الواقي" ووعد الإسرائيليين بالانتصار فيها. "إنها حرب صعبة، مع عدو لا يرحم، ومتعطش للدماء، يجب علينا أن ننزل خسائر مادية ضخمة حتى يشعر بالثمن الباهظ. ويفهم أنه لن يكسب شيئاً من الإرهاب ... ولكي يعي ذلك، فإننا لن نجري معه أي مفاوضات، وسنستمر في ضربه

فحسب"[١٨].

تعتبر عملية "السور الواقي"، التي نفذتها القوات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية، بمثابة العملية الأكبر حجماً، والأشد كثافة من حيث حجم القوات التي شاركت فيها وحسب تقديرات الجيش الإسرائيلي، فإن خسائر الجانب الإسرائيلي، في المرحلة الأولى من العملية تمثلت في مقتل ٢٩ جندياً، و٣٧ مدنياً، وإصابة ١٥٧ جريحاً في صفوف الجيش والشرطة. في حين بلغت الخسائر المالية ١٤ مليون دولار. وتشمل هذه الأرقام ضحايا العمليات العسكرية والهجمات الفلسطينية داخل إسرائيل، وعلى المستوطنات الإسرائيلية معاً، لكن إسرائيل ترى أنها نجحت في هذه العملية، في هدم ما تسميه الإرهاب وحسب افتتاحية يومية إسرائيلية "كان من بين أهم النتائج التي أسفرت عنها عملية الجدار الواقي ... الحصول على كم هائل من الوثائق، والشرائط، والأقراص الممغنطة ... وأهم هذه النتائج تتمثل في علاقة هذه الوثائق، التي تم الحصول عليها ببنية الإرهاب، وقد تبين ... أن عرفات كان نشيطاً في كل ما يتعلق بالجوانب الأيدولوجية، والمالية للعمليات الإرهابية، وأنه قدم شيكات لكل من (كتائب الأقصى والتنظيم) [١٩].

لقد شوهت عملية السور الواقي صورة إسرائيل على الساحة الدولية، حيث أدانت منظمات حقوق الإنسان الدولية وحشية القوات الإسرائيلية، فما من مبرر لتصرفات الجيش الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية، بل تشكل خرقاً لحقوق الإنسان والقانون الدولي. في الافتتاحية نفسها جاء "إن عملية السور الواقي أوضحت بأن المدى الواسع الذي يمكن أن يكون رد الفعل الإسرائيلي قد سبب تعقيدات دولية، تتخطى، بمدى أكبر، الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. وعلى عرفات والدول المساندة للإرهاب اتخاذ خطوات، لمنع الهجمات الإرهابية، وعلى الجانب الإسرائيلي يجب على رئيس الوزراء أن يتعلم الدرس من (عملية السور الواقي) ... (حيث) لا توجد وسيلة لإنهاء الإرهاب الفلسطيني، بدون القبول بطموحهم في قومية فلسطينية مستقلة" [٢٠].

لقد نجح المناضلون الفلسطينيون في إثبات فشل عملية (السور الواقي)، فيما تلاشى الهدوء، الذي ساد بعد العملية، واستؤنفت العمليات الاستشهادية، من جديد. لقد لاحظت يومية إسرائيلية، في افتتاحيتها بعد أيام من إنتهاء (السور

الواقي) بأن "العملية التي وقعت في ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٢، في مستوطنة (أدورا)، ومحاولات القيام بعمليات أخرى .. لا تشير إلى أن الفلسطينيين استوعبوا الدرس، وأصبحوا يركزون نشاطهم على جنود الجيش، والمستوطنات. فالسيارة المفخخة في الخليل، التي ربما كانت معدة للانفجار داخل مدننا، تدل على وجود نوايا جديدة للقيام، بأسرع ما يمكن، بموجة إرهابية جديدة داخل الخط الأخضر" [٢١]. ولاحظت الإفتتاحية نفسها أنه بالرغم من تلقي التنظيمات الفلسطينية ضربة قاصمة بواسطة "السور الواقي" فإنه لا يزال بمقدور من تبقى من أفراد التنظيمات ممارسة عملياتها، فأشارت إلى "أن عدم نجاح الفلسطينيين في التسلل إلى أراضي الخط الأخضر، لا يجب أن يخدعنا. فعاجلاً أم آجلاً سنجدهم يحاولون تحسين شبكات الإرهاب التي أضيرت بشدة، في الفترة الأخيرة، وإعادتها إلى سابق عهدها" [٢٢].

الخلاصة

أدرك الشعب الفلسطيني بأنه لا سلام مع شارون، وأن إسقاط خيار المقاومة يعني نسف كل الآمال في إقامة دولة فلسطينية مستقلة، فمنذ وصول شارون للحكم تجمد مشروع التسوية السلمية، وجاءت عملية "السور الواقي" لتؤكد نية حكومة شارون الرافضة للسلام، بعد انتهاء أعمال القمة العربية في ٢٨ آذار/ مارس ٢٠٠٢، أقدمت حكومة شارون على اجتياح كامل لأراضي السلطة الفلسطينية، بالضفة الغربية، مستغلة حادث الهجوم الإستشهادي، الذي وقع في مدينة نتانيا وعلى الرغم من المحاولات المحمومة التي بذلتها حكومة شارون للربط بين عملية نتانيا، والإجتياح، فإن كل الدلائل تشير إلى أن هذه العملية كانت خطة قديمة في ذهن شارون، أراد بها إخماد المقاومة الفلسطينية، بعد أن نجح حزب الله في الجنوب اللبناني في إجبار الجيش الإسرائيلي على الانسحاب من لبنان، من دون أي شروط(٢٥/ ٥/ ٢٠٠٠).

لقد أدت الجرائم والمذابح الجماعية، التي تم ارتكابها خلال عملية الاجتياح هذه، إلى تعاطف دولي غير مسبوق مع الشعب الفلسطيني، وخرجت المظاهرات في الوطن العربي والدول الأوربية، للاحتجاج على ما ارتكبته إسرائيل هنا. حتى أن الكاتب الإسرائيلي أوري أفنيري كتب: "عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، في بازل بسويسرا، قبل حوالي ١٠٥ أعوام، كتب

بنيامين رئيف هرتزل في يومياته: (في بازل أُسست دولة اليهود) ... وكان يجب على شارون، في يومياته، كتابة (في جنين أسست دولة فلسطين)" (٢٣).
وشبه أوفنيري المواجهة بين الجيش الإسرائيلي والمواطنين الفلسطينيين بأنها أشبه بملاكمين على الحلبة، "الأول بطل من الوزن الثقيل، وخصمه صاحب وزن الريشة، الجميع يتوقع ضربة قاضية، مع بداية الجولة الأولى، ولكنها تنتهي بدونها، والجولة الثانية تنتهي بدونهما، أيضاً. حتى أن الملاكم الضعيف ..، لا يزال واقفاً على قدميه في الجولة الثالثة والرابعة، فمن الواضح أنه المنتصر" (٢٤).

يردف أفنيري أن ما حدث يُعد عملية ساذجة، من الناحية النظرية، بشعة من الناحية العملية ولن تخلف إلا الكوارث، لذلك، "فإن الفلسطينيين لم يُكسروا، الاقتصاد منهار، والحياة تحولت إلى جحيم، ولكن الشعب الفلسطيني مستمر في دعم الانتفاضة، وقد تحولت الانتفاضة إلى حرب استنزاف وفي حرب كهذه، فالروح المعنوية للمحتل أقوى ... لقد قال نابليون (في الحرب تمثل الروح المعنوية ثلاثة أرباع، وميزان القوى الملموس يمثل، الربع الباقي ...) وكتب الأديب ناثان التزمان، قائلاً: (لا يوجد شعب ينسحب من حفائر حياته)(٢٥).

تبقى العمليات الاستشهادية الوسيلة التي اختارها المناضلون الفلسطينيون، في مقاومتهم المشروعة ضد الاحتلال، بالرغم من العمليات العسكرية الضخمة ضد الشعب الفلسطيني وما يعانيه من اقتصاد منهار، فإن العنف المستخدم ضد الشعب الفلسطيني، ولو لدى بعض الإسرائيليين قناعة بأنه سيزيد من العمليات الاستشهادية. يقول كاتب إسرائيلي "إن تعبير (تصفية البنية الإرهابية) يُعد تعبيراً مضللاً ... لأن ما قيمة هذا التعبير لو أصبح كل الفلسطينيين انتحاريين؟!" (٢٦).

يرد كاتب إسرائيلي على الأصوات التي تتساءل عن جدوى العمليات الاستشهادية، مؤكداً أنه: "بفضل العمليات (الانتحارية) نجح الفلسطينيون في قلب شوارع العدو الإسرائيلي إلى معسكر حربي كبير ومرهق". مردفاً: "بفضل العمليات الانتحارية، نجحوا في المس، بقساوة، بالاقتصاد الإسرائيلي، وفي الحفاظ على اهتمام الأسرة الدولية بمشكلتهم" وخلص الكاتب نفسه إلى أنه "لولا العمليات الانتحارية لكانت المعاناة والضائقة من نصيب الفلسطينيين

وحدهم" [٢٧].

هوامش الفصل السابع

(١) زنيف شيف، إسرائيل ستحارب بعنف وبلا رحمة وستوجه عملياتها ضد عائلات الانتحاريين، هاآرتس، ٥/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **القدس العربي**، (لندن)، ٦/ ٣/ ٢٠٠٢.

(٢) يوائيل ماركوس، خذوا أنفاسكم، **هاآرتس**، ١٦/ ٢/ ٢٠٠١، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، إبريل/ نيسان ٢٠٠١. العدد ٧٦.

(٣) Gal Lufi, (The Palestinian H-Bomb, Terror's Wining Strategy), Foreign Affers, Newyork, July/ Agust ٢٠٠٢

(٤) يديعوت أحرونوت، ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٢ أورون د. عبد الوهاب المسيري، **من الانتفاضة إلى حرب التحرير**، القاهرة، منشورات درّة، ٢٠٠٢، ص ١٠٨.

(٥) د. نعما داود وآخرون، (قادة سياسيون إسرائيليون يقترحون: تغيير السلطة .. الحوار معها: شن حرب قصيرة المدى أو إنهاء الاحتلال)، **يديعوت أحرونوت**، ٤/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية: **القدس العربي**: (لندن)، ٥/ ٣/ ٢٠٠٢.

(٦) أليكس فيشمان، عملية بلاطة عابثة ولا تمس بعرفات والسبيل الوحيد لمنع الانتحاريين هو مراكز الأمن، **يديعوت أحرونوت**، ٣/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **القدس العربي**، (لندن)، ٤/ ٣/ ٢٠٠٢.

(٧) إليعازر آرييه، أيها القادة إما أن تحلوا المشكلة أو تذهبوا للجحيم، من موقع الإذاعة العبرية على الإنترنت، ٢/ ٤/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية: **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، مايو/ أيار ٢٠٠٢، عدد ٨٩.

(٨) سيفر بلوتكس، شارون فشل بتحقيق الأمن فليذهب للبيت والحكومة الفاشلة لا تحكم، **يديعوت أحرونوت**، ٦/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرة ترجمتها العربية، **القدس العربي**، (لندن)، ٧/ ٣/ ٢٠٠٢.

(٩) افتتاحية هاآرتس، (الحكومة العاجزة)، ٦/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢، عدد ٨٨.

(١٠) إيتان دايان، يجب محاكمة مهندسي أوسلو، موقع **هاتسوفيه** على الإنترنت، ٧/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية: **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة) عدد ٨٨، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢.

(١١) يهوديت بوفال، الحياة في ظل أحداث الانتفاضة، صحيفة **رابطة نيطل**، عدد ٢،إبريل/ نيسان ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، عدد ٧٨، يونيو/ حزيران ٢٠٠١.

(١٢) روني شاكيد، إزدهار كتائب الموت، **يديعوت أحرونوت**، ٨/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية: **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، عدد ٨٨، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢.

(١٣) يوئيل ماركوس، لا فائدة تجنى من حرب دون طرح بديل سياسي لها، **هاآرتس**، ٣١/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية** (القاهرة)، عدد ٨٨، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢.

(١٤) ديان، **مصدر سبق ذكره**.

(١٥) داليا النهري، يجب القضاء على الوهم المسمى الحركة الإسلامية، **هاآرتس**، ٢٧/ ٩/ ٢٠٠١، نشرت ترجمتها العربية: **مختارات إسرائيلية** (القاهرة)، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١، عدد ٨٣.

(١٦) زئيف شيف، هل من الممكن أن يحدث هذا في إسرائيل، **هاآرتس**، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة) عدد ٨٢، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١.

(١٧) ماتان دهان، الآن جاءت فرصتنا للتخلص من أعدائنا، **معاريف**، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠١، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١.

(١٨) إفتتاحية هاآرتس، الحكومة العاجزة، ٦/ ٣/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، عدد ٨٨، إبريل/ نيسان ٢٠٠٢.

(١٩) إفتتاحية هآرتس، نظرة في غنائم عملية الجدار الواقي، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية: **مختارات إسرائيلية**، (القاهرة)، عدد ٩٠، يونيو/ حزيران، ٢٠٠٢.

(٢٠) إفتتاحية **هاآرتس**، دائرة جديد من العنف، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٢، نشر ترجمتها العربية، **المصدر نفسه**.

(٢١) إفتتاحية **معاريف**، (قبل أن تطرح بنا الموجة الجديدة)، ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٢ نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، عدد ٨٩، مايو/ أيار ٢٠٠٢.

(٢٢) **المصدر نفسه.**

(٢٣) أوري أفنيري، في جنيين أسست الدولة، من موقع **حركة السلام** على الإنترنت، ١٣/ ٤/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية **مختارات إسرائيلية**، مايو/ أيار، ٢٠٠٢.

(٢٤) أوري أفنيري،لا توجد ضربة قاضية، **ملحق معاريف السياسي**، ١٧/ ٤/ ٢٠٠١. نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، عدد ٧٨، يونيو/ حزيران ٢٠٠١.

(٢٥) **المصدر نفسه.**

(٢٦) يوئيل ماركوس، اختبار المحصلة النهائية للزعيم، هاآرتس، ١٨/ ٤/ ٢٠٠٢، نشرت ترجمتها العربية، **مختارات إسرائيلية**، العدد ٨٩، مايو/ أيار ٢٠٠٢،

(٢٧) آريه شبيط العمليات الانتحارية أثبتت نفسها، **معاريف**، ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٢، أوردت ترجمتها العربية: **القدس العربي**، (لندن) ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٢.



الفصل الثامن
الأصداء في الصحف الغربية

فتحي عبد العليم

نظراً لأهمية ومحورية دور الغرب، ومكانته في مجريات الصراع، سنقوم في هذا الفصل برصد ومتابعة أصداء العمليات الاستشهادية لدى وسائل الإعلام الغربية، خصوصاً الصحافة، دون تدخل منا، ثم نقوم، بإلقاء نظرة تحليلية على هذه الأصداء، استكمالاً للفائدة، وتسجيلاً لما هو جدير بالملاحظة، والاهتمام.

أصداء واهتمامات

في حديث مع وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق، شيمون بيريز، أجرته مجلة دير شبيجل الألمانية، بتاريخ ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١، تم توجيه مجموعة من الأسئلة للسياسي الإسرائيلي المعروف، نورد منها ما يلي:

س: تستخدم إسرائيل قوة عسكرية هائلة ضد الفلسطينيين، تغلق مناطق ..، تقتل "إرهابيين" مستهدفين، وعلى الرغم من ذلك الانتفاضة مستمرة، ولم يتوقف العنف، فهل تنتهجون سياسة خاطئة؟

ج: لقد تمكنا - عن طريق العمليات العسكرية - من منع ٨٠٪ من هجمات

إرهابية خطرة، فعندما يتواجد إرهابيون انتحاريون في الطريق، لابد من الحيلولة دون تنفيذ عملياتهم. ولذلك فإننا لا نتمكن، بكل أسف، أن نرفع الإغلاقات، بالطريقة التي تمنيناها. ولكن من الخطأ بمكان أن نتصرف على نحو عسكري فحسب. يجب علينا أن نفعل المزيد.

س: لقد أصر مجلس الوزراء على عدم التحدث بعد ذلك، مع القيادة الفسطينية، ووصف عرفات بأنه شخصية ضعيفة، غير موضوعية، ولا لزوم لها.

ج: نحن لا نزال نتحدث مع القمة الفلسطينية، ومازالت العلاقات كما هي.

س: ولكنكم لا تتحدثون مع عرفات. وهذا أمر منعه رئيس وزرائكم.

ج: إننا نتحدث مع مستشاريه، إن أية محادثات مع عرفات تعتبر بمثابة دراما، لا يعرف المرء ما يحدث فيها. ولذلك يجب إعداد مثل هذه المحادثات، إعداداً جيداً.

س: ولكن ألا يذكر القرار الحكومي - صراحة - بأن عرفات يعتبر، الآن، عدواً لإسرائيل، مرة أخرى.

ج: إن عرفات ليس عدونا، بل لا يزال أهم مسئول فلسطيني، ولكن يتحتم عليّ أن أقول بأنه قد فقد مصداقيته - ليس بالنسبة لكثير من الإسرائيليين فحسب، بل، أيضاً، بالنسبة للولايات المتحدة والأوربيين - لم يعد هناك أي تساهل مع الإرهاب، على مستوى العالم. إن قتل أطفال ونساء لا يعتبر مقاومة، ولا يستطيع عرفات أن يستعيد ثقته، عن طريق المحادثات فحسب، عليه الآن أن ينفذ ما وعد به.

س: هل لا يزال في إمكانه فعل ذلك؟

ج: إنني أعتقد بأنه يستطيع، فهو ينجح عندما يكون لديه إصرار، كما حدث في عام ١٩٩٦، عندما كنا نواجه موجات إرهابية مخيفة. فقد سيطر عرفات، آنذاك، على الموقف، وساد الهدوء على مدى أربع أو خمس سنوات. عليه أن يراعي مصالحه الخاصة، ولاسيما أن "حماس" و"الجهاد" يحركان، في حقيقة

الأمر، الأجندة السياسية في الوقت الراهن. ويتعين عليه، أن يستعيد مصداقيته لدى شعبه. إن كل قنبلة من قنابل "حماس" تضعف من زعامته.

س: بيد أنكم تعززون من موقف "حماس"، عندما تقصفون أقسام شرطة عرفات.

ج: لقد انضم بعض رجال شرطة عرفات، وبعض حرسه الخاص، ومقاتلي "التنظيم"، التابع لحركة "فتح" للإرهاب. وعلى عرفات أن يعيدهم إلى صفوفهم. إن كثيراً من الذين اعتقلناهم، أو الذين قتلوا ينتمون إلى "حماس" و"الجهاد" [١].

في افتتاحية صحيفة "لوموند" الفرنسية، بعددها الصادر في ١/ ٤/ ٢٠٠٢، ورد ما يلي: "دون شك، لن تظل أي حكومة إسرائيلية دون أي رد فعل في مواجهة مذبحة، مثل مذبحة نتانيا. ففي يوم الأربعاء، من شهر مارس/ آذار الماضي، قامت حركة "حماس" الإسلامية بعملية انتحارية، أسفرت عن مقتل (٢١ قتيلاً)، ودمار غرفة طعام لفندق في هذه المدينة الصغيرة، في شمال إسرائيل، حيث كانت عدة عائلات مسالمة - آباء، وأطفال، وأجداد - مجتمعة من أجل الاحتفال بتناول عشاء "عيد الفصح" اليهودي. بالنسبة لأي شخص، قد يحاول أن يصنف باستعمال هذا النوع من البربرية، ضمن قائمة الكوارث الحتمية الناجمة عن هذا النمط من النزاعات، فإننا نوجه له نصيحة خالصة: إذهب، ولو للحظة، إلى أي مستشفى، فستلاحظ الأجساد المشوهة مدى الحياة للناجين. وأوجه كلامي للفلسطينيين الذين يهللون، فرحاً، وبأعداد غفيرة، وعلى الملا، لدى سماع خبر مثل هذه الأعمال الخسيسة، التي يحتفلون بها في الضفة الغربية، كإنجاز عسكري، وسنذكرهم بحقيقتين، الأولى هي: أن أي قضية - وحتى قضية الدولة الفلسطينية العادلة، والتي يجب أن تتم مساندتها، وأن احتلال الأراضي عمل ظالم، ويجب أن يتم محاربته - لا يبرر مثل تلك المذبحة. والثانية هي أن الوسائل تحدد الغايات. فهؤلاء الذين سيتم استغلالهم في القيام بعمليات الكفاح الوطني دائماً يتحدثون عن هؤلاء الذين يتم اختيارهم كمسئولين، حينما يصير الأمر لحكم فلسطين المستقلة [٢].

في مقال تحت عنوان "سلطة تحوطها الشكوك" كتبت صحيفة "نينانشال

تايمز" البريطانية جاء: "كان الهجوم الانتحاري، الذي وقع مؤخراً، إشارة إلى أسوأ ساعة تشهدها عملية السلام بالشرق الأوسط، منذ اشتعال الانتفاضة الفلسطينية. ولم تؤد التفجيرات، ولا الرد الثأري الذي تم أمس، إلى تقوية موقف هؤلاء الذين يرفضون محاولات عقد مفاوضات من أجل السلام فحسب. لكنها أدت، أيضاً، إلى التعجيل بحدوث تغيير ملحوظ في موقف الإدارة الأمريكية. المغزى الأهم من كل ذلك هو أن الأحداث زادت من ضعف موقف ياسر عرفات داخل السلطة الفلسطينية، وهو الموقف الذي ربما لن يطرأ عليه تحسن (٣).

في حوار أجرته صحيفة "الموندو" الأسبانية، مع الشيخ أحمد ياسين، الزعيم الروحي لحركة "حماس"، نورد بعض الأسئلة التي وجهت إليه:

س: بعد الأحداث الأخيرة، هل ستعود "حماس" لتصبح في بؤرة الصراع؟

ج: إن الوضع الحالي ليس بجديد، إنه نتيجة للاحتلال والعنف الصهيوني، الذي نتعرض له منذ عام ١٩٤٨. يكفي النظر إلى الطريقة التي يعيش بها الفلسطينيون هنا في غزة، كما لو كانوا في سجن كبير مفتوح. إنه شعور مؤلم للغاية، أن يولد المرء ويموت وهو يعاني، ولكننا بمساعدة الله سنحرر أرضنا.

س: ألا يعتبر إرسال فرقة انتحارية ضد المدنيين إرهاباً؟

ج: هؤلاء المدنيون مثلهم مثل العسكريين، يحتلون بيوتنا وأرضنا، ونحن نصارع باستخدام الوسائل المتاحة لدينا. إن إسرائيل تقصفنا، يومياً، وتقتل شعبنا، دون أن تبالي بمعاناته، لو كان لدينا مثلهم، دبابات، وطائرات، وصواريخ موجهة، لم نكن لنقتل المدنيين.

س: ولكن ألا تتعارض العمليات الانتحارية مع الإسلام؟

ج: إنها مشيئة الله، ومعنى كلمة "شهيد" هو الشخص الذي يموت في سبيل حرية شعبه، وأهله.

س: ما الذي ينبغي تغييره حتى تختفي الاعتداءات؟

ج: عمليات "حماس" ستستمر، حتى ينتهي الاحتلال، ونستعيد حقنا في الحياة بحرية في وطننا [٤].

في حوار مع ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية، أجرته صحيفة "دي فيليت" الألمانية، عن طريق محررها الصحفي جان سبيركو، ورد ما يلي:

س: إلى أي مدى تستعدون في مجال وقف العنف الفلسطيني؟

ج: وهل ترى أننا لم نفعل ما يكفي؟! فقد أعلنا الأحكام العرفية، وتم القبض على إثنى عشر من المعارضين لوقف إطلاق النار، وقد قمنا بإغلاق منشآت، ومكاتب "حماس" و"الجهاد".

س: وبالرغم من ذلك لاتزال هذه الجماعات تريد مواصلة القتال؟

ج: نحن لا نتوقع منهم شيئاً آخر، فهم يخضعون لأوامر تأتي لهم من الخارج. لكننا مصممون، وبشدة، على الالتزام بوقف إطلاق النار. ويجب عليهم الإنصياع لأوامري.

س: لماذا يهاجم الجيش الإسرائيلي مقر سلطة الحكم الذاتي، وليس المكاتب التابعة لحماس والجهاد؟

ج: هذا هو مفتاح ما يجري، في هذه اللحظة، فالإسرائيليون يعرفون، تماماً، أين تعمل، وتعيش العناصر العسكرية لتلك الجماعات، وأين تقع مقارهم، ومراكزهم. وبالرغم من ذلك تشن إسرائيل اعتداءاتها وهجومها على مراكز سلطة الحكم الذاتي، وقد قمنا بإغلاق تسعة وعشرين مركزاً، في الضفة الغربية وثلاثة عشر مركزاً في قطاع غزة، وتضم هذه المنشآت مدارس، وملاجئ للأيتام، ومساجد، هي، الآن، تخضع لإشراف سلطة الحكم الذاتي [٥].

وتحت عنوان "مفتي الديار المصرية: الانتحاريون شهداء"، أجرت صحيفة "لوفيجارو" الفرنسية، عن طريق محررها كلودلوريو، حواراً مع الشيخ أحمد الطيب (المفتي)، جاء في مقدمته: عين الرئيس مبارك الشيخ أحمد الطيب، الذي يعد ليبرالياً، في منصب المفتي، وهو المنصب الإسلامي الثاني، بعد منصب الشيخ سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، الجامعة الدينية العظيمة بالقاهرة،

وكان لنا معه الحديث التالي:

لوفيجارو: كيف ترى الانتحاريين الفلسطينيين؟

الشيخ أحمد الطيب: أجمعت كل من جامعة الأزهر، ووزارة الأوقاف، ودار الإفتاء (التي يرأسها المفتي)، على أن هذه العمليات، هي أعمال دفاع شرعي عن النفس، ومكافحة الإحتلال. ووفقاً لنا، فإن القائمين بها ليسوا منتحرين، إنهم شهداء. الإسلام يفرض أسساً للتعامل، أثناء الحروب، فممنوع على المحاربين، قتل النساء، والأطفال، والقساوسة في الأديرة، وحتى قطع الأشجار. وتطبق هذه القواعد، عندما تحارب دولة دولة أخرى، وحينما يحارب جيش جيشاً آخر. ولا يمكن تطبيقها في فلسطين، حيث يضرب الجيش الإسرائيلي القوى، بطائراته، ودباباته، وطائراته الهليكوبتر، الفلسطينيين المسلحين، بأسلحة خفيفة. والجيش الإسرائيلي يقتل النساء، والأطفال. وتعد العمليات الاستشهادية الطريقة الوحيدة المتاحة للفلسطينيين للدفاع عن أنفسهم.

س: لكن الانتحاريين الفلسطينيين، يهاجمون - أيضاً - المدنيين من الرجال، والنساء، والأطفال. فهل ترى أن ذلك أمراً شرعياً؟

ج: هذه الأعمال ستكون غير مقبولة، إذا كانت المقاومة الفلسطينية تمتلك أسلحة متقاربة مع أسلحة الجيش الإسرائيلي، ولكن المقاومة لا تمتلك مثل هذه الأسلحة، ولذا، فإن أي عمل آخر يكون شرعياً. والشعب الإسرائيلي شعب مسلح وعدواني، وفي إسرائيل كل المواطنين يمكن أن يصبحوا عسكريين .. وقد يصعب فهم ذلك على الأوربيين ولكن .. هل من الأسهل فهم موت الأطفال الفلسطينيين؟! [٦].

"أهل رام الله يريدون المزيد من الهجمات"، تحت هذا العنوان كتبت صحيفة "هيرالدتريبيون" الدولية، بقلم مراسلها، الصحفي جويل برنيكلي، يصف الأجواء السائدة في الضفة الغربية، وآراء ومواقف الفلسطينيين: "يصعب أن نجد أي شخص هنا في هذا المركز الفلسطيني (مدينة رام الله في الضفة الغربية)، لا يؤمن، بأن الهجمات ضد إسرائيل، يجب أن تستمر بكل قوتها". يستطرد مراسل الصحيفة، قائلاً: "وعند مقابلة عدد لا حصر له من الفلسطينيين، لم يبد أي منهم أي حزن على أولئك الإسرائيليين الذين لقوا مصرعهم، أو جرحوا في

الأعمال الهجومية التي جرت، يوم الأحد الماضي" [٧].

أجرت صحيفة "لوموند" الفرنسية حديثاً صحفياً هاماً مع جون - فرنسوا لوجران، وهو باحث في المعهد القومي للبحوث، ومتخصص في القضية الفلسطينية، وذلك بتاريخ ١٠/ ١٢/ ٢٠٠١، نورد منه مقتطفات، ببعض الإطالة، لأهميته:

س: هل يعني ما يحدث إذن أن نهاية عرفات قد أوشكت؟

ج: أولاً، هو لم يظهر رغبته في معاودة العيش في المنفى، بيد أن الأحداث الراهنة، قد استنفدت طاقاته. وهذا يجعله يشعر بنفس معاناته السابقة في بيروت منذ عشرين عاماً. ثم إنه إذا أراد أن يرحل، فإني أرى، أنه ما من دولة في المنطقة، مستعد لاستقباله، خوفاً من أن تظهر وكأنها راضية عن سياسة إسرائيل. وأخيراً، فأنا لا أعتقد بأن الإسرائيليين يمكن أن يغتالوه، علناً. وإذا فعلوا ذلك، فسوف يكون عليهم أن يتصرفوا، بحيث لا يتحملون هذه المسئولية. لا، إني أعتقد، ببساطة، بأن السلطة الفلسطينية ستتم تصفيتها، تدريجياً، تحت وطأة الضربات العنيفة التي تتلقاها من إسرائيل، بالتواطؤ مع أمريكا.

س: ولكن، في النهاية، ألم يفقد هذا الرجل مصداقيته تماماً، لدى شعبه؟

ج: لا، حذار! فهناك أغلبية من الفلسطينيين، يعتقدون، دون شك، أن "الرجل العجوز" قد أخطأ السبيل، وأنه قد استقل، منذ عشر سنوات، سفينة يحرك دفتها الإسرائيليون، وأنه يحتاج لوقت طويل، لتغيير هذا التكتيك. غير أن عرفات يظل "بطل المقاومة الشعبية". و"الأب الروحي" للشعب، وبصيغة ما، التجسيد الحي لدولة فلسطين. ومهما حدث، فسوف يظفر، دائماً، بهذا الرصيد الرمزي الضخم. وحتى الإسلاميين المتشددين في "حماس" أو "الجهاد"، الذين يشككون في سياسته، يحترمونه كرمز. وسوف تلاحظون بأن قوات الأمن الفلسطينية، إذا كانت قد قتلت، بالفعل، بعضاً من المتشددين الإسلاميين، فإن العكس لم يحدث، أبداً.

س: إنما جملة الهجمات الانتحارية التي قاموا بشنها في إسرائيل، ألا تهدف إلى زعزعته؟

ج: من الملاحظ أن هذه الحملة قد زعزعته، ولكن ذلك يعتبر نتيجة فحسب، وهذا ليس هدفهم. فحماس غير راضية عن "عملية أوسلو"، لأنها، من وجهة نظرها، لا تتيح أية فرصة لإقامة العدل. ولكنها لا تستهدف، بصفة خاصة، الإطاحة به. وبالنسبة للإسلاميين، فإن اهتمامهم ينصب على استمرار تجسيدهم لمطلب معنوي وديني، في المجتمع الفلسطيني. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف، سيتطلب الأمر الضغط في النواحي السياسية، حيث أن إستيلاءهم على الحكم لا يشغلهم، بالمرة. فالحكم إنما يعني مزيداً من الأعباء، منها الالتقاء "بالعدو" في المؤتمرات الدولية. و"حماس" لا تصر على ذلك، فهذه، أولاً، حركة "إصلاحية" واجتماعية.

س: وهي التي تشن، مع ذلك، بصورة منتظمة، حملات انتحارية دامية.

ج: بالقطع - غير أننا نلاحظ، أيضاً - بأنه في كل واحدة من هذه العمليات كان المقصود هو الرد على ما نراه بمثابة عدوان إسرائيلي مباشر، مثل مذبحة جماعية، أو تصفية جسدية لأحد قادتهم. والهجمة الانتحارية الأولى، كانت للرد على اغتيال ٢٩ فلسطينياً، أثناء سجودهم في الصلاة، في الخليل، عام ١٩٩٤م، على يد أحد المستوطنين المتعصبين، فالانتقام، حسب المفهوم شبه المقدس لهذه الكلمة، إنما يتفوق على سائر الأولويات "الاجتماعية والسياسية" للحركة، والإسرائيليون يعلمون ذلك، تماماً.

س: ماذا تقصد بذلك؟

ج: فلنتأمل فيما حدث. ففي عام ١٩٩٦م، وقبيل عدة أسابيع من أول انتخابات فلسطينية "مستقلة"، حدث اغتيال يحيي عياش، الذي يلقبونه "بالمهندس"، وهو خبير المفرقعات، الذي قام بتنظيم الهجمات السابقة. وقد كان رد "حماس": هو حملة هجمات انتحارية، تم الإعلان عنها، وتنفيذها. بل وهناك أمثلة أخرى. في يوم ١١ سبتمبر الماضي، وبناء على أوامر من عرفات، الذي أدرك خطورة الموقف الدولي. تعهدت "حماس" بوقف أي اعتداء. إن كلمة "الأشقاء" شرف، ولكن للأسف، قبل يومين من وصول المبعوث الأمريكي الجديد إلى "الأرض المقدسة"، الذي حضر إلى المنطقة في محاولة لإعادة المفاوضات التي يرفضها شارون، إلى نصابها، فجأة حدثت عملية اغتيال "استهدافية" جديدة.

واغتيال أبو الهنود، وهو أحد القادة العسكريين في الضفة الغربية - وليس القائد الأعلى كما يعلم الإسرائيليون - سوف يستتبعه تلقائياً حملة انتقام جديدة، وكما هو الحال في كل مرة، فإن الإسرائيليين عند اغتيالهم لأحد القادة، يعلمون، تماماً، ما سيترتب على ذلك (٨).

كتب روبرت فيسك، في صحيفة "الاندبندنت" اللندنية في عددها الصادر بتاريخ ٥/ ٤/ ٢٠٠٢، تحت عنوان "بوش لا يفهم أبعاد المأساة الحالية"، وذلك تعليقاً على خطاب الرئيس الأمريكي: "لم يكن بوسع أرئيل شارون أن يفعل أفضل مما فعل. إن ما يحتويه خطاب بوش من تكديس للوم على شعب محتل، علاوة على الاستخدام المفرط لكلمة (الإرهاب)، التي وردت الإشارة إليها، في تقديري خمسين مرة، تقريباً، في غضون عشر دقائق، فقط، كما أن التعليقات الخاطفة الوجلة، فيما يتعلق بـ"الاحتلال" والمستوطنات اليهودية، التي وردت مرة واحدة فقط، وكذا الحاجة إلى "تعاطف" إسرائيلي، في نهاية الخطاب، كان دليلاً على أن الرئيس الأمريكي بوش قد أخفق، تماماً، في فهم المأساة التي يفترض أنه بصدد حلها". استطرد الكاتب في تحليله لمضمون خطاب بوش، قائلاً: "بيد أن الهجمات الانتحارية، كانت المحور الذي دار حوله خطاب بوش، فقد تحدث عن الفتاة الفلسطينية ذات الثمانية عشر عاماً، التي فجّرت نفسها، وقتلت فتاة إسرائيلية، عمرها سبعة عشر عاماً، وقتلت معها (حلم) الدولة اليهودية بإحراز سلام مع جيرانها. وجاء في الخطاب ما نصه (لابد من وقف الإرهاب ... فلا يمكن لأية دولة أن تتفاوض مع إرهابيين ... فالتفاوض إنما يكون مع زعامات وليس الإرهاب ... فإما أن تكون مع العالم المتحضر، وإما أن تكون مع الإرهابيين ... ويتعين على الجميع في الشرق الأوسط، أن يتصدوا للارهابيين، بالقول والفعل ... وأنا أهيب بالسلطة الفلسطينية أن تفعل كل ما بوسعها لوقف النشاطات الإرهابية!)" (٩).

تحت عنوان "آرئيل شارون يستسلم لإغراء القوة المطلقة" كتبت صحيفة "لوموند" الفرنسية: "الأمر لا يتعلق بعدد لا يحصى من الإجراءات الانتقامية، ولا لعملية ثأرية أكثر حدة من العمليات التي سبقتها فحسب، فبعد حمامات الدم، التي ارتكبتها حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، في نتانيا، في بداية "عيد الفصح" اليهودي، غيرت إسرائيل قواعد اللعبة، فبالنسبة لرئيس الوزراء

أرئيل شارون، لم يعد هناك مجال، من الآن فصاعداً، للعودة إلى الخلف، لإيجاد إطار لعملية سلام كان يعارضها دائماً".

كما جاء في موضع آخر من المقال: "وحتى وقت قريب، كانت الإهانات والضغوط التي يمارسها الإسرائيليون ضد رئيس السلطة الفلسطينية، ياسر عرفات، لها هدف رسمي، يندرج تحت التصور التالي: إجباره على مكافحة المتطرفين الفلسطينيين، حتى إذا كان غريباً بعض الشئ، أن يتم ذلك في نفس الوقت الذي تم فيه حرمانه (عرفات) من حرية الانتقال، وإخضاع قوات الأمن المكلفة، نظرياً، بهذه المهمة، لإنهاء قتال دائم، وأخيراً تأجيل، إلى وقت لاحق، أية تسوية سياسية. وحالياً لم تعد هذه هي المسألة، فقد أصبح الجيش الإسرائيلي، وحده، المكلف، من الآن فصاعداً، بمكافحة (الإرهابيين)، حيثما كانوا في الأراضي الفلسطينية" (١٠).

كتبت صحيفة "هيرالدتريبيون الدولية"، في عددها الصادر في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٢، تحت عنوان: "زوجة عرفات تجيز الهجمات الانتحارية ضد الإسرائيليين"، "قبل أن يدين ياسر عرفات (الإرهاب ضد المدنيين)، أخبرت زوجته، سها عرفات، مجلة تصدر باللغة العربية، بأنها تقر الهجمات الانتحارية، بوصفها مقاومة شرعية ضد الاحتلال. ففي مقالة نشرت في مجلة "المجلة الأسبوعية، التي تصدر في لندن، والتي تملكها السعودية، صرحت سها عرفات بأنه لو كان لديها ولد، فلن يكون هناك شرف أكبر من أن يضحي بنفسه من أجل القضية الفلسطينية. كما نقل عنها قولها: "هل نتوقع أن أكون أنا وأولادي أقل وطنية، وأكثر رغبة في الحياة من أبناء وطني، وكذلك من أبيهم، وقائدهم الذي يسعى للاستشهاد؟". يعقب كاتب المقال على ذلك، فيقول: والمعروف أن سها عرفات لديها إبنة، وليس إبن، وطبقاً لما ذكره المسئولون الإسرائيليون والفلسطينيون، فإن كل من سها عرفات وابنتها تعيشان في باريس بعيداً عن الحملة التي تشنها إسرائيل ضد الفلسطينيين. يستطرد كاتب المقال، فيقول: "وقد صرح هنري سيجمان، وهو عضو بارز في مجلس العلاقات الخارجية، والذي كان يدعو للسلام في الشرق الأوسط، لما يزيد عن أربعة عقود، بقوله: عندما اسمع امرأة في ذكاء وثقافة، ووضع سها عرفات في المجتمع الفلسطيني، تؤيد الهجمات الانتحارية. فإنني أخشى، أن الهدف بالنسبة

للإسرائيليين والفلسطينيين لم يعد تحقيق الأمن، أو إقامة دولة فلسطينية، ولكنه الانتقام" (١١).

في حديث لمجلة "ديرشبيجل" الألمانية مع ياسر عرفات، ورد ما يلي:

س: يقوم شارون "بحملة ضد الإرهاب"، ويتوقع تعاون الفلسطينيين في ذلك الأمر.

عرفات: يشن شارون حرباً دموية على شعب محتل - نحن نحارب الإرهاب عن اقتناع خاص. ولكننا لا ننسى إرهاب الدولة، الذي تقوم به إسرائيل، كلفنا حوالي ألفي شهيد فلسطيني، وما يفوق الخمسة وثلاثين ألف جريح. توجه غارات شارون ضد المدنيين، والنساء، والأطفال، وتدمر دباباته، ومدافعه، وطائراته بنيتنا التحتية، ومطار غزة، الذي تم بناؤه بأموال أوربية، والمدارس، وإدارة الإحصاء في رام الله، التي تم إحياؤها بالمساعدات الأوربية والأمريكية، والقائمة طويلة. هل ترى في ذلك محاربة للإرهاب؟!

س: تسعى القيادة الإسرائيلية، بالأخص، إلى تصفية هذه الجماعات المتطرفة، التي تخطط، وتنفذ العمليات الانتحارية، التي تكلف المدنيين حياتهم، وبينهم، أيضاً، نساء وأطفال.

ج: سوف أعود، لاحقاً لتلك العمليات، التي ألعنها، وأحاربها ليس من اليوم فحسب، ولكن قبل ذلك أود أن أطرح سؤالاً، ألا وهو: لماذا سمح شارون، في إطار حملته بقصف كنيسة ومسجد؟ ولماذا جعل ضربته العسكرية تتزامن تماماً، مع موعد الإفطار في شهر رمضان؟! ولماذا يقوم الإسرائيليون باقتلاع جذور ما يفوق نصف اشجار الزيتون، أرضنا؟! والتي يعتمد عليها عدة آلاف من الأسر؟ ما نوع العقلية التي تكمن وراء تلك الأفعال؟ لماذا لا يسمح للمسيحيين والمسلمين الفلسطينيين، الذين يعيشون خارج القدس، ويقل سنهم عن ٤٥ عاماً، بحضور عيد الميلاد، وأداء الصلاة في عيد الفطر بالمدينة المقدسة، أو زيارة الأهل والأقارب هناك؟ لماذا يتم خنق الحرية الاقتصادية، لماذا لا يسمح بدخول شركة الغاز البريطانية إلى قطاع غزة، حيث اكتشفنا فيها مصدراً للغاز الطبيعي؟

س: ألا يحتمل أن يكون الغضب إثر العمليات الانتحارية، والتفجيرات هو الذي أدى إلى تلك النتائج السيئة؟

ج: واحداً تلو الآخر. أُريد أن أطلع سيادتك على تناقض آخر، يصعب تجاوزه، فنحن نتوقع دعماً من أولئك الذين يطالبوننا باتخاذ إجراءات أكثر حزماً من ذي قبل، ضد متطرفي "حماس" والجناة الآخرين. ماذا يفعل جيش شارون؟ إنهم يدمرون كل مراكز الشرطة، تقريباً، ومعظم نقاط قيادة الحرس الرئاسي، ويعوقون حركتنا، بحرية، عبر الحواجز، والحصار الذي يطوق مدننا. ويقوم الجيش فضلاً عن ذلك بتدمير سجوننا. ومن الواضح، تماماً، ما يعنيه هذا.

س: إلى أي مدى تعد سيادتك جاداً في اتخاذ إجراءات عنيفة في مواجهة "حماس" و"الجهاد الإسلامي؟" هل سيادتك قادر على ذلك، على الإطلاق؟

ج: بالرغم من أن إسرائيل تؤذينا، بشكل غريب، إلا أننا نعمل، راضين، وبشكل فعال، لمحاربة جذور العنف والإرهاب. فقد قمنا بإغلاق جميع مكاتب كلتا المنظمتين، والقبض على المتهمين الموجودين في قائمة المطلوبين، التي وضعها المفوض الأمريكي، زيني، وتمكنا من القبض عليهم. فمن الضروري بالنسبة لنا، أن تنتهي هذه العمليات الجنونية، إلى الأبد. نحن نلتزم بواجباتنا، تماماً، ودوماً، حتى وإن لم تلتزم إسرائيل بواجباتها. إذ لم تنسحب من مناطق الحكم الذاتي، وأغلقت المدن والقرى بالمتاريس، وتجاهلت كل الاتفاقات المبرمة.

س: يعتبر الكثير من الفلسطينيين إجراءات سيادتكم الصارمة ضد مرتكبي الأعمال الإرهابية من المتطرفين الإسلاميين استسلاماً وخضوعاً لإسرائيل؟

ج: أنا أعلم هذا، وبعض المتحدثين يقول أكثر من ذلك. ولكني أقول للجميع، بصراحة ووضوح: نحن نطيع فحسب سلطة الحكم الذاتي الوطنية الفلسطينية الشرعية، والمكونة من أعضاء منتخبين، انتخاباً حراً، هم المجلس التشريعي الفلسطيني، ومن لا يذعن للقرارات الشرعية للسلطة المركزية، أو حتى يخالف المصالح القومية لشعبنا، يتعمد الوقوع تحت طائلة القانون، وينبغي عليه أن يتحمل التبعات.

س: ألا يؤدي هذا إلى حرب أهلية؟

ج: لا، على الإطلاق. فلتكن متأكداً، تماماً، بأن الغالبية العظمى تطيع أوامرنا. لن تتحقق أماني أعدائنا، في أن يقع شعبنا فريسة حرب أهلية (١٢).

كتبت صحيفة "لوفيجارو" الفرنسية، تحت عنوان "الشرق الأوسط: المفاضلة بين هزيمتين"، بقلم كاتبها السياسي شارل لامبروشيني: "في الشرق الأوسط لم يعد الرهان قاصراً على وقف العنف، بل المطلوب هو التحكم في تفاقمه، إن دوامة الانتقام والثأر تدور، بلا توقف. إن الانتحاري الفلسطيني الذي فجّر نفسه في تل أبيب، مؤخراً، كان يود الانتقام لثلاثة من إخوانه المجاهدين التابعين لحركة "حماس"، بعد أن قام الجيش الإسرائيلي باغتيالهم. اختتم الكاتب مقاله: "إن عرفات الذي يواجه مأزقاً، ليس أمامه أي اختيار، سوى المفاضلة بين نوعين من الهزيمة، إما الخضوع أو الرحيل، ولكن لا الإسرائيليون ولا الفلسطينيون ينبغي عليهم أن ينسوا الحكمة القديمة القائلة: "في الشرق الأوسط، لا يكتب النجاح إلا لأنصاف الانتصارات" (١٣).

نظرة تحليلية

بعد أن قمنا بعملية الرصد والتغطية لأصداء العمليات الاستشهادية لدى الصحف، وأجهزة الإعلام الغربية، يهمنا أن نعلق على ذلك من خلال نظرة تحليلية استكمالاً لفائدة البحث. وعلى ذلك نسجل الملاحظات التالية:

١ ـ بعد أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، استجد مناخ متشدد في الغرب عموماً، وسادت أجواء عدائية صاخبة لكل ما هو عربي وإسلامي، أو يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة، وألقى هذا بظلاله القاتمة، ولاشك، على أصداء العمليات الاستشهادية، ووقائع الانتفاضة، فتم إطلاق يد شارون ليفعل ما يشاء بالشعب الفلسطيني، وأصبحت هناك مساندة أمريكية تامة لكل ما يفعل. واستطاع الإعلام الصهيوني أن يستغل هذه الأحداث، بمهارة فائقة، وتم الربط، بخبث ومهارة، بين العمليات الاستشهادية وبين الحملة الدولية لمحاربة الإرهاب. وتم العمل على تكريس مصطلحات "التطرف"، و"الإرهاب"، و"الأصولية" لدى العقلية والوجدان الغربي. وتم إقناع قطاعات عريضة من المجتمعات الغربية بأن ما تتعرض له إسرائيل مشابه، إلى حد كبير، لما

حدث للولايات المتحدة، في ١١ سبتمبر/ أيلول. ولذلك لم يكن غريباً، أن نسمع مقولات من قبيل "إسرائيل تدافع عن نفسها"، وأن "شارون رجل سلام"، وأن "هذه العمليات، هي عمليات إرهابية موجهة ضد المدنيين"!. لذلك سوف يلحظ القارئ، مدى كثافة وتكرار التساؤل عن مدى أحقية ومشروعية هذه العمليات، ودائماً ما توصف بالعمليات الإرهابية أو الانتحارية.

٢ - نتيجة التباين الثقافي بيننا وبين المجتمعات الغربية، نلحظ تبايناً كبيراً في النظر والتقييم لهذه العمليات. فهي في نظرهم، توصف بالعمليات الانتحارية، أو الإرهابية، كما أسلفنا، كما أن هناك صعوبة في الفهم لدى الغربيين، في كيف توجه هذه العمليات إلى تجمعات للمدنيين، نتيجة الجهل بطبيعة التجمع الصهيوني، والبعد عن إدراك حقيقة الظروف التي تقع على الأرض، وعدم الوعي بالظروف غير الطبيعية التي يحياها أبناء الشعب الفلسطيني. وكذلك يتم غض الطرف عن الجرائم التي تقع على الأطفال، والنساء، والمدنيين الفلسطينيين العزل، فيكثر اللوم والتقريع تجاه الجانب الفلسطيني، في مقابل التعاطف، بدرجة كبيرة مع القتلى والجرحى من الإسرائيليين، وأيضاً يضعف ويخفت اللوم، أو النقد تجاه ممارسات الجانب الإسرائيلي.

٣ - لم تكتف وسائل الإعلام الغربية بعملية الرصد والإخبار عن وقائع العمليات الاستشهادية، وإنما تعدتها إلى عملية تحليل واسعة لكل زوايا وخبايا هذه العمليات، وقامت بإجراء حوارات جادة وفاعلة مع كل الشخصيات والأطراف المؤثرة، من سياسيين وخبراء ورجال دين، وكذلك تأثير تلك العمليات على مواقف ومراكز كل من شارون وعرفات وتجمعات كل من المعسكرين المتصارعين.

٤ - أيضاً، لم تكتف وسائل الإعلام الغربية، بتحليل الموقف الراهن لأطراف الصراع، وإنما تعدتها إلى النظرة المستقبلية، وسيناريوهات المستقبل، فثمة تساؤلات عن مصير عرفات، وماذا بعد عرفات؟! وهل سيتم التخلص من عرفات أم لا؟! وكذلك هل سيبقى شارون أم سيرحل؟!

٥ - امتدت تحليلات الصحف الغربية، إلى البحث وراء الدوافع الظاهرة والخفية وراء هذه العمليات الاستشهادية، وهل هي مجرد رد فعل للعدوان

الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، أم أنها تهدف إلى زعزعة مركز ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، وهل من الممكن أن يؤدي ذلك إلى نشوب حرب أهلية بين الفصائل الفلسطينية. واهتمت، أيضاً، في حواراتها مع عرفات، باستجلاء رأيه في هذه العمليات الاستشهادية، وموقفه منها، ومدى تأثيرها على علاقته بالفصائل، والقوى الأخرى الفلسطينية، خصوصاً "حماس" و"الجهاد"، كما اتضح من النماذج الحوارية، التي أوردناها سالفاً.

٦ - ثمة اهتمام خاص باستطلاع، ومعرفة رأي رجال الدين الإسلامي، فتم إبراز وجهات نظر الرموز، والقيادات الدينية، وإجراء حوارات معهم، مثل الشيخ سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، ومفتي الديار المصرية الدكتور أحمد الطيب، وكذلك الشيخ أحمد ياسين، الزعيم الروحي لحماس وغيرهم، وذلك إدراكاً من الإعلام الغربي، لمدى أهمية الوازع الديني في مجريات الصراع، وتفاعلات الأحداث، والحركة الإيجابية، أو السلبية للشعوب والجماهير العربية والإسلامية المبنية على تأثير الفتاوي والآراء الدينية، وكذلك تصاعد أو هبوط رد الفعل العربي، وقوة وضعف المواقف التي تتخذها القواعد التحتية للمجتمعات العربية، والمتمثلة في الجماهير، وانعكاساتها على مواقف وسياسات أنظمة الحكم والقادة السياسيين.

٧ - إهتمت الصحف الغربية، أيضاً، بإلقاء الأضواء الكاشفة على تأثير هذه العمليات الاستشهادية، على رجل الشارع العادي الإسرائيلي، أو في الجانب الفلسطيني، وامتدت إلى بيان مدى تأييد، أو رفض الشعب الفلسطيني لهذه العمليات، وكذلك إبراز مواقفهم، ومشاعرهم. وفي الجانب الإسرائيلي كانت هذه الصحف، دوماً، تبرز آراء الجنود والمدنيين، من كل الفئات، والأعمار، ومدى تأييدهم، أو رفضهم لسياسات شارون، والتقييم المستمر لجدوى هذه السياسات.

٨ - تراوحت لغة وخطاب الكتاب والمفكرين في الصحف الغربية بين اللوم، والإدانة، للعمليات الاستشهادية، وبين اللهجة المعتدلة، والأحكام الموضوعية، طبقاً للمواقف الأيديولوجية، والتحيزات الفكرية لكل كاتب، كذلك مدى حكمه في المقابل، على الممارسات الوحشية للسلطات الإسرائيلية، وإن كانت، دائماً، تتسم بالحذر، نتيجة السطوة الصهيونية، وشدة النفوذ اليهودي على الميديا الإعلامية الكوكبية، في عالم اليوم.

٩ ـ أعلن عمرو موسى، الأمين العام للجامعة العربية، منذ توليه منصبه، بأن الإعلام العربي قد فشل في خدمة القضايا العربية، ولم ينجح في التأثير على أو استقطاب الرأي العام الغربي، لمناصرة قضايانا. ومن أجل ذلك استحدث موسى منصباً جديداً، أسنده للسيدة حنان عشراوي، من أجل القيام بأعباء الإعلام العربي. بالإضافة إلى اعتماد وزراء الإعلام العرب لقرارات بإنشاء قنوات فضائية عربية. وهي خطوات تعتبر إيجابية بغض النظر عن إطلاق الأحكام والانتقادات لمثل هذه البدايات.

هوامش الفصل الثامن

(١) انيتي جروسبنجاردت، عرفات ليس عدونا، **دير شبيجل** (بون)، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١.

(٢) مقال افتتاحي، عدم المساعدة، **لوموند**، (باريس)، ١/ ٤/ ٢٠٠٢.

(٣) هارفي موريس، سلطة تحوطها الشكوك، **فايننشال تايمز**، (لندن)، ٤/ ١٢/ ٢٠٠١.

(٤) خوردي يوبيت، إسرائيل تريد أن تقود الفلسطينيين إلى حرب أهلية، **الموندو**، (مدريد)، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١.

(٥) جان سبيركو، يتعين على حماس أن تنصاع لأوامري، **دي فيليت**، (بون)، ٢١/ ١٢/ ٢٠٠١.

(٦) كلودلوريو، مفتي الديار المصريون "الانتحاريون شهداء"، **لوفيجارو** (باريس)، ١٥/ ٥/ ٢٠٠٢.

(٧) جويل برينكلي، أهل رام الله يريدون المزيد من الهجمات، **هيرالدتريبيون الدولية**، (واشنطن)، ١٩/ ٣/ ٢٠٠٢.

(٨) باتريك كلود، يخشى من نشوب حرب أهلية بعد إختفاء عرفات من الساحة، حوار مع جون - فرانسوا لوجران **لوموند**، (باريس)، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠١.

(٩) روبرت فيسك، بوش لا يتفهم أبعاد المأساة الحالية، **الاندبندنت**، (لندن)، ٥/ ٤/ ٢٠٠٢.

(١٠) جيل باريس، آرنيل شارون يستسلم لإغراء القوة المطلقة، **لوموند**، (باريس)، ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٢.

(١١) جوديت ميلر، زوجة عرفات تجيز العمليات الانتحارية ضد الإسرائيليين، **ليبراسيون**، (باريس)، ١١/ ٤/ ٢٠٠٢.

(١٢) فولكمارد فيندرفور، أفعال شارون الوحشية/ حوار مع ياسر عرفات، **ديرشبيجل**، (بون)، ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١.

(١٣) شارل لامبروشيني، الشرق الأوسط: المفاضلة بين هزيمتين، **لوفيجارو**، (باريس)، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٢.



خاتمة الكتاب

عبد التواب مصطفي

هذه مجموعة من الومضات الفكرية، والحقائق التاريخية والسياسية، التي رأيت ضرورة تسجيلها. في ختام هذا الكتاب، ففيها إثبات موقف مبدئي بشأن عدد من القضايا الفرعية المرتبطة بالقضية الأم - القضية الفلسطينية، وفيها إجابات ملحة عن بعض الأسئلة المتوقع أن تثور بذهن القارئ بنهاية قراءته هذه الصفحات.

أولاً - فيما يتعلق بنا نحن أصحاب القضية:

١ - نرجو أن لا يسئ بعض شركائنا في الدفاع عن القضية - من أصحاب الاتجاهات الفكرية والسياسية غير الإسلامية - فَهمَ الحديث عن العمليات الاستشهادية، إذا جاء - الحديث - مشبعاً بالاعتزاز أو الإكبار لهذا الأسلوب النضالي/ الجهادي، أو الاعتزاز بالنتائج المبهرة التي حققها، فإن كل هذا لا يعني التعريض بالأشكال النضالية الأخرى، ولا يعني التقليل من شأن النتائج التي حققتها ولاتزال تحققها، ولا يعني تجاهل مشوار الكفاح الطويل الذي عاشه الشعب الفلسطيني، أجيالاً متلاحقة.

٢ - على عكس ما يردده شركاء آخرون - متأثرين بالدعاية الصهيونية - من أن (هذه العمليات الاستشهادية، لم تحرر الأرض، وإنما أعادت احتلالها)، نقول - لهؤلاء - أنكم تعلمون أن مخطط شارون لإعادة احتلال الأرض معلن منذ سنوات بعيدة، ولم يكن بحاجة لذرائع، وأن مخطط اليمين الصهيوني المتطرف، معلنة وآخذة في التنفيذ منذ سنوات أبعد، بشأن إقامة القدس الكبرى، والعمل على ضم بقية أرض فلسطين إلى الكيان الصهيوني.

فجاءت انتفاضة الأقصى، وفي صدر فعالياتها العمليات الاستشهادية، لا لتعيد

احتلال الأرض - كما ترددون - وإنما لتجعل من ذلك لقمة غير سائغة، ولتكون شوكة في حلق ذلك النظام الإرهابي، تحول دون ابتلاعه الأرض، أو بقية الأرض، ولتثبت لشارون أنه إن تمكن من أن يطول بعض الأرض بترسانته العسكرية، فإنه لم يَطُل قيد أنملة من عزم الشعب الفلسطيني على استعادة كل الأرض. ولتثبت لشارون أنه بما أقدم عليه في حق الشعب الفلسطيني، لم يحقق إلا مغامرة فاشلة أخرى، بل قاتلة، تضاف إلى سجل مغامراته القذرة،، وسيقبع بعدها بصحبة الهوام والحشرات، في مزابل التاريخ.

وكما تعلمون أيها الأشقاء الشركاء، فقد وصلت يد هذه العمليات الاستشهادية إلى أمتار من منزل الصهيوني المتطرف، بنيامين نيتانياهو، الرئيس الأسبق لحكومة النظام العنصري في تل أبيب. وأن رئيس الحكومة الحالي شارون لا يهنأ - حالياً - بالمبيت ليلتين متتاليتين في منزل واحد، وأنه - شارون - بدأ يهذي بعبارات ما قبل السقوط والانهيار، كما ظهر في حديثه إلى زائريه في احتفالهم بعيد المظلة، وحديثه في احتفال السفارة المسيحية بالقدس في اليوم السابق ... فلم يكف عن طلب النجدة والعون من (محبي إسرائيل) من الصهاينة البروتسانت، فقد بات متأكداً من أن العمليات الاستشهادية أصبحت تقوض أركان كيانه، أو بيته العنكبوتي.

قال شارون للحاضرين في الاحتفال الأخير، (إن الفلسطينيين يعملون على تقويض وجودنا ... ولن يستطيعوا... أبداً، أبداً، أبداً، أبداً، أبداً !.

كرر (أبداً) خمس مرات، وهو يرتجف.

هذا الإدراك المخيف نفسه، جعل نيتاياهو - أيضاً- يرتجف.

في حديثه إلى الفضائية الإسرائيلية - بالعربية - في ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٢ قال - مشيراً إلى اجتماع للقوى الإسلامية - (إن اجتماعاً عقده بالأمس ستون ألفاً من جماعات المقاومة الإسلامية، يعلنون فيه أنهم يواجهوننا بالدم والنار، كفيل بأن يجعلني أرتجف، وكذلك يجب أن يرتجف كل إسرائيلي، خوفاً على الكيان الذي نبنيه منذ خمسين سنة).

هذا:

ومع تقديرنا لكل الهبات والمظاهرات الجماهيرية، وكل صور التضامن السياسي في المؤتمرات والجولات التفاوضية، فإن هذه الأشكال النضالية جميعها، إن لم تسبقها المقاومة الميدانية أو توازيها أو تؤازرها، فلا جدوى من الكلام وحده مع عدو عنصري تمرس على الإرهاب والبطش وتجاهل الآخرين..

إن أياً من هذه الأشكال النضالية، بدون المقاومة الميدانية، لم يُفقد العدو توازنه، ولم يفقده إحساسه بالأمن، ولم يحطم اقتصاده، ولم يعكس اتجاه الهجرة إلى الخارج، ولم يحطم نظرية الأمن لدى هذا العدو .. ولكن العمليات الاستشهادية فعلت كل هذا، لأنها في الميدان.

يبقى أن يحسن قادة المسيرة ترجمة كل هذه التضحيات إلى نتائج سياسية لائقة، ولا يختزلوها في اتفاقات (أوسلوية) أخرى، تحمل نُذُر الفشل، وإرهاصات الانفجار مرة جديدة

٣ - إلى السيد الرئيس ياسر عرفات، وبعض المنتفعين حوله ..

بادروا بإصلاح أنفسكم. ولا تلطخوا تاريخ نضالكم بنقاطٍ سوداء لا تليق برموز المقاومة، ولا بالقيادات التاريخية للشعوب. وادرأوا عن أنفسكم اتهامات الرئيس الأسبق لحكومة النظام العنصري في تل أبيب - نيتانياهو - بأنكم تضعون أموال المساعدات الدولية في جيوبكم، وتتركون شعبكم يتضور جوعاً.

في حديثه إلى الفضائية الإسرائيلية، ذكر نيتانياهو ذلك، مضيفاً أن المخابرات العسكرية لنظامه تؤكد أن الحساب الخاص لعرفات به ١,٢ مليون دولار.

أيها السادة القادة ..

برغم أن سلطتكم حديثة الولادة، فقد بات المشهور عنكم أنكم وُلدتم عمالقة، على طريق الفساد السياسي والإدراي، والتسلط على رقاب أبناء شعبكم .. وأنكم تفوقتم - في هذا - على نظرائكم، في بقية النظم العربية .. عجَّل الله بنهاياتكم جميعاً .. رحمة بكم، وبنا. آمين.

أيها السادة القادة ..

كُفّوا عن سياسة (الرقص على السلم)، التي أفقدتكم ثقة الكثيرين واحترامهم. إنكم حركة تحرر ومقاومة - بكل الوسائل المستطاعة والمتاحة - ضد استعمار جاثم على صدر بلادكم ورقاب شعبكم، فاعلنوها صراحة .. عملاً، وقولاً.

كفوا عن الصلاة تجاه واشنطن.

أمَا كفاك سيادة الرئيس عرفات - شخصياً - هذا التجاهل، وهذه الإهانات المكثفة والمتواصلة من ذلك الـ(بوش) الـ(الصبي)، لتكف عن تسول رضاه، ثم تنعم بالرضا الأكرم والأشرف .. رضا ربك وشعبك، وفصائل المقاومة على أرضك، وتعود لك مصداقيتك كزعيم لشعب يسعى للتحرر .. لا لاستجداء رضا قاتليه ومذليه ومتجاهليه ؟!

قل لأحفاد (الإرهابيين) الرُواد، مؤسسي الولايات المتحدة. قل لبوش وعصابته: إن ما فعله أجدادكم حتى تحرروا. كان أشد وأقسى من العمليات الاستشهادية.

قل لأحفاد (الإرهابيين) إن ما فعله ويفعله مجرمو الحرب الصهاينة - قادة النظام العنصري الحاكم في تل أبيب - بشعبنا، هو أشد وأقسى من العمليات الاستشهادية.

٤ - إلى أشقائنا رجال المقاومة والمجاهدين ..

واصلوا ثباتكم وصمودكم، واستقووا بإخلاصكم لما أنتم بصدده.

استقووا بذكر الله .. فإن الثبات في الميدان وذكر الله .. هما طريق الفلاح. وإن لكم وعد صدقٍ من الله عز وجل أن ينصركم ويثبت أقدامكم.

قال - تعالي - : (يأأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (الأنفال: ٤٥)

وقال: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون). (الصافات: ١٧١ - ١٧٣)

واعلموا أنه لن يضركم مَن خَذَلكم من شعوب الأمتين العربية والإسلامية وحكامهما.

والتمسوا عذراً لأشقائكم من شعوب هاتين الأمتين، فهم مشغولون بمثل ما أنتم بصدده، هم يسعون للتحرر مثلكم، يسعون للتحرر من قبضة نظم الحكم التي قهرتهم وأذلتهم وتحكمت في رقابهم وألسنتهم.

هذه النظم المتسلطة ياأشقائي لم تُسِء إليكم أو إلى شعوبها فحسب، بل لقد أساءت إلى نفسها وأوطانها أيضاً.

أساءت إلى نفسها، لأنها أحالت شعوبها، إلى جثث هامدة الإرادة، فيما يخص هذه النظم ومَن على رأسها، ولن تتحرك هذه الشعوب قيد أنملة للدفاع عن هذه النظم، يوم تتجه إليها المخالب الأمريكية لتنهشها، أو تسقطها، نظاماً بعد نظام.

أساءت إلى أوطانها، لأنها بتسلطها وقهرها لشعوبها، تتيح فرصة لقوى خارجية عديدة - وفي صدارتها الولايات المتحدة - للتدخل، بحجة إنقاذ هذه الشعوب، ثم تحيل تدخلها إلى وجود مستمر، أو استعمار جديد .. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أخيراً أشقائي ..

لا تتعجبوا لقوله: (حسبنا الله ونعم الوكيل) في هذا السياق، لقد انداحت دائرة إساءات هؤلاء الحكام، لتنال من الإسلام نفسه، بتسلطها وقهرها هذا .. وأتاحت الفرصة لمثل (كوندليزارايس) لتقول - كما تناقلت وسائل الأعلام في ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٢ - "إن الولايات المتحدة باتت تعتبر نفسها ذات رسالة تحررية تجاه شعوب العالم الإسلامي .. ولن نترك الإسلام يقف في وجه القيم الأمريكية"، وهكذا أتيحت الفرصة لهؤلاء الصهاينة الجدد أن يجعلوا من تسلط هؤلاء الحكام وديكتاتوريتهم (قيماً إسلامية) والإسلام منها برئ، فلا أقل - إذن - من قولنا "حسبنا الله ونعم الوكيل" في رقاب هؤلاء الحكام.

ثانياً - إلى اعدائنا الألدَّاء .. الصهاينة (اليهود منهم والبروتستانت):

١ - هناك كذبة كبرى روج لها الإعلام الصهيوني إقليمياً وعالمياً، أسهمت في تضليل الكثيرين، قال الصهاينة إنهم قدموا لياسر عرفات (٩٨٪ من الأرض) لكنه رفض توقيع اتفاقية وضع نهائي، وحمّلوه - كذباً وافتراءً - مسئولية فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية وما تلاها.

والصحيح أن رمزَي التحالف الصهيوني الإمبريالي - باراك وكلينتون - لم يفعلا ذلك، بل ما فعلاه هو أنهم طالبوا عرفات بالتخلي عن المسجد الأقصى والقدس، وطي صفحة الكثير من قضايا الوضع النهائي، وخاصة قضية اللاجئين، الأمر الذي أشعل انتفاضة الأقصى والعالمين العربي والإسلامي - آنذاك - انتصاراً لكرامة الشعب الفلسطيني، ومقدسات الأمة.

هدفنا من تسجيل هذه النقطة هو تأكيد أن إعلان التحالف الصهيوني الإمبريالي، بهذه الفجاجة والوضوح، عن أطماعه في أرضنا ومقدساتنا، وتأكد الشعب الفلسطيني من انهيار كافة جهوده السلمية لنيل حقوقه، وتأكده من أن عدويه اللدودين قد اتفقا عليه، كل ذلك دفع الشعب الفلسطيني، إلى أن يُخرج أشد وأعنف ما في جعبته من أسلحة، لردع هذا التحالف القذر، الذي لم يُبق على شئ إلا أطماعه في أرضنا، دون اعتبار لكرامة شعبنا، وحقه في تقرير مصيره، وتحرير أرضه، وحماية مقدساته.

هكذا، كان كشف أعدائنا عن أطماعهم بهذا الشكل المستفز خليقاً بأن يثير فينا أعلى درجات المقاومة، ثم توظيف أشد أسلحتنا المتاحة، فكانت العمليات الاستشهادية، أو زاد معدل تنفيذها.

٢ - في إطار حملات الكذب والتسريب والتشكيك - أيضاً - تردد أن منفذي العمليات الاستشهادية - هم من اليائسين الفاشلين غير المتعلمين وذوي الظروف الحياتية أو الاجتماعية المتدنية، وكان كل ذلك تمهيداً لإقناع البعض بأن العمليات الاستشهادية هي (انتحارية)، إذا كان منفذوها من هذه الفئات الاجتماعية التي تميل إلى التخلص من حياتها الصعبة.

والحقيقة غير ذلك. فقد تبين أن ٤٧٪ من منفذي العمليات الاستشهادية، هم

من خريجي الجامعات، وأن منهم مَن تخرج بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف. وأن منهم مَن درست أحدث علوم العصر بالجامعة الأمريكية، وأن منهم مَن كانت تعد فستان زفافها.

لعل هذه الحقائق تفقأ أعين الصهاينة، الذين تعاموا عن قراءتها من قبل، ولعلها تلجم ألسنة عملائهم الذين يروجون دعايتهم، وتؤكد أن اليأس والانتحار هو ما يفعله الصهاينة منذ أتوا إلى السلطة بذلك الإرهابي المجرم شارون. الذي لم يحقق لهم إلا الخوف والفزع والدمار والانتحار والعقد النفسية والفرار إلى الخارج، ووضع أقدام كيانهم على طريق النهاية.

٣ ـ نحن نشفق على مئات الملايين من الصهاينة المسيحيين (البروتستانت)، لقد تمكنت الصهيونية اليهودية من استغفالكم واستغلالكم لتحقيق أطماعها في بلادنا.

لقد زينت لكم الباطل، ودست في عقولكم مزاعم (العودة إلى أرض الميعاد) وما هذه المزاعم إلا ذرائع للاستيلاء على أرض العرب. فالكتاب المقدس الذي يتشدق به الوعاظ والمكرزون في القنوات التليفزيونية الفضائية البروتستانتية - يقرر أن العرب كانوا في أرض فلسطين وهم الذين عمروا وبنوا مدنها وقراها قبل أن تطأها أقدام أبي الأنبياء إبراهيم نفسه، وقبل أن يكون في هذه الدنيا يهود أو يهودية.

يقرر كتابكم المقدس هذا - أيضاً - أن إبراهيم ومَن عاش في أرض فلسطين من أبنائه، لم يكونوا - يوماً - أكثر من لاجئين أو عابري سبيل، أو منقضين على السلطة كأي مستعمر غريب.

قولوا لصهاينة اليهود: أَفَبَعدَ أن أكرمكم الفلسطينيون، وآووا آباءكم كأقلية لاجئة، جيلاً بعد جيل، تأتون أنتم اليوم - وأنتم لمامة الأرض ونفاية المجتمعات الإنسانية - لتقلبوا الحقائق، وتطمعوا في إعلان سيادتكم على أرضهم، بدل أن تشكروهم على سابق معروفهم.

أفيقوا، أيها الصهاينة البروتستانت، وانفضوا عن أذهانكم ذلك التدليس اليهودي.

ونحن نناقشكم: كان لليهود - يوماً - معبدٌ في بلادنا، كما أن لنا اليوم مئات المراكز الإسلامية والمساجد في بلادكم، فهل تقبلون منا أن نطالب بإعلان سيادتنا على أرضكم لمجرد أن لنا بها هذه المساجد؟! طبعاً ستتهموننا بالخبل والجنون.

هذا الخبل وهذا الجنون، هو ما يفعله اليهود ببلادنا هذه الأيام، عندما يحاولون إعلان سيادتهم على بلادنا، وأنتم تؤيدونهم. من فضلكم، أحيوا ضمائركم، واخلعوا أيديكم من أيدي اليهود المدلسين. وأقرأوا تاريخ بلادنا فيما هو مدون بكتابكم المقدس، وموسوعاتكم العلمية.

إقرأوا في (تكوين ١٢: ١٦): " ... وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض".

أقرأوا في (تكوين ٢٣: ٤): " أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني ملك قبر لأدفن ميتي".

إقرأوا هاتين الآيتين في كتابكم المقدس، لتتأكدوا أن اليهود يدعون وعوداً كاذبة، فقد نزل إبراهيم إلى الأرض العربية وكان فيها أهلها، وظل لا يملك منها متراً، حتى نهايات حياته، وعندما ماتت زوجته، طلب من الفلسطينيين أن يعطوه ملك قبر ليدفنها.

أحيوا ضمائركم، واخلعوا أيديكم من أيدي اليهود الكذابين المدلسين.

٤ - بقدر إشفاقي على الصهاينة البروتستانت - عامة، يأتي إشفاقي على الولايات المتحدة - خاصة -، فهي ليست إلاّ مطية تعتلي ظهرها - حالياً - الحركة الصهيونية، كما اعتلت - من قبل - ظهر المملكة المتحدة، حتى نفد عطاء تلك المملكة، وأصبحت عجوزاً شمطاء لا رجاء فيها، وقد اقترب يوم نفاد عطاء الولايات المتحدة، لتُلقي بها الحركة الصهيونية جانباً، وتمتطي غيرها.

وليست الولايات المتحدة إلا متعامية عن نشاط إسرائيل في شرق الكرة الأرضية، في إطار سعيها - إسرائيل - المبكر عن مطية المرحلة القادمة.

٥ - لا تتوهمن أيها القارئ الكريم - أني أشتم الصهاينة، بقولي إنهم لمامة

الأرض ونفاية المجتمعات الإنسانية، فهذه حقائق علمية، لقد تم استجلاب هؤلاء إلى بلادنا من أطراف العالم المترامية، ولفظتهم كافة المجتمعات بعد أن أفسدوا وخانوا وتآمروا. لقد طوردوا من كل من بريطانيا وفرنسا، وبلجيكا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، وروسيا وأوكرانيا وليتوانيا، والدانمارك والنرويج وهولندا. وإن تمكنوا من التسرب إلى بعض تلك البلدان ثانية.

إثنان فقط لم يطردا اليهود: فرعون الذي أذلهم، وهتلر الذي حاول إبادتهم.

إنتهى

في كتابنا (نقض شريعة الهيكل) رد وتفنيد لمزاعم ودعاوي الصهاينة - عقائدياً وتاريخياً وقانونياً وسياسياً - قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.